من روائع التراث الجنسى عند العرب

بكر محمد إبراهيم

الناشر

مركز الراية للنشر والإعلام

اسم الكتاب : من روائع التراث الجنسى
عند العرب
بقلـــم : بكر محمد إبراهيم
الطبعة : الأولى ٢٠٠٤
الناشر : مركز الراية للنشر والأعلام
فكرة الكتاب : للناشر أحمد فكرى .
رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٥٥٨٤
الترقيم الدولى
I.S.B.N. 977 - 354 - 040 -5

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده .

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الرحمة المسداة والنعمة العظمى.

وبعـــد ،،،

فهذا كتاب موسوعى عن روائع التراث الجنسى عند العرب يتضمن روائع الأقوال والأخبار والقصص الذى يحمل أخبار الجوارى والهيام والصبابة والهام والغرام وقعت فى حياة العرب وشكلت جزءً من تراثهم وحضارتهم .

ويتضمن الكثير من أقوال الحكماء وأصحاب التجارب ، وما كان من أخبار الملوك وحبهم وعشقهم وأخبار شهيرات النساء وروائع قصص الحب وأثر هذه العاطفة الجياشة فى تاريخ العرب مما جاء فى كتب الأدب وكتب التراث والسياسة .

وقد أدلى كبار العلماء والأدباء بدلوهم فى هذا التراث الجنسى عند العرب ومنهم الإمام السيوطى والإمام ابن قيم الجوزية وعمرو بن بحر الجاحظ والأبشيهى والأصفهانى وعشرات غيرهم .

إن عاطفة الحب من أقوى العواطف وأعمقها أثرا فى الإنسان وأكثرها تأثيراً فى تاريخ البشرية وكذا غريزة الجنس هى أقوى الغرائز بها عمران الأرض ومن أجلها كان الزواج والحب والمعاشرة، وهناك من رفعه الحب والجنس وآخرون قتلهم العشق أو أضنى أجسادهم وحير عقولهم .

وقد ذكرت بين هذه القصص والأخبار هدى النبى ﷺ فى الزواج وعلاج العشق وصفات النساء ومواصفات الجمال فى النساء ومحاسن الأخلاق ومساوئها فى النساء وغير ذلك الكثير الممتع فلنترك القارئ مع هذه الموسوعة الشاملة والسفر الجليل .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى عرض هذا الموضوع الشيق المفيد .

والكمال لله وحده وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المؤلف

بكر محمد إبراهيم

عضو اتحاد الكتاب

هديه ﷺ في الجماع(١)

وأما الجماع والباه، فكان هديه فيه أكمل هدى، يحفظ به الصحة، وتتم به اللذة وسرور النفس، ويحصل به مقاصده التى وضع لأجلها، فإن الجماع وضع فى الأصل لثلاثة أمور هى مقصاده الأصلية :

أحدها: حفظ النسل، ودوام النوع إلى أن تتكامل العدة التى قدر الله بروزها إلى هذا العالم.

الثانى : إخراج الماء الذى يضر احتباسه واحتقانه بجملة البدن.

الثالث : قضاء الوطر، ونيل اللذة، والتمتع بالنعمة، وهذه وحدها هى الفائدة التى فى الجنة، إذ لا تناسل هناك، ولا احتقان يستفرغه الإنزال.

وفضلاء الأطباء : يرون أن الجماع من أحد أسباب حفظ الصحة قال جالينوس : الغالب على جوهر المنى النار والهواء، ومزاجه حار رطب، لأن كونه من الدم الصافى الذى تغتذى به الأعضاء الأصلية، وإذا ثبت فضل المنى، فاعلم أنه لا ينبغى إخراجه إلا فى طلب النسل، أو إخراج المحتقن منه، فإنه إذا دام احتقانه، أحدث أمراضا رديئة، منها : الوسواس، والجنون، والصرع، وغير ذلك، وقد يُبرىء استعماله من هذه الأمراض كثيراً، فإنه إذا طال احتباسه، فسد واستحال إلى كيفية سُمية توجب أمراضاً رديئة كما ذكرنا، ولذلك تدفعه الطبيعة بالاحتلام إذا كثر عندها من غير جماع.

وقال بعض السلف : ينبغى للرجل أن يتعاهد من نفسه ثلاثا : أن لا يدع المشى، فإن احتاج إليه يوماً قدر عليه، وينبغى أن لا يدع الأكل، فإن أمعاءه تضيق، وينبغى أن لا يدع الجماع، فإن البئر إلا لم تنزح، ذهب ماؤها. وقال محمد بن زكريا: من ترك الجماع مدة طويلة، ضعفت قوى أعصابه، وانسدت

(١) زاد المعاد ـ لابن القيم .

مجاريها، وتقلص ذكره. قال : ورأيت جماعة تركوه لنوع من التقشف، فبردت أبدانهم، وعسرت حركاتهم، ووقعت عليهم كآبة بلا سبب، وقلت شهواتهم وهضمهم، انتهى

ومن منافعه : غض البصر، وكف النفس، والقدرة على العفة عن الحرام، وتحصيل ذلك للمرأة، فهو ينفع نفسه فى دنياه وأخراه، وينفع المرأة، ولذلك كان ﷺ يتعاهده ويحبه، ويقول : «حبب إلى من دنياكم : النساء والطيب».

وفى كتاب «الزهد» للإمام أحمد فى هذا الحديث زيادة لطيفة، وهى : أصبر عن الطعام والشراب، ولا أصبر عنهن.

وحث على التزويج أمته فقال : «تزوجو فإنى مكاثر بكم الأمم».

وقال ابن عباس : خير هذه الأمة أكثرها نساء.

وقال : «إنى أتزوج النساء، وأنام وأقوم، وأصوم وأفطر، فمن رغب عن سنتى فليس منى».

وقال «يا معشر الشباب ! من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحفظ للفرج، ومن لم يستطع ، فعليه بالصوم، فإنه له وجاء».

ولما تزوج جابر ثيبا قال له : «هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك».

وروى ابن ماجه فى «سننه» : من حديث أنس بن مالك، قال : قال رسول الله ﷺ «من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً، فليتزوج الحرائر».

وفى «سننه» أيضاً من حديث ابن عباس يرفعه، قال : «لم نر للمتحابين مثل النكاح».

وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر، قال : قال رسول الله ﷺ «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة».

وكان ﷺ يحرض أمته على نكاح الأبكار الحسان، وذوات الدين، وفى سنن النسائى عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أى النساء خير ؟ قال : «التى تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فيما يكره فى نفسها وماله».

وفى الصحيحين عنه ، عن النبى ﷺ قال : «تنكح المرأة لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك».

وكان يحث على نكاح الولود، ويكره المرأة التى لا تلد، كما فى سنن أبى داود عن معقل بن يسار، أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال : إنى أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، أفأتزوجها ؟ قال : «لا» ، ثم أتاه الثانية، فنهاه، ثم أتاه الثالثة، فقال : «تزوجوا الودود الولود، فإنى مكاثر بكم».

وفى الترمذى عنه مرفوعاً: «أربع من سنن المرسلين : النكاح ، والسواك والتعطر، والحناء» روى فى «الجامع» بالنون والياء وسمعت أبا الحجاج الحافظ يقول : الصواب : أنه الختان، وسقطت النون من الحاشية، وكذلك رواه المحاملى عن شيخ أبى عيسى الترمذى .

ومما ينبغى تقديمه على الجماع ملاعبة المرأة، وتقبيلها، ومص لسانها، وكان رسول الله ﷺ يلاعب أهله، ويقبلها.

وروى أبو داود فى سننه أنه ﷺ كان يقبل عائشة، ويمص لسانها.

ويذكر عن جابر بن عبد الله قال : نهى رسول الله ﷺ عن المواقعة قبل الملاعبة.

وكان ﷺ ربما جامع نساءه كلهن بغسل واحد، وربما اغتسل عند كل واحدة منهن، فروى مسلم فى صحيحه عن أنس، أن النبى ﷺ، كان يطوف على نسائه بغسل واحد.

وروى أبو داود فى سننه عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ ، أن رسول الله ﷺ طاف على نسائه فى ليلة، فاغتسل عند كل امرأة منهن غسلا، فقلت : يا رسول الله ! لو اغتسلت غسلا واحدا، فقال : «هذا أزكى وأطهر وأطيب».

وشرع للمجامع إذا أراد العود قبل الغسل الوضوء بين الجماعين، كما روى مسلم فى صحيحه من حيث أبى سعيد الخدرى، قال : قال رسول الله ﷺ: «إذا أتى أحدكم أهله، ثم أراد أن يعود فليتوضأ».

وفى الغسل والوضوء بعد الوطء من النشاط، وطيب النفس، وإخلاف بعض ما تحلل بالجماع، وكمال الطهر والنظافة، واجتماع الحار الغريزى إلى داخل البدن بعد انتشاره بالجماع، وحصول النظافة التى يحبها الله، ويبغض خلافها ماهو من أحسن التدبير فى الجماع، وحفظ الصحة والقوى فيه.

وأنفع الجماع : ما حصل بعد الهضم، وعند اعتدال البدن فى حره وبرده، وبيوسته ورطوبته، وخلائه وامتلائه. وضرره عند امتلاء البدن أسهل وأقل من ضرره عند خلوه، وكذلك ضرره عند كثرة الرطوبة أقل منه عند اليبوسة، وعند حرارته أقل منه عند برودته، وإنما ينبغى أن يجامع إذا اشتدت الشهوة، وحصل الانتشار التام الذى ليس عن تكلف ولا فكر فى صورة، ولا نظر متتابع، ولا ينبغى أن يستدعى شهوة الجماع ويتكلفها، ويحمل نفسه عليها، وليبادر إليه إذا هاجت به كثرة المنى، واشتد شبقه، وليحذر جماع العجوز والصغيرة التى لا يوطأ مثلها، والتى لا شهوة لها، والمريضة، والقبيحة المنظر، والبغيضة، فوطء هؤلاء يوهن القوى، ويضعف الجماع بالخاصية، وغلط من قال من الأطباء : إن جماع الثيب أنفع من جماع البكر وأحفظ للصحة، وهذا من القياس الفاسد، حتى ربما حذر منه بعضهم، وهو مخالف لما عليه عقلاء الناس، ولما اتفقت عليه الطبيعةوالشريعة.

وفى جماع البكر من الخاصية وكمال التعلق بينها وبين مجامعها، وامتلاء قلبها من محبته، وعدم تقسيم هواها بينه وبين غيره، ما ليس للثيب. وقد قال النبى ﷺ لجابر : «هلا تزوجت بكرا»، وقد جعل الله سبحانه من كمال نساء أهل الجنة من الحور العين، أنهن لم يطمثهن أحد قبل من جعلن له من أهل الجنة. وقالت عائشة للنبى ﷺ : أرأيت لو مررت بشجرة قد ارتع فيها، وشجرة لم يرتع فيها، ففى أيهما كنت ترتع بعيرك ؟ قال : « فى التى لم يرتع فيها ». تريد أنه لم يأخذ بكرا غيرها.

وجماع المرأة المحبوبة فى النفس يقل إضعافه للبدن مع كثرة استفراغه للمنى، وجماع البغيضة يحل البدن، ويوهن القوى مع قلة استفراغه، وجماع الحائض حرام طبعا وشرعاً، فإنه مضر جداً، والأطباء قاطبة تحذر منه.

وأحسن أشكال الجماع أن يعلو الرجل المرأة، مستفرشا لها بعد الملاعبة والقبلة، وبهذا سميت المرأة فراشا، كما قال ﷺ : «الولد للفراش، وهذا من تمام قوامية الرجل على المرأة،

كما قال تعالى :

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [النساء]

وكما قيل :

إذا رمتها كانت فراشا يقلنى وعنـد فراغى خـادم يتملـق

وقد قال تعالى :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) ﴾ [البقرة]

وأكمل اللباس وأسبغه على هذه الحال، فإن فراش الرجل لباس له، وكذلك لحاف المرأة لباس لها، فهذا الشكل الفاضل مأخوذ من هذه الآية، وبه يحسن موقع استعارة اللباس من كل من الزوجين للآخر. وفيه وجه آخر، وهو أنها تتعطف عليه أحياناً، فتكون عليه كاللباس، قال الشاعر :

إذا ما الضجيع ثنى جيدها   تثنت فكانت عليه لباسا

وأردأ أشكاله أن تعلوه المرأة، ويجامعها على ظهره، وهو خلاف الشكل الطبيعى الذى طبع الله عليه الرجل والمرأة، بل نوع الذكر والأنثى، وفيه من المفاسد، أن المنى يتعسر خروجه كله، فربما بقى فى العضو منه فيعفن ويفسد، فيضر وأيضاً: فربما سال إلى الذكر رطوبات من الفرج، وأيضاً، فإن الرحم لا يتمكن من الاشتمال على الماء واجتماعه فيه، وانضمامه عليه لتخليق الولد، وأيضا: فإن المرأة مفعول بها طبعا وشرعاً، وإذا كانت فاعلة خالفت مقتضى الطبع والشرع. وكان أهل الكتاب إنما يأتون النساء على جنوبهن على حرف، ويقولون : هو أيسر للمرأة.

وكانت قريش والأنصار تشرح النساء على أقفائهن، فعابت اليهود عليهم ذلك، فأنزل الله عز وجل :

﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) ﴾ [البقرة].

وفي «الصحيحين» عن جابر، قال : كانت اليهود تقول : إذا أتى الرجل امرأته من دُبرها في قبلها، كان الولد أحول، فأنزل الله عز وجل :

﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ .

وفي لفظ لمسلم : «إن شاء مجبية، وإن شاء غير مجبية، غير أن ذلك في صمام واحد».

والمجبية : المنكبة على وجهها، والصمام الواحد : الفرج، وهو موضع الحرث والولد.

وأما الدبر : فلم يبح قط على لسان نبي من الأنبياء، ومن نسب إلى بعض السلف إباحة وطء الزوجة في دبرها، فقد غلط عليه، وفي «سنن أبي داود» عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «ملعون من أتى المرأة في دبرها».

وفي لفظ لأحمد وابن ماجه : «لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها».

وفي لفظ للترمذي وأحمد : «من أتى حائضا أو امرأة في دبرها أو كاهنا، فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ».

وفي لفظ للبيهقي : «من أتى شيئا من الرجال والنساء في الأدبار فقد كفر».

وفى «مصنف وكيع» : حدثنى زمعة بن صالح، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن يزيد، قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا يستحيى من الحق، لا تأتوا النساء فى أعجازهن» وقال مرة : «فى أدبارهن».

وفى الترمذى : عن على بن طلق، قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تأتوا النساء فى أعجازهن ، فإن الله لا يستحى من الحق».

وفى «الكامل» لابن عدى : من حديثه عن المحاملى، عن سعيد بن يحيى الأموى، قال : حدثنا محمد بن حمزة، عن زيد بن رفيع، عن أبى عُبيدة، عن عبد الله بن مسعود يرفعه : «لا تأتوا النساء فى أعجازهن».

وروينا فى حديث الحسن بن على الجوهرى، عن أبى ذر مرفوعا: «من أتى الرجال أو النساء فى أدبارهن، فقد كفر».

وروى إسماعيل بن عياش، عن سهيل بن أبى صالح، عن محمد بن المنكدر، عن جابر يرفعه : «استحيوا من الله، فإن الله لا يستحيى من الحق، لا تأتوا النساء فى حشوشهن». ورواه الدارقطنى من هذه الطريق، ولفظه : «إن الله لا يستحيى من الحق، لا يحل مأتاك النساء فى حشوشهن ».

وقال البغوى : حدثنا هُدبة ، حدثنا همام، قال : سُئل قتادة عن الذى يأتى امرأته فى دبرها؟ فقال : حدثنى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال : «تلك اللوطية الصغرى».

وقال أحمد فى «مسنده» : حدثنا عبد الرحمن، قال : حدثنا همام، أخبرنا عن قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، فذكره.

وفى «المسند» أيضاً : عن ابن عباس، أنزلت هذه الآية :

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ فى أناس من الأنصار، أتوا رسول الله ﷺ فسألوه، فقال : «ائتها على كل حال إذا كان فى الفرج».

وفى «المسند» أيضاً: عن ابن عباس، قال : جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ، فقال : يا رسول الله، هلكت، فقال : «وما الذى أهلكك ؟» قال : حولت رحلى البارحة، قال : فلم يرد عليه شيئا، فأوحى الله إلى رسوله :

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أقبل وأدبر، واتق الحيضة والدبر».

وفى الترمذى : عن ابن عباس مرفوعاً : «لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلا أو امرأة فى الدبر».

وروينا من حديث أبى على الحسن بن الحسين بن دوما، عن البراء بن عازب يرفعه : «كفر بالله، العظيم عشرة من هذه الأمة: القاتل، والساحر، والديوث، وناكح المرأة فى دبرها، ومانع الزكاة، ومن وجد سعة فمات ولم يحج، وشارب الخمر، والساعى فى الفتن، وبائع السلاح من أهل الحرب، ومن نكح ذات محرم منه».

وقال عبد الله بن وهب : حدثنا عبد الله بن لهيعة عن مشرح بن هاعان، عن عقبة بن عامر، أن رسول الله ﷺ قال : «ملعون من يأتى النساء فى محاشهن. يعنى : أدبارهن».

وفى «مسند الحارث بن أبى أسامة» من حديث أبى هريرة وابن عباس، قالا : خطبنا رسول الله ﷺ قبل وفاته، وهى آخر خطبة خطبها بالمدينة حتى لحق بالله عز وجل، وعظنا فيها وقال : «من نكح امرأة فى دبرها أو رجلا أو صبيا، حُشر يوم القيامة، وريحه أنتن من الجيفة يتأذى به الناس حتى يدخل

النار، وأحبط الله أجره، ولا يقبل منه صرفا ولا عدلا، ويدخل فى تابوت من نار، ويشد عليه مسامير من نار» قال أبو هريرة : هذا لمن لم يتب.

وذكر أبو نعيم الأصبهانى، من حديث خزيمة بن ثابت يرفعه، «إن الله لا يستحى من الحق، لا تأتوا النساء فى أعجازهن».

وقال الشافعى : أخبرنى عمى محمد بن على بن شافع، قال : أخبرنى عبد الله بن على بن السائب، عن عمرو بن أحيحة بن الجلاح، عن خزيمة بن ثابت، أن رجلا سأل النبى ﷺ عن إتيان النساء فى أدبارهن، فقال : «حلال»، فلما ولى ، دعاه فقال : «كيف قلت، فى أى الخربتين، أو فى أى الخرزتين، أو فى أى الخصفتين أمن دبرها فى قبلها؟ فنعم أم من دبرها فى دبرها، فلا، إن الله لا يستحيى من الحق، لا تأتوا النساء فى أدبارهن».

قال الربيع : فقيل للشافعى : فما تقول ؟ فقال : عمى ثقة، وعبد الله بن على ثقة، وقد أثنى على الأنصارى خيراً، يعنى عمرو بن الجلاح، وخزيمة ممن لا شك فى ثقته، فلست أرخص فيه، بل أنهى عنه.

قلت : ومن ها هنا نشأ الغلط على من نقل عنه الإباحة من السلف والأئمة، فإنهم أباحوا أن يكون الدبر طريقا إلى الوطء فى الفرج، فيطأ من الدبر لا فى الدبر، فاشتبه على السامع «من» بـ «فى» ولم يظن بينهما فرقا، فهذا الذى أباحه السلف والأئمة، فغلط عليهم الغالط أقبح الغلط وأفحشه.

وقد قال تعالى : ﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ قال مجاهد: سألت ابن عباس عن قوله تعالى : ﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾، فقال : تأتيها من حيث أمرت أن تعتزلها يعنى فى الحيض. وقال على بن أبى طلحة عنه، يقول: فى الفرج، ولا تعده إلى غيره.

وقد دلت الآية على تحريم الوطء فى دبرها من وجهين : أحدهما: أنه أباح

إتيانها فى الحرث، وهو موضع الولد لا فى الحُش الذى هو موضع الأذى، وموضع الحرث هو المراد من قوله : ﴿من حيث أمركم الله﴾ الآية قالوا : ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ وإتيانها فى قبلها من دبرها مستفاد من الآية أيضا، لأنه قال : أنى شئتم، أى : من أين شئتم من أمام أو من خلف. قال ابن عباس : فأتوا حرثكم، يعنى : الفرج.

وإذا كان الله حرم الوطء فى الفرج لأجل الأذى العارض، فما الظن بالحُش الذي هو محل الأذى اللازم مع زيادة المفسدة بالتعرض لانقطاع النسل والذريعة القريبة جداً من أدبار النساء إلى أدبار الصبيان.

وأيضاً: فللمرأة حق على الزوج فى الوطء، ووطؤها فى دبرها يفوت حقها، ولا يقضى وطرها، ولا يحصل مقصودها.

وأيضاً: فإن الدبر لم يتهيأ لهذا العمل، ولم يخلق له، وإنما الذى هُيىء له الفرج، فالعادلون عنه إلى الدبر خارجون عن حكمة الله وشرعه جميعا.

وأيضا : فإن ذلك مضر بالرجل، ولهذا ينهى عنه عُقلاء الأطباء من الفلاسفة وغيرهم، لأن للفرج خاصية فى اجتذاب الماء المحتقن وراحة الرجل منه، والوطء فى الدبر لا يعين على اجتذاب الماء، ولا يخرج كل المحتقن لمخالفته للأمر الطبيعي.

وأيضا: يضر من وجه آخر، وهو إحواجه إلى حركات متعبة جداً لمخالفته للطبيعة.

وأيضا فإنه محل القذر والنجو، فيستقبله الرجل بوجهه ويلابسه.

وأيضا : فإنه يضر بالمرأة جداً، لأنه وارد غريب بعيد عن الطباع، منافر لها غاية المنافرة.

وأيضا : فإنه يحدث الهم والغم، والنفرة عن الفاعل والمفعول

وأيضا : فإنه يسود الوجه، ويظلم الصدر، ويطمس نور القلب، ويكسو الوجه وحشة تصير عليه كالسيماء[1] يعرفها من له أدنى فراسة

وأيضا: فإنه يوجب النفرة والتباغض الشديد، والتقاطع بين الفاعل والمفعول، ولابد.

وأيضا فإنه يفسد حال الفاعل والمفعول فسادا لا يكاد يرجى بعده صلاح، إلا أن يشاء الله بالتوبة النصوح.

وأيضا: فإنه يذهب بالمحاسن منهما، ويكسوهما ضدها. كما يذهب بالمودة بينهما، ويبدلهما بها تباغضا وتلاعنا.

وأيضا : فإنه من أكبر أسباب زوال النعم، وحلول النقم، فإنه يوجب اللعنة والمقت من الله، وإعراضه عن فاعله، وعدم نظره إليه، فأى خير يرجوه بعد هذا، وأى شر يأمنه، وكيف حياة عبد قد حلت عليه لعنة الله ومقته، وأعرض عنه بوجهه، ولم ينظر إليه.

وأيضا : فإنه يذهب بالحياء جملة، والحياء هو حياة القلوب، فإذا فقدها القلب، استحسن القبيح، واستقبح الحسن، وحينئذ فقد استحكم فساده.

وأيضا: فإنه يحيل الطباع عما ركبها الله، ويخرج الإنسان عن طبعه إلي طبع لم يركب الله عليه شيئا من الحيوان، بل هو طبع منكوس، وإذا نكس الطبع انتكس القلب، والعمل، والهدى، فيستطيب حينئذ الخبيث من الأعمال والهيئات، ويفسد حاله وعمله وكلامه بغير اختياره.

وأيضا : فإنه يورث من الوقاحة والجرأة ما لا يورثه سواء

---

(١) السيماء : العلامة

وأيضا : فإنه يورث من المهانة والسفال والحقارة ما لا يورثه غيره.

وأيضا : فإنه يكسو العبد من حلة المقت والبغضاء، وإزدراء الناس له، واحتقارهم إياه، واستصغارهم له ما هو مشاهد بالحس، فصلاة الله وسلامه علي من سعادة الدنيا والآخرة فى هديه واتباع ما جاء به، وهلاك الدنيا والآخرة فى مخالفة هديه وما جاء به.

أنواع الجماع الضار

والجماع الضار : نوعان : ضار شرعاً، وضار طبعاً. فالضار شرعا: المحرم، وهو مراتب بعضها أشد من بعض. والتحريم العارض منه أخف من اللازم، كتحريم الإحرام، والصيام، والاعتكاف، وتحريم المظاهر منها قبل التكفير، وتحريم وطء الحائض ونحو ذلك، ولهذا لا حد فى هذا الجماع.

وأما اللازم : فنوعان : نوع لا سبيل إلى حله البتة، كذوات المحارم، فهذا من أضر الجماع، وهو يوجب القتل حدا عند طائفة من العلماء، كأحمد بن حنبل رحمه الله وغيره، وفيه حديث مرفوع ثابت.

والثانى : ما يمكن أن يكون حلالاً، كالأجنبية، فإن كانت ذات زوج، ففي وطئها حقان. حق لله، وحق للزوج. فإن كانت مكرهة، ففيه ثلاثة حقوق، وإن كان لها أهل وأقارب يلحقهم العار بذلك صار فيه أربعة حقوق، فإن كانت ذات محرم منه، صار فيه خمسة حقوق. فمضرة هذا النوع بحسب درجاته فى التحريم.

وأما الضار طبعاً، فنوعان أيضاً: نوع ضار بكيفيته، كما تقدم، ونوع ضار بكميته كالإكثار منه، فإنه يسقط القوة، ويضر بالعصب، ويحدث الرعشة، والفالج (الشلل)، والتشنج، ويضعف البصر وسائر القوى، ويطفىء الحرارة الغريزية، ويوسع المجارى، ويجعلها مستعدة للفضلات المؤذية.

أنفع أوقاته

وأنفع أوقاته، ما كان بعد انهضام الغذاء فى المعدة وفي زمان معتدل لا على جوع، فإنه يضعف الحار الغريزى، ولا على شبع، فإنه يوجب أمراضاً شديدة، ولا على تعب، ولا إثر حمام،، ولا استفراغ، ولا انفعال نفسانى كالغم والهم والحزن وشدة الفرح.

وأجود أوقاته بعد هزيع من الليل إذا صادف انهضام الطعام، ثم يغتسل أو يتوضأ، وينام عليه، وينام عقبه، فترجع إليه قواه، وليحذر الحركة والرياضة عقبه، فإنها مضرة جداً.

هديه ﷺ فى علاج العشق

هذا مرض من أمراض القلب، مخالف لسائر الأمراض فى ذاته وأسبابه وعلاجه، وإذا تمكن واستحكم، عز على الأطباء دواؤه، وأعيى العليل داؤه، وإنما حكاه الله سبحانه فى كتابه عن طائفتين من الناس : من النساء، وعشاق الصبيان المُردان، فحكاه عن امرأة العزيز فى شأن يوسف، وحكاه عن قوم لوط، فقال تعالى إخبارا عنهم لما جاءت الملائكة لوطا:

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾ [الحجر]

وأما ما زعمه بعض من لم يقدر رسول الله ﷺ حق قدره أنه ابتلى به فى شأن زينب بنت جحش، وأنه رآها فقال : «سبحان مقلب القلوب». وأخذت بقلبه، وجعل يقول لزيد بن حارثة : أمسكها حتى أنزل الله عليه :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

فظن هذا الزاعم أن ذلك فى شأن العشق، وصنف بعضهم كتابا فى العشق، وذكر فيه عشق الأنبياء، وذكر هذه الواقعة، وهذا من جهل هذا القائل بالقرآن وبالرسل، وتحميله كلام الله ما لا يحتمله، ونسبته رسول الله ﷺ إلى ما براه الله منه، فإن زينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة، وكان رسول الله ﷺ قد تبناه، وكان يدعى زيد بن محمد، وكانت زينب فيها شمم وترفع عليه، فشاور رسول الله ﷺ فى طلاقها، فقال له رسول الله ﷺ : «أمسك عليك زوجك واتق الله» وأخفى فى نفسه أن يتزوجها إن طلقها زيد، وكان يخشى من قالة الناس له : تزوج امرأة ابنه، لأن زيداً كان يدعى ابنه، فهذا هو الذى أخفاه فى نفسه، وهذه هى الخشية من الناس التى وقعت له، ولهذا ذكر سبحانه هذه الآية يعدد فيها نعمه عليه لا يعاتبه فيها، وأعلمه أنه لا ينبغى له أن يخشى الناس فيما أحل الله له، وأن الله أحق أن يخشاه، فلا يتحرج ما أحله له لأجل قول الناس، ثم أخبره أنه سبحانه زوجه إياها بعد قضاء زيد وطره منها لتقتدى أمته به فى ذلك، ويتزوج الرجل بامرأة ابنه من التبنى، لا امرأة ابنه لصلبه، ولهذا قال فى آية التحريم :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ

﴿ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) ﴾ [النساء].

وقال : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾ [الأحزاب]

وقال : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ﴾ [الأحزاب]

فتأمل هذا الذب (الدفاع) عن رسول الله ﷺ، ودفع طعن الطاعنين عنه، وبالله التوفيق.

نعم كان رسول الله ﷺ يحب نساءه، وكان أحبهن إليه عائشة -رضى الله عنها-، ولم تكن تبلغ محبته لها ولا لأحد سوى ربه نهاية الحب، بل صح أنه قال : «لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا». وفى لفظ: «وإن صاحبكم خليل الرحمن».

الإخلاص سبب لدفع العشق

وعشق الصور إنما تُبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله تعالى، المعرضة عنه، المتعوضة بغيره عنه، فإذا امتلأ القلب من محبة الله والشوق إلى لقائه، دفع ذلك عنه مرض عشق الصور،

ولهذا قال تعالى فى حق يوسف :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾ [يوسف]

فدل على أن الإخلاص سبب لدفع العشق وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التى هى ثمرته ونتيجته، فصرف المسبب صرف لسببه، ولهذا قال بعض السلف : العشق حركة قلب فاغرغ، يعنى فارغا مما سوى معشوقه.

قال تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) ﴾ [القصص]

أى : فارغا من كل شىء إلا من موسى لفرط محبتها له، وتعلق قلبها به.

والعشق مركب من أمرين : استحسان للمعشوق، وطمع فى الوصول إليه، فمتى انتفى أحدهما انتفى العشق، وقد أعيت علة العشق على كثير من العقلاء، وتكلم فيها بعضهم بكلام يرغب عن ذكره إلى الصواب.

فنقول : قد استقرت حكمة الله -عز وجل- فى خلقه وأمره على وقوع التناسب والتآلف بين الأشباه، وانجذاب الشىء إلى موافقه ومجانسه بالطبع، وهروبه من مخالفه، ونفرته عنه بالطبع، فسر التمازج والاتصال فى العالم العلوى والسفلى، إنما هو التناسب والتشاكل، والتوافق، وسر التباين والانفصال، إنما هو بعدم التشاكل والتناسب، وعلى ذلك قام الخلق والأمر، فالمثل إلى مثله مائل، وإليه صائر، والضد عن ضده هارب وعنه نافر، وقد قال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) ﴾ [الأعراف]

فجعل سبحانه علة سكون الرجل إلى امرأته كونها من جنسه وجوهره، فعلة السكون المذكور -وهو الحب- كونها منه، فدل على أن العلة ليست بحسن الصورة، ولا الموافقة فى القصد والإرادة، ولا فى الخلق والهدى، وإن كانت هذه أيضا من أسباب السكون والمحبة.

وقد ثبت فى «الصحيح» عن النبى ﷺ أنه قال : «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». وفى «مسند الإمام أحمد» وغيره فى سبب هذا الحديث : أن امرأة بمكة كانت تضحك الناس، فجاءت إلى المدينة، فنزلت على امرأة تضحك الناس، فقال النبى ﷺ : «الأرواح جنود مجندة» الحديث.

وقد استقرت شريعته سبحانه أن حكم الشىء حكم مثله، فلا تفرق شريعته بين متماثلين أبداً، ولا تجمع بين متضادين، ومن ظن خلاف ذلك، فإما لقلة علمه بالشريعة، وإما لتقصيره فى معرفة التماثل والاختلاف، وإما لنسبته إلى شريعته ما لم ينزل به سلطاناً، بل يكون من آراء الرجال، فبحكمته وعدله ظهر خلقه وشرعه، وبالعدل والميزان قام الخلق والشرع، وهو التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين.

وهذا كما أنه ثابت فى الدنيا، فهو كذلك يوم القيامة.

قال تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) ﴾ [الصافات]

قال عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- وبعده الإمام أحمد رحمه الله : أزواجهم أشباههم ونظراؤهم.

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) ﴾ [التكوير]

أى : قرن كل صاحب عمل بشكله ونظيره، فقرن بين المتحابين فى الله فى الجنة، وقرن بين المتحابين فى طاعة الشيطان فى الجحيم، فالمرء مع من أحب شاء أو أبى، وفى «مستدرك الحاكم» وغيره عن النبى ﷺ «لا يحب المرء قوما إلا حشر معهم».

والمحبة أنواع متعددة : فأفضلها وأجلها: المحبة فى الله ولله، وهى تستلزم محبة ما أحب الله، وتستلزم محبة الله ورسوله.

ومنها محبة الاتفاق فى طريقه، أو دين، أو مذهب، أو نحلة أو قرابة، أو صناعة، أو مراد ما .

ومنها : محبة لنيل غرض من المحبوب، إما من جاهه أو من ماله أو من تعليمه وإرشاده، أو قضاء وطر منه، وهذه هى المحبة العرضية التى تزول بزوال موجبها، فإن من ودك لأمر، ولى عنك عند انقضائه.

وأما محبة المشاكلة والمناسبة التى بين المحب والمحبوب، فمحبة لازمة لا تزول إلا لعارض يزيلها، ومحبة العشق من هذا النوع، فإنها استحسان روحانى، وامتزاج نفسانى، ولا يعرض فى شىء من أنواع المحبة من الوسواس والنحول، وشغل البال، والتلف ما يعرض من العشق.

فإن قيل : فإذا كان سبب العشق ما ذكرتم من الاتصال والتناسب الروحانى، فما باله لا يكون دائما من الطرفين، بل تجده كثيرا من طرف العاشق وحده، فلو كان سببه الاتصال النفسى والامتزاج الروحانى، لكانت المحبة مشتركا بينهما .

فالجواب : أن السبب قد يتخلف عنه مسببه لفوات شرط، أو لوجود مانع، وتخلف المحبة من الجانب الآخر لابد أن يكون لأحد ثلاثة أسباب :

الأول : علة فى المحبة، وأنها محبة عرضية لا ذاتية، ولا يجب الاشتراك فى المحبة العرضية، بل قد يلزمها نفرة من المحبوب.

الثانى : مانع يقوم بالمحب يمنع محبة محبوبه له، إما فى خلقه، أو فى خلقه أو هديه أو فعله، أو هيئته أو غير ذلك.

الثالث : مانع يقوم بالمحبوب يمنع مشاركته للمحب فى محبته.، ولولا ذلك المانع، لقام به من المحبة لمحبه مثل ما قام بالآخر، فإذا انتفت هذه الموانع، وكانت المحبة ذاتية، فلا يكون قط إلا من الجانبين، ولولا مانع الكبر والحسد، والرياسة والمعاداة فى الكفار، لكانت الرسل أحب إليهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم، ولما زال هذا المانع من قلوب أتباعهم، كانت محبتهم لهم فوق محبة الأنفس والأهل والمال.

علاج العشق

بالزواج بالمعشوق

والمقصود : أن العشق لما كان مرضا من الأمراض، كان قابلا للعلاج، وله أنواع من العلاج، فإن كان مما للعاشق سبيل إلى وصل محبوبه شرعاً وقدراً، فهو علاجه، كما ثبت فى «الصحيحين». من حديث ابن مسعود -رضى الله عنه-، قال : قال رسول الله ﷺ «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء». فدل المحب على علاجين: أصلى، وبدلى، وأمره بالأصلى، وهو العلاج الذى وضع لهذا الداء، فلا ينبغى العدول عنه إلى غيره ما وجد إليه سبيلاً.

وروى ابن ماجه فى «سننه» عن ابن عباس -رضى الله عنهما-، عن النبى

ﷺ أنه قال : «لم نر للمتحابين مثل النكاح». وهذا هو المعنى الذى أشار إليه سبحانه عقيب إحلال النساء حرائرهن وإمائهن عند الحاجة بقوله :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء]

فذكر تخفيفه فى هذا الموضع، وإخباره عن ضعف الإنسان يدل على ضعفه عن احتمال هذه الشهوة، وأنه -سبحانه- خفف عنه أمرها بما أباحه له من أطايب النساء مثنى وثلاث ورباع، وأباح له ما شاء مما ملكت يمينه، ثم أباح له أن يتزوج بالإماء إن احتاج إلى ذلك علاجا لهذه الشهوة، وتخفيفا عن هذا الخلق الضعيف، ورحمة به.

وإن كان لا سبيل للعاشق إلى وصال معشوقه قدراً أو شرعاً، أو هو ممتنع عليه من الجهتين، وهو الداء العضال، فمن علاجه إشعار نفسه اليأس منه، فإن النفس متى يئست من الشىء، استراحت منه، ولم تلتفت إليه، فإن لم يزل مرض العشق مع اليأس، فقد انحرف الطبع انحرافا شديداً، فينتقل إلى علاج آخر، وهو علاج عقله بأن يعلم بأن تعلق القلب بما لا مطمع فى حصوله نوع من الجنون، وصاحبه بمنزلة من يعشق الشمس، وروحه متعلقة بالصعود إليها والدوران معها فى فلكها، وهذا معدود عند جميع العقلاء فى زمرة المجانين.

وإن كان الوصال متعذرا شرعاً لا قدراً، فعلاجه بأن ينزله منزلة المتعذر قدراً، إذ ما لم يأذن فيه الله، فعلاج العبد ونجاته موقوف على اجتنابه، فليشعر نفسه أنه معدوم ممتنع لا سبيل له إليه، وأنه بمنزلة سائر المحالات، فإن لم تجبه النفس الأمارة، فليتركه لأحد أمرين : إما خشية، وإما فوات محبوب هو أحب إليه، وأنفع له، وخير له منه، وأدوم لذة وسروراً، فإن العاقل متى وازن بين نيل محبوب سريع الزوال بفوات محبوب أعظم منه، وأدوم، وأنفع، وألذ أو بالعكس،

ظهر له التفاوت، فلا تبع لذة الأبد التى لا خطر لها بلذة ساعة تنقلب آلاماً، وحقيقتها أنها أحلام نائم، أو خيال لا ثبات له، فتذهب اللذة، وتبقي التبعة، وتزول الشهوة، وتبقى الشقوة.

الثاني : حصول مكروه أشق عليه من فوات هذا المحبوب، بل يجتمع له الأمران، أعني : فوات ما هو أحب إليه من هذا المحبوب، وحصول ما هو أكره إليه من فوات هذا المحبوب، فإذا تيقن أن فى إعطاء النفس حظها من هذا المحبوب هذين الأمرين، هان عليه تركه، ورأى أن صبره على فوته أسهل من صبره عليهما بكثير، فعقله ودينه، ومروته وإنسانيته، تأمره باحتمال الضرر.

وفى «المسند» عنه : «أحلت لنا ميتتان ودمان : الحوت والجراد، والكبد والطحال» ، يروى مرفوعا وموقوفا على ابن عمر رضى الله عنه.

وهو حار يابس، قليل الغذاء، وإدامة أكله تورث الهزال، وإذا تبخر به نفع من تقطير البول وعسره، وخصوصا للنساء، ويتبخر به للبواسير، وسمانه يشوى ويؤكل للسع العقرب، وهو ضار لأصحاب الصرع، ردىء الخلط، وفى إباحة ميتته بلا سبب قولان، فالجمهور على حله، وحرمه مالك، ولا خلاف فى إباحة ميتته إذا مات بسبب، كالكبس والتحريق ونحوه.

قيس ذلك المجنون(١)

ليلى، عزة، بثنية، عفراء، مى .. وأسماء أخرى عديدة خلدها شعراؤنا العرب فى قصائد حب رائعة، ولكن .. هناك ظاهرة تجمع أغلب قصص الحب العربية، فسواء كانت هذه القصص واقعية، أو كانت من نسج خيال الشعراء فهى تتفق جميعاً فى ظاهرة واحدة، الموقف السلبى للمرأة ! فالمرأة فى أغلب القصص مخلوقة تُحب وتتبع أو تطارد، ويهيم بها الشاعر، وتلهمه بالقصيدة، وقد يحدث خلاف أو صراع بين الحبيب الشاعر وبين أهل محبوبته، وقد يقتلون، إلا أننا لا نعثر على موقف لتلك المحبوبة كأنها متفرج يجلس بعيداً عن مسرح الأحداث. والمتفرج قد يصفق تأييداً أو يهلل احتجاجاً، بل وقد يشارك الممثل فى حوار ممتد أو قصير.. أما المحبوبة فهى تكتفى بالفرجة !

والحب فى كل العصور هو هو .. رجفة تصيب القلب، ونداء يلح علي الجسد، ونار تتأجج فى الوجدان كلما شوهد المحبوب أو جاءت سيرته، ولابد أن بطلات قصص الحب العربية قد شعرن بهذه الأعراض، ولابد أن إحداهن اعترفت بذلك صراحة لصديقة لها، أو ألمحت به للمحب الولهان فى أبيات من الشعر لانعرف إن كانت قد أبدعتها فعلا أم ألفت نيابة عنها ..

أما الخطوة التالية .. التحرك نحو الفعل .. اتخاذ الموقف .. فهذه ليست من اختصاص المحبوبة .. دائما يقوم بها الرجل !

وإذا كان شوقى يقول إن الحب نظرة فابتسامة فسلام فكلام، فموعد، فلقاء .. ففراق يكون فيه دواء أو .. الخ، فإن كل هذه الأفعال لايقوم بها إلا الرجل .. يبدأ هو .. فتتبعه.

أغلب قصص الحب المشهورة حدثت فى صدر الإسلام وأشهرها على

(١) الحب فى صدر الإسلام - إقبال بركة - م. الأسرة .

الاطلاق حكاية ليلى والمجنون .. والمجنون هو قيس بن الملوح ابن عم ليلى، يلعبان فى الصبا، ويرعيان الغنم معا فى البادية العربية، كان ذلك فى القرن الأول الهجرى، فى وقت كانت البادية العربية تعيش فى عزلة نسبية.

لقد انتشر الإسلام، وأثر فى نفوس البدو، وغير من مفاهيمهم الاجتماعية، وبدأت العلاقة بين الرجل والمرأة تتخذ شكلا جديدا، الحياة كلها اختلفت صورتها عن أيام العهد الجاهلى القريب. لقد جاء الإسلام فرفع من منزلة المرأة العربية. لم تعد واحدة من أساليب اللهو التى اعتاد عليها البدوى ليحقق وجوده الضائع فى الصحراء المترامية الأطراف إلى جانب الخمر والميسر.

إن الدين الجديد يحرم عليه الخمر ويحرم عليه الميسر، ويفرض عليه قيودا دينية واجتماعية وخلقية . ولكن الفراغ قاتل .. والشباب مارد فى الجسد يود أن ينطلق، ونافذته القلب .. وكل شىء من حول الشباب يدعو للحب ويطالب به، فينظر حوله، ولا يرى إلا بنات أعمامه، أنهن رفيقات اللعب فى الصبا، وأول من يتعرف اليهن من نوع الأنثى.. ويختار الشاب إحداهن .. تسحره نظرة منها أو التفاتة أو كلمة عابرة ..

ويميل القلب نحوها ولكن فجأة تختفى بنت العم تماما .. لقد حجبتها التقاليد داخل خيمتها، لاتخرج منها إلا بصحبة حارسة، وإلا للضرورة القصوى، إنها الآن تعد لدخول الحياة الزوجية لا لعب برئ ولا ضحكات طفولية ولا دعابات متبادلة بل صمت .. وإحساس مرير بالوحدة .

هذه الظروف ما هى إلا تربة خصبة لنمو العاطفة واشتعالها.. فيستبد الوجد والشوق إلى المحبوبة ويزداد التعلق بها، وتسيطر صورتها علي خيال الحبيب ولا يفكر إلا فيها .. إن حياته كلها أحلامه وأشواقه تتفطر وتتركز فى نقطة واحدة : أن يراها.

ويتحول الشاب الذى كان يزهو بفتوته بين أقرانه، إلى شبح هزيل يجوب الصحراء، تتقاذفه العلل والأوهام، يردد أبيات شعر رائعة عن حبه وعن ذكريات طفولته ويذكر فيها ليلى بنت عمه كثيراً.

أخيراً يتقدم قيس إلى عمه طالباً الزواج من ابنته ليلى .. وبدلا من أن يفرح العم ويرحب، إذا به يرفض، ويصر على الرفض .. لماذا ؟ لأن التقاليد تمنع العرب من الموافقة على زواج ابنته من رجل تشبب بها أى تغزل فيها فى شعره!!

ولا أحد يعرف ما هى هذه التقاليد. هل هى وحش كاسر يمسك بخناق الناس فى ظلام الليل ويحول بينهم وبين السعادة لأسباب فى نفسه ..!! المهم أنهم دائما يخضعون ودائما ما تكون الضحية هى الشباب . ويصبح من المعقول والمقبول أن تتزوج ليلى من فتى من قبيلة ثقيف، لا تعرف عنه شيئا ولم تره من قبل فى حياتها، ولا يزيد عن قيس ابن عمها فى شىء. ولا نعرف هل بكت ليلى ؟. هل قاومت ؟. هل أضربت عن الطعام ؟! لكننا نعرف أنها تزوجت من ذلك الفتى، وأنه صحبها معه إلى الطائف، ولعل ذلك الحل كان بوحى من أبيها الذى شاء أن يبعدها عن مسرح الأحداث.

ويترك قيس وحيدا، فيصاب بالجنون. ولا شك أن عقله عجز تماما عن فهم أو تقبل ذلك المنطق المخبول الذى خضع له عمه، وكل القبيلة .. التى لم يحاول أحد فيها أن يلين من صلابة رأس ذلك الرجل، أو يوفق بين الرأسين فى الحلال.

ولا شك أن ذلك العم كانت لديه أسباب عديدة .. لكن أحدا لا يخبرنا عنها. أننا نعرف فقط أن التقاليد العربية فى ذلك الوقت هى التى أملت عليه كلمة لا، وأن هذه الكلمة تعلقت بلسانه، وسدت أذنيه وأغمضت عينيه فلم ير ابن أخيه يهيم فى الصحراء، ولم يرق قلبه وهو يستمع لأرقى الشعر يردده كل الناس بعد

قيس، يصور فيه لوعته ويذيب شبابه الغض قطرة قطرة على رمال الصحراء التى لا ترتوى. ثم يلقى حتفه فى واد مهجور، بعيداً عن أهله الذين قدموه قربانا لصنم وهمى، وليلى التى عذبته بحبها.

إننى أخرج من هذه القصة بواحد من تفسيرين :

إما أن ذلك العم لا يعرف الحب أبداً، فلم تتسارع دقات قلبه ولم يجف حلقه ولم يهرب الكلام من عقله عند مرأى حبيبة وإما أنه مولع بالشعر إلي درجة الهوس فهو اكتشف أن البعد والصد والهجر والحرمان وكل ما يصيب قلب العاشق باللوعة يلهمه بأروع الشعر.

والعتب هنا على الشعراء الذين أفاضوا -ومازالوا يفيضون- بوصف مشاعرهم بعد الفراق، والصلح بعد الخصام .. الخ، فيقول قيس فى إحدى قصائده:

فوالله ثم الله إنى لدائب
أفكر ما ذنبى إليك وأعجب

ووالله ما أدرى علام قتلتنى
وأى أمور فيك ياليل أركب

أأقطع حبل الوصل فالموت دونه
أم أشرب رنقا منكم ليس يشرب

أم أهرب حتى لا أرى لى مجاورا
أم أصنع ماذا أم أبوح فأغلب

فأيهما ياليل ما ترتضين
فإنى لمظلوم وإنى لمتعب

مسكين قيس، لم يسرق ولم يزن ولم يقتل أحداً ومع ذلك حكمت عليه قبيلته بالموت.. لأنه .. أحب .. ولأنه ذاب فى العشق، ولأنه كان واضحا صريحا، فلم يخف مشاعر، ولا لجأ إلى الحيلة والخديعة. ولاشك أنه كان شخصية فريدة من نوعها .. أو لعلها المبالغات التى يولع بها الناس فيزينون بها قصص الحب تعبيراً عما تختزنه قلوبهم من كبت وحرمانٍ يقولون : إن قيساً كان يغمى عليه كلما ذكر اسم ليلى، وسواء كان الحديث عنها بمكروه أو بخير فهو يغشي عليه بمجرد سماعه اسمها!

ويقولون إنه وقف ذات يوم يتحدث إلى ليلى وفى يده جمرة من نار فأخذت النار تحرق رداءه حتى أتت عليه ووصلت إلى جسمه وقيس لا يشعر! وفى أواخر أيامه حكى عن قيس أنه عاش مع الوحش فأنس إليه وفضله على بنى الإنسان، وأن الوحوش أيضا صارت تأنس إليه ! أى أن قلوبهم رقت لحاله، بينما ظلت قلوب أهله كالحجر الذى لم يتفتت ولم يذب لسماع أشعار قيس الرائعة، وهى أشعار لا تعبر إلا عن غزل عفيف يعكس طموح البدوى إلى المثل الأعلى فى الحب. إن أشعار قيس تعطينا صورة صادقة عن حياة البادية فى أوائل تعرفها بالإسلام وفى مرحلة تخلصها من العادات الجاهلية الموروثة .

إن البدوى مازال يميل إلى الزهد عن متع الحياة وشهواتها وأطماعها المادية والسياسية .. ومع ذلك فهو لا يستغنى عن الحب، بل إنه يزداد احتياجا له بعد أن رقق الإسلام مشاعره، وأبعده عن مادية العصر الجاهلى ووحشيته.

ويبقى سؤال . هل قصة ليلى والمجنون واقعية أم أنها نسج من الخيال ؟.. ان الدكتور طه حسين[١] يشك فى هذه القصة، ويعتبرها من أشد القصص

---

(١) طه حسين يعمل بطريقة خالف تعرف فالقصة متواترة لا سبيل إلى انكارها ، وطه حسين له شطحات وطامات كبرى. مثل : انكاره لقصة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - فى كتابه فى الشعر الجاهلى رغم أنها وردت فى القرآن ، عامله الله تعالى بما يستحق .

سخفا وأكثرها غلوا وأخلاها من المغزى النافع أو المعنى المفيد. وهناك من يصر على أن حكاية ليلى وقيس حدثت بالفعل، وأن الأشعار الجميلة التى ظل العرب يرددونها أجيالا طويلة وينسبونها إلى قيس بن الملوح هى من إبداعه فعلا، وليست من التراث الشعبى مجهول المؤلف.

على أية حال لقد أثرت هذه القصة أو الحكاية فى التراث الأدبى العربى، وامتد تأثيرها إلى العصر الحديث حيث تتكرر قصة العاشق المغلوب على أمره، والحبيبة السلبية الضعيفة والأهل القساة، ليس فقط في قصصنا بل وفى أفلامنا السينمائية ... ولكن أغلبها لحسن الحظ تنتهى نهاية سعيدة، حيث ينهزم العوازل (الأهل فى معظم الأفلام) وتنهار الحواجز وتزف العروس إلى عريسها.

ولكن يظل هناك تساؤلاً :

هل يمكن قمع الحب ؟

– هل سيأتى يوم يتوقف فيه الرجل عن الحنين إلى المرأة، والمرأة عن الولع بالرجل؟!

مستحيل فهذه سنة الحياة، ومن أجل هذا خلق الله آدم وحواء، ولو شاء لكان خلق الإنسان من نوع واحد يتوالد من نفسه كما يحدث لبعض الديدان، وبعض الأسماك وبعض الحشرات لكنه يقول فى كتابه الكريم :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم]

ويقول جل شأنه أيضاً:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ [الحجرات]

التعارف إذن أحد أسباب خلق الخالق للرجل والمرأة، من أجل الوصول إلى أقصى درجة فى التآلف : المودة والرحمة. فكيف إذن يتم ذلك وكل من المرأة والرجل يزداد اغترابا عن الآخر، ويعيش خلف حجب كثيفة، يجتر الشوق المريض، وتتوالد فى خياله الأوهام وتترعرع الأكاذيب، وتنمو بطبيعة الحال كل أنواع الأمراض النفسية !

لقد أثبتت الأيام أنه كلما تم الفصل بين الجنسين وحجبهما عن بعضهما البعض، كلما تأجج فى القلوب الشوق إلى التلاقى، وابتدعت العقول من أساليب الوصال مالا يخطر على البال. ولنتأمل معا قصص الحب الشهيرة التى حدثت فى صدر الإسلام، وتناقلتها الأجيال، وحفظ الناس أشعارها عن ظهر قلب.

من هذه القصص الشهيرة حكاية قيس آخر، هو قيس بن ذريح الذى عشق لبنى فى زمن معاوية.

كان قيس ابن أحد أثرياء البادية، وكان أخا من الرضاعة للحسين بن على، وذات يوم حار كان يسير فى الصحراء فشعر بالعطش الشديد، واقترب من إحدى الخيام طالبا ماء للشرب .. فخرجت له فتاة طويلة القامة رائعة الجمال ذات حديث حلو هى لبنى بنت الحباب. أسقته لبنى، فلما استدار ليمضى إلى حال سبيله دعته لأن يرتاح فى خيمتهم قليلاً ويستبرد. فقبل دعوتها وهو يتأملها باعجاب شديد.

وتقول الحكاية أن أباها الحباب جاء فوجد قيسا يستريح عندهم فرحب به وأمر بنحر الذبائح من أجله واستبقاه يوما كاملاً، وعندما عاد قيس إلى أبيه حدثه فى أمر زواجه من لبنى ، لكن الأب ذا الثراء العريض كان يريد أن يزوجه واحدة من بنات أعمامه ليحفظ ثروة العائلة.

لم يجد قيس بن ذريح أذنا صاغية لدى والده، فلم ييأس وذهب إلى

الحسن بن على، أخيه من الرضاعة، وشكا له حاله، فتدخل الحسين لدى العائلتين وتمت النهاية السعيدة : تزوج قيس من لبناه، لكن القدر لم يشأ للعاشقين أن يتحولا إلى زوجين عاديين ممن يقتلهما السأم، ولعل حكمته فى ذلك أن يستمر الشاعر قيس بن ذريح فى نظم أشعاره الجميلة. ظل الزوجان معا، لعدة سنوات دون أن ينجبا، ودون تردد أشاعت الأسرة أن لبنى عاقر.

ولما كان أبو قيس تواقا لذرية تتوارث ثروته الطائلة، فقد ألح على ابنه أن يتزوج من أخرى لتنجب له البنين والبنات.

لكن قيسا أبى .. لقد أشفق على حبه القديم لبنى من ضرة تشقيها وتعذبها . وظل الأب يلح ويسوق عليه كبار القوم، دون جدوى وامعانا فى الضغط عليه اقسم الأب ألا يظله سقف بيت طالما ظل ابنه مبقيا على زواجه من لبنى.

كان قيس شديد البر بوالده فلم يشأ أن يتركه يتعذب فى الهجير، واضطر اضطراراً لأن يطلق لبنى.

إلا أنه ظل العمر كله نادما على فعلته مشتاقا للقائها يردد فى أسى :

يقـولـون لبنـى فتنـة كنـت قلبهـا

بخـير فـلا تنـدم عليهـا وطلـق

فطاوعت أعدائى وعصـيت ناصحى

واقررت عـين الشامـت المتملـق

وددت وبيـت اللـه أنـى عصيتـه

وحملـت فى رضـوانـها كل موثـق

وكلفت خوض البحر والبحر الزاخر

أبيـت على إثبـاج مـوج مفــرق

كأنى أرى الناس المحبين بعدها

عصارة ماء الحنظل المتفلق

فتنكر عينى بعدها كل منظر

ويكره سمعى بعدها كل منطق

ولم يتوقف قيس عن ملاحقة لبنى بعد الطلاق. فاضطر أبوها إلى أن يشكوه إلى معاوية، فكتب معاوية إلى مروان بن الحكم يهدر دم قيس إن هو تعرض للبنى.

سمعت لبنى بذلك فقبلت الزواج من رجل آخر يدعى خالد بن حلزة، لكى تجبر قيسا على الابتعاد عنها وتحميه من القتل. فعلت لبنى ذلك وهى ما تزال تكن كل الحب لزوجها السابق قيس.

كان قيس يعرف ذلك ويعرف أنها تحبه بمقدار ما أحبها، فركب راحلته وذهب إلى خيام أهلها وهناك راح ينشد الشعر وهو ينشج :

إن تك لبنى قد أتى دون قربها   حجاب منيع ما إليه سبيل

فإن نسيم الجو يجمع بيننا   ونبصر قرن الشمس حين تزول

وأرواحنا بالليل فى الحى تلتقى   ونعلم أيا بالنهار نقيل

وتجمعنا الأرض القرار وتوقنا   سماء نرى فيها النجوم تجول

وقد روى الأصفهانى فى كتابه "الأغانى" أن أشعار قيس لحنها الملحنون وغناها المطربون فاشتهرت وذاع صيتها وسمع بها زوج لبنى فثار عليها، لكنها لم تعبأ بثورته وطالبته أن يطلقها إن شاء. وأدرك الزوج ألا خطأ لها ولا ذنب، فهدأت ثائرته، ويقال أنه أراد أن يصلحها فأحضر الجوارى من المدينة ليغنين لها أشعار قيس !

حكاية لبنى تختلف كثيراً عن صاحبتيها ليلى وبثينة، فالقدر هو الذى فرق بينها وبين قيس بن ذريح، ولم يكن بوسعها أن تفعل شيئا وليومنا هذا مازال الاتهام يحاصر الزوجة أولا إذا لم تنجب، فإذا ثبت أن الزوج هو السبب نصحت بأن تضحى من أجله وتبقي معه، أما إذا ثبت أن الزوجة هى العاقر فلا أحد يطالب الزوج بأى تضحية، ويصبح من حقه أن يتزوج عليها أو أن يطلقها. وحكاية الأصفهانى تدلل على أن لبنى لم تسلم قلبها للزوج الثانى الذى فرض عليها فرضاً، وظلت حزينة مجروحة الفؤاد تبكى بحرقة كلما تذكرت قيسا، أو كلما سمعت أشعاره الحزينة ترددها الجوارى فى مجالس الغناء. ظلت لبنى على هذا الحال حتى ماتت. فبكاها قيس وأنشد على قبرها :

ماتــت لبيــنى فموتهــا موتـى

هل تنفعن حسرتى على الفوت

وســوف أبكـى بكــاء مكتئـب

قضى حيــاة وجدا على مــوت

ويقال أنه فقد عقله، وظل طريح الفراش حتى لحق بها، فدفن إلى جوارها.

وهكذا لم يستطع تحكم الأهل ولا سيطرة العرف والتقاليد، ولا احتجاب لبنى عن حبيبها، أو ابتعادها أو زواجها من رجل آخر أن يحملوا قيسا على نسيانها. بل لعل هذه الأمور مجتمعة كانت وقودا أشعل نار الحب فى قلب شاعرنا وجعلها تزداد اضطراما مع الأيام، كما كانت جذوة الهبت موهبته فانطلق يقول أعذب الشعر.

ويبقى سؤال هل كان قيس من ذريح سيقول كل ذلك الشعر الجميل لو لم يلتق بلبنى ولم يحبها ولم يجبر على فراقها ؟!

يقولون أن أعذب الشعر أكذبه، وهم يعنون أن أروع الشعر ما يلجأ إلي الخيال ولا يرتكن إلى الحقيقة، ولكن حكايات العشاق تجعلنا نصدق أن عاطفة ما، كانت وراء تلك الابداعات وأن ظروفا معينة لابد أن تحدث للشاعر كي تتولد طاقعته على الابداع فما هي هذه الظروف ...؟!

عروة وعفراء

أغلب حكايات الحب العفيف، الحب العذرى حدثت فى القرن الأول من الإسلام وفى البادية هناك حيث يمتد البصر إلى مالا نهاية وتتواصل السماء مع الأرض فى تزاوج أبدى تصفو الروح وتستبين الرؤية، ويتوق الإنسان لرفيق يؤنس وحدته ويزيل الوحشة والكآبة من قلبه.

فى البادية التقى قيس بن الملوح بابنة عمه ليلى، ورأى قيس بن ذريح لبنى، وتعلق جميل ببثينة وأيضاً التقى عروة بن حزام بابنة عمه عفراء.

لقد تربى عروة فى بيت عمه، والد عفراء. لكنه كان فقيرا. ومنذ الطفولة المبكرة ربط الحب بين قلبى الصبيين، فلما شب عروة عن الطوق أراد أن يتزوج حبيبته، وصارح عمه برغبته. طلب الأب مهراً غالياً. ثم شجع ابن أخيه على الارتحال للبحث عن رزقه عسى أن يعود بمال وفير، ولم يكذب عروة خبرا، فذهب ثم عاد وجيبه عامر بالمهر وما يزيد، إلا أنه وجد حبيبته ورفيقة صباه قد زفت إلي رجل آخر، وتركت البادية إلى الشام حيث يعيش زوجها ...!

وكما يحدث دائماً للعشاق، فلا المسافات ولا الأزمنة يمكن أن تحول بينهم وبين من سكنت الفؤاد وهامت بها الروح - يشد عروة رحاله إلى الشام وينزل ضيفا علي عفراء، بنت عمه. لكنه لا يلتقى بها بل بزوجها الذى يماطل فى أخبار زوجته بنبأ وصول ابن عمها.

ويفكر عروة فى حيلة عجيبة، يلقي بخاتمه فى إناء اللبن ويبعث بالإناء إلى عفراء مع إحدى الجوارى، وتدرك عفراء على الفور أن حبيبها قد عاد فتلتقى به.

وهكذا.. دائما يجد العشاق وسيلة للتواصل، على الرغم من الحريم والحجاب المنيع والحراس المدججين وحيل العزال. إن هذه الأمور جميعا تتحول إلى رمـال هشـة وتماثيل من القش تطير مع أول تنهيدة ساخنة من قلب العاشق الولهان.

لكن اللقاء لا يطفىء لهيب الحب فى قلب عروة، فيعود إلى البادية عليلاً هزيلاً لا ينفع فى علاجه أى طب. ويظل يهذى باسم عفراء ويحادث طيفها حتى توافيه المنية ! ويصل خبره إلى عفراء فى الشام فتجزع عليه أشد الجزع وتبكيه بحرقة، وتمتنع عن الطعام والشراب حتى تلحق به بعد فترة وجيزة وتدفن فى قبر بجواره. ومن القبر تنبت شجرتان غريبتان لم ير الناس مثلهما من قبل، هكذا تروي الحكاية، وتظل الشجرتان تنموان حتى تلتف إحداهما على الأخرى، تحقيقاً لأمل قديم ظل يطارد قلبين شقيا بالحب حتى ماتا.

جميل والحب العذرى

هل تحب المرأة من أجل الحب أى من أجل الاستمتاع برجفة القلب عند اللقاء، وحرارة التلاقى ومتعة الشوق ! أم أنها تشجع المحبوب على الوقوع فى حبها لتنعم بأبيات شعره فيها، ويخلد اسمها فى التاريخ ..

هل تشجع المرأة الرجل على الوقوع فى حبها لمجرد التباهى والتفاخر بين صديقاتها والناس !

هذه بعض الشكوك التى تتعثر فيها المرأة اليوم، بعد أن خرجت إلى العمل وأصبحت تستمتع باستقلالها الاقتصادى وقدر لابأس به من الحرية الاجتماعية.

ولكننا إذا عدنا إلى قصص الحب القديمة، وتأملنا بعضها ستصيبنا الدهشة مرة أخرى من مواقف المحبوبات، أو أولئك النساء المحظوظات اللاتى تغنى بهن الشعراء فى صدر الإسلام، وأصبحت أسماؤهن أعلاما على قصص الغرام، يتداولها الناس من جيل إلى جيل، ولا يمل المحبون من ترديدها.

فى العصر الأموى وفى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان أو الخليفة الوليد بن عبد الملك حدثت قصة جميل وبثينة.

كانت بثينة فتاة حلوة من بنى الأحب، وهم من رهط بنى عذرة، وكذلك جميل، كان من رهط آخر من بنى عذرة هم رهط عامر، وبنى عذرة كانت تنزل في البادية العربية شمال الحجاز، فى وادى القرى الذى يقع على مقربة من الطريق التجارى بين مكة والشام. وهو واد خصب، استقرت به تلك القبيلة، وكانت مشهورة منذ العصر الجاهلى بالقوة والمنعة والشرف. وقد دخلت بنو عذرة الإسلام فى السنة السابقة للهجرة، وشارك أبناؤها فى غزوات الرسول وفى الفتوحات الإسلامية.

وإلى بنى عذرة ينسب الحب العذرى، وهو نوع من الوجد يستبد بالعاشق فيسيطر عليه خيال محبوبته، ويظل يفكر فيها ليلا ونهارا، ممتنعا عن العمل والطعام حتى يصل إلى درجة من الهزال قد تفضى به إلى الموت!.

حدث هذا لشاعرنا جميل عندما رأى بثينة وهو يرعى إبل أهله. جاءت بثينة بإبل لها لترد بها الماء، فنفرت إبل جميل، فسبها، ولم تسكت بثينة وإنما ردت عليه، أى سبته هى أيضا! وبدلا من أن يغضب أعجب بها، وتطور الإعجاب إلى حب، ووجد ذلك صدى لديها، فأحبته هى أيضاً، وراحا يتواعدان سرا. وكلما التقيا زادت أشواقهما. فيكرران اللقاء حتى وصل الخبر إلى أهل بثينة. وبدلاً من أن يقبلوا يد جميل التى امتدت تطلب القرب منهم فى ابنتهم

رفضوها. وتوعدوه بالانتقام، ولكى يزيدوا النار اشتعالاً سارعوا بتزويج ابنتهم من فتى منهم. وتقول الحكايات أن جميلا لم يستسلم، بل راح يتحدى أهل بثينة، ويهزأ بهم، ويهددهم منشدا :

ولو أن ألفـــا دون بثينـة كلهـــم

غيارى، وكل حارب مزمـع قتـلى

لحاولتـها إما نهـارا مجاهـــرا

وإما سرى ليل ولو قطعت رجلى

كان جميل فارسا شجاعا يعتز بسيفه وسهامه، فلم يتأثر حبه لبثينة بزواجها، ووجد السبل إلى لقائها سراً فى غفلة من الزوج. ويعلم الزوج باستمرار علاقة بثينة بجميل ولقاءاتهما السرية، فيلجأ إلى أهلها ويشكوها لهم، لكى تتوقف اللقاءات فترة، ثم تعود أقوى وأشد مما كانت ..!

معنى ذلك أن بثينة لم تكن تعبأ بما قد يفعله زوجها أو أهلها لقد أرغموها على الزواج بمن لا ترغب، وعليهم أن يتحملوا وزر فعلتهم.

ولكن ما نوع تلك اللقاءات المتكررة بين جميل وبثينة؟ هل كانت لقاءات بريئة كما يؤكد بعض الرواة ؟! ولكن كيف نصدق تلك الروايات وجميل نفسه يؤكد لنا فى أشعاره أنه كان يقضى الليل كله بصحبة بثينة. مضطجعا بجوارها، أحيانا لعدة ثلاث ليال !! فإذا ما أسفر الصبح أو كاد تشفق بثينة عليه، وتلح عليه أن ينصرف فيأبى معتزاً بسيفه وسهامه ولكنها تلح حتى ينصرف ..!

ونتابع أخبارهما ..!

تقول لنا الروايات أنهما اضطجعا ذات مرة فأخذهما النوم، وفى الصباح

جاء غلام لزوجها يحمل إليها اللبن فرأى جميل بجوارها، فأصابه الفزع فجرى لينبىء سيده.، وفى طريقه التقى بواحدة من صاحبات بثينة عرفت منه الحكاية، فأسرعت تحذر صاحبتها، ودخلت على العاشقين فحذرتهما، واستطاعت وبثينة أن تقنعا جميلا فنام !! ووضعتا عليه من الوسائد والفرش ما أخفاه. واضطجعت صاحبة بثينة إلى جانبها وتظاهرت بالنوم ... فلما أقبل زوج بثينة وأبوها وأخوها لم يروا جميلا بل رأوا المرأتين فانصرفوا خجلين وقضى جميل يومه مع بثينة !!

وحكايات بثينة مع جميل كثيرة، وهى تجعلنا نتوقف لنتساءل أى نوع من النساء كانت ؟! هل كانت تحبه حقا، أم أنها كانت أكثر ولعا بأشعاره عنها التى ذاع صيتها حتى وصل إلى أولى الأمر من بنى أمية ؟!

ولنرى كيف يصفها والد جميل، وهو يحاول أن ينصحه بالابتعاد عنها:
"يابنى حتى متى أنت عمه في ضلالك لا تأنف من أن تتعلق بذات بعل يخلو بها وأنت عنها بمعزل. ثم تقوم إليك فتغرك بخداعها وتريك الصفاء والمودة وهى مضمرة لبعلها ما تضمره الحرة لمن ملكها، فيكون قولها لك تعليلاً وغروراً. فإذا انصرفت عنك عادت إلي بعلها على حالتها المبذولة".

بعض الروايات تؤكد أن جميلاً كان مستهتراً ماجنا، وبعضها الآخر يؤكد أنه كان عاشقا مدلها، نصحه أهله بالابتعاد عن امرأة متزوجة، وهددوه بأن يتبرأوا منه، ولكنه لم يستطع أن يبرأ من حبه لبثينة.

ويروى أن رجلا احتال على جميل لكى ينسيه حبه لبثينة فزين له سبع بنات، فكن يتصدين له متبرجات ويحاولن التقرب منه، ولكنه فطن للحيلة، وصد عنهن جميعاً.

وراح ينشد :

أيا ريح الشمـال أمـا تريـنى   أهيـم وأننى بادى النحـول

هبى لى نسمة من ريح بثـن ومنى بالهبـوب إلـى جميـل

وقولى يا بثينة حسـب نفس قليـلك أو أقـل مـن القليـل

وتروى الروايات أن أهل بثينة شكوا جميلا إلى الخليفة فأهدر دمه، واستدعى بثينة ليسألها فكان بينهما مزاح! ويسمع جميل بأمر إهدار دمه، فيفر إلى اليمن ويلبث بها فترة، ثم يعود ليجد أن أهل بثينة قد رحلوا إلى الشام. ولايثنيه ذلك عن عزيمته، فيرحل وراءهم وهناك يلتقى ببثينة عدة مرات، ثم يصيبه اليأس أخيراً فيشد رحاله إلى مصر، ويظل بها فترة يبكى حبه، وينشد الأشعار فى الحنين إلى أيامه مع بثنية وشوقه لها حتى يموت بمصر.

لقد شك الدكتور طه حسين فى قصة جميل وبثنية، ونعتها بأنها متكلفة منحولة، وأنها تخلو من النفع والفائدة وتناقض الحب العذرى.

أما سلامة موسى فقد كتب يقول : ان جميلا من الشعراء الذين يمتازون بصدق اللهجة والاحساس، وأن تشبيبه يعبر عن عاطفة صادقة لا رياء فيها...

كثير .. العاشق العربيد

حكاية أخرى حدثت فى القرن الهجرى الأول .. أى فى صدر الإسلام، تلك حكاية كثير وعزة. كان كثير شاعرا كبيرا يقارن بجرير والأخطل والفرزدق. ذات يوم كان يرعى بغنمه. فمر على مجموعة من النسوة، أرسلن إليه فتاة صغيرة لتطلب منه أن يبيعهن كبشا، ويأتمنهن على ثمنه حتى الغد. نظر كثير إلى الفتاة الصغيرة فسحرته عيناها، ومن أجل خاطرها قبل الصفقة. وأعطاها الكبش ثم مضى فى طريقه.

عند عودته التقى كثير بالنسوة، فأرسلن إليه ثمن الكبش مع إحداهن، فراح يسألها عن الصبية التى جاءته فى المرة السابقة وعرف اسمها، عزة. وصار يتغنى بها. وكما يحدث لكل العشاق، فكر كثير فى الاقتران بحبيبة القلب،

ولكن المحظور كان قد وقع.. لقد وصل أمر تشبيبه بها إلى أهلها، فرفضوا، على عادة العرب أن يزوجوها له. أما عزة فكان لها شأن آخر، لقد أحبت كثيراً، ورضيت أن تلتقى به سراً. وكان كثير يروى قصص لقاءاتهما فى أشعاره، وأكثر من ذلك حتى أن البعض تشكك فى صحتها، وتشكك آخرون فى إخلاصه لعزة. ومما رواه كثير، ويشبه الاعتراف، أنه سار ذات يوم خلف امرأة منقبة تميس فى مشيتها، وظل يطاردها ويطالبها أن تتوقف وتتحدث معه وتعرفه بنفسها. قالت المرأة المنقبة: ويحك ! هل تركت عزة فيك بقية لأحد ؟! أجاب كثير: بأبى أنت، والله لو إن عزة أمة لى لوهبتها لك.

عندئذ أسفرت المرأة عن وجهها، وكانت المفاجأة المذهلة : إنها هى عزة بدمها ولحمها!

ويقول كثيراً لخلانه إنه ندم

أشد الندم وراح ينشد :

ألا ليتنى قبل الذى قلت شيب لى عن السم خضخاض بماء الذراح

أقسمت ولم تعلم على خيانة وكم طالب للربح ليس برايح

ذو الرمة عاشق الصحراء

لا يمنع الحذر من قدر..

وقدر الرجل والمرأة أن يكون بينهما مودة ورحمة .. فكل منهما، عندما يبحث عن الآخر، ويشتاق إليه ويسعى بكل ما يملك من مقدرة إلى لقائه.. إنما يشتاق ويسعى ويبحث عن .. المودة والرحمة.

قدرهما إذن، أن يلتقيا، ولا يمكن أن تتحقق المودة إلا بالحب، ولا تكون الرحمة إلا مع التعارف والتآلف.

وقصص الحب فى صدر الإسلام، كما وصلت لنا، تؤكد تلك المعانى، وتضيف معلومة هامة، وهى أن الإسلام فى بداية عهده لم يكن حائلا بين الرجل والمرأة، ولم يصنع سدا منيعا ليفرقهما، ويحول بين تحقيق ما قدره الله لهما.. المودة والرحمة.

ودرجات المودة تتعدد.. حتى تصل إلى الحب أسمى عاطفة يتميز بها بنو آدم وحواء .. على سائر مخلوقات الكون.

ولاشك أن الحب هو الذى جعل الإنسان يتطور، فهو فى سعى دائم إلى الأفضل والأجمل .. أى إلى المثل الأعلى.

وكلما برح به الشوق، فاضت من عقله وقلبه الأفكار والخيالات، وأنجبت قريحته الفنون والآداب.

وهكذا فعل صاحبنا .. الشاعر الأموى الكبير ذو الرمة .. عاشق مى .. والصحراء.

فى طفولته كان ذو الرمة الذى ولد أثناء خلافة عبد الملك بن مروان (عام ٧٧ أو ٧٨هـ) طفلا مختلفا عن بقية أطفال القبيلة، احتارت فيه أمه فذهبت به إلى أحد مقرئى القرآن بالقبيلة كى يكتب له معاذة تعلقها فى عنقه لتحميه من الجن والوسوسة.

ولم يكن الصبى مجنونا ولا موسوسا.. وإنما كان مشروع شاعر عبقرى، سيملأ الدنيا فيما بعد أشعارا جميلة يعبر بها عن رؤاه وخيالاته. كان عاشقا للصحراء كلف بها وراح يتأملها ويصف كل شىء فيها.

وفى الصحراء تقرر مصيره..

وفى الصحراء كان لقاؤه القدرى مع الفتاة التى سيظل يحبها ويتشبب بها ويتطلع إلى لقائها العمر كله.

كان ذو الرمة بدويا.. وكانت مى، أو مية كما يناديها أحيانا، بدوية أيضا..

ولابد أن فى المرأة البدوية سحر خاص، يجذب الرجال إليها، ويظل ساكنا فى قلوبهم لا يبرحها، مهما بعدوا عنها.. هكذا كان حال قيس، وحال كثير وحال جميل.. وأيضا حال ذى الرمة بطل قصتنا هذه.

ثلاثة شبان، ذو الرمة وشقيق له وابن عمه، خرجوا يضربون فى الفلاة بحثا عن إبل ضلت من قبيلتهم، فتوغلوا فى المناطق الجنوبية من اليمامة، حتى وصلوا إلى الدهناء حيث كانت عشيرة منقر تنزل.

وهناك شعر الشبان الثلاثة بالعطش، فأرسلوا أصغرهم - ذا الرمة - إلى الخيام القريبة ليطلب السقيا.. اقترب ذو الرمة من الخيام، فرأى فتاة مليحة تنحنى فوق ثوب تنسجه، وسمعها تنشد أبياتا من الزجل :

يأمن يرى برقا يمر حينا

زمزم رعدا وانتحى يمينا

كان فى حافاته حنينا

أو صوت خيل ضمر يردينا

توقف البدوى الأسمر يتأمل البدوية الحسناء، ذاهلاً، لكنها أحست به، فرفعت إليه عينيها متسائلة.

وفى تلك اللحظة بالذات سطر القدر مصير شاعر أموى فذ. جاء ليروى ظمأه إلى الماء، فإذا بفتاة تصيب قلبه بظمأ إلى لقائها لا يرتوى.

من هى مى ...؟!

تلك هى مية، حفيدة الشاعر قيس بن عاصم الذى أطلق عليه الرسول ﷺ لقب سيد آل الوبر، ويقال إنه كان ملكا غير متوج على البادية. عاش فترة فى الجاهلية ثم أدرك الإسلام.

قدمت مى الماء إلى البدوى الشاب وهى تقول ساخرة "اشرب ياذا الرمة" لأنها لمحت المعاذة التى علقتها أمه فى عنقه بحبل صار باليا .

فكأنما الشعر قد صار نبضات قلب شاعرنا، لا يتوقف إلا عندما يسكن ذلك القلب ويهدأ إلى الأبد.

كان ذو الرمة مثل كل شاب في سنه يتطلع إلى الحب ويبحث عنه فى عيون من التقى بهن من النساء، ولكنه عندما رأى مية أدرك أنه عثر على ضالته أخيرا، وراح ينشد الأشعار تشببا بها، ويسعى إلى لقائها ليروى أشواقه فيزيد من اضطرام نار عواطفه.

وهو فى كل الأحوال يظل وفيا لمدرسة البادية فى الحب. ذلك الحب العذرى الذى لا تشوبه رغبات حسية والذى لا يأمل فيه العاشق سوى فى نظرة من محبوبته[1]، وقد يطمح إلى حوار قصير تبادله فيه الشعر، وهو دائما شعر جميل على مستوى ما ينظم الشاعر نفسه، مما يجعلنا نظن بأنه هو الذى كان ينظم ذلك الشعر نيابة عنها، فيكفيه أنها هى التى أوحت به إليه، وأنها ألهمته تلك الأبيات لكى ينسبها إليها .

وعلى الرغم من ذلك البكاء الحار الذى يشيع فى أشعار ذى الرمة، وتلك الدموع الغزيرة التى نجده يذرفها على مى وعلى حبه لها، وفراقها الذى يدمى قلبه على مدى ستة وخمسين قصيدة طويلة كرسها لمية وحدها. فإننا عندما نستعيد قراءة أخبارهما معا يدهشنا تلك الحرية التى كانت امرأة البادية تتمتع بها فى صدر الإسلام .

---

(١) الجنس أكمل صورة للحب ولكنه يجب أن يكون فى الحلال أى من خلال الزواج ، فهو يجعل الجسدين جسداً واحداً ويوحد المشاعر ، ويروى عطش المحبين ويسكن نفوسهم وقلوبهم، قال تعالى: ﴿ ومن أياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾[الروم]، وقال تعالى: ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾

يقول ذو الرمة في إحدى قصائده :

بكيت على مي بها إذا عرفتها
وهجت الهوى حتى بكى القوم من أجلي

فظلوا ومنهم دمعه غالب له
وآخر يثني عبرة العين بالهمل

وهل هملان العين راجع مامضى
من الوجد أو مدنيك يا مي من أهلي

أقول، وقد طال التنائي[1] وليست
أمور بنا أسباب شغل إلى الشغل

ألا لا أبالي الموت إن كان قبله
لقاء بمي وارتجاع من الوصل

إن موضوع الحب ليس سراً، فالشاعر يعلن حبه على الملأ ويبكي على مي حبيبته، فيبكي معه من يسمعه ويظلون يبكون ويذرفون الدموع ويتنهدون حزنا على ذلك الشاعر الذي يعاني من الحرمان ومن اليأس، ويتمنى الموت إذا كان سيسبقه لقاء مي واستعادة وصالها.

إن العاشق الولهان لا يكتفي بترديد الشعر حول حبيبته بل يظل يحوم حول ديارها، ومعه أصحابه، على أمل أن يلتقي بها ويستعيد ذلك الحوار العذب الذي يشتاق إليه معها. ويروي أحد أصحابه قصة واحدة من تلك المحاولات عندما أتى إليه راغبا في استعارة واحدة من ابله، لا يتعرف على آثارها أحد من أهل مية، ويركبان معا ناقة تسمى الجؤذر حتى يقتربان من منزل مي فيتمهلان،

(١) التنائي : البعاد.

ويراهما النساء فيخبرن مى بقدوم حبيبها، وتسعى احداهن إلى عقد مجلس فى بيتها ليجتمعوا به كلهم، وتطلب إلى الشاعر أن ينشدهن بعض أشعاره عن مى فيطلب من صاحبه أن ينشدهن إحدى قصائده :

نظرت إلى أظعـان مـى كأنها ذرى النخل أو أثل تميـل ذوائبه

فأسبلت العينان والصـدر كاتـم بمغرورق نمت عليـه سواكبـه

بكى وامق حان الفراق ولم تجـل جوائلهـا أسـرارة ومعاتبـه

ويتكرر اللقاء، لقاء عفيف، يشهده أصحابه وأصحابها، ويستمع فيه الجميع إلى أشعار ذى الرمة، ويتبادل الجميع بعض المزاح، ثم يبتعدون جميعا ليتيحا خلوة بريئة للعاشقين، يبثان فيها أشواقهما ثم يتبادلان الهدايا : هو - يهديها الأشعار وهى تهديه الطيب (العطر).. ومع تطور العلاقة يفكر ذو الرمة فى خطبة مى لنفسه فيصارح أخاه هشام بذلك، ولكن الأخ الأكبر لا يتحمس كثيراً لفكرة الزواج ممن هى أرقى فى السلم الاجتماعى. فحتى فى البادية والجميع يعيشون فى الخيام ويتنقلون بالإبل والماعز لرعى الكلأ، كانت هناك طبقات اجتماعية .. وكان للزواج مراسم ونفقات باهظة لا يقدر عليها فتى يتيم مثل ذو الرمة.

ويصبح على الفتى العاشق أن يغترب بحثا عن المال، فلا حل أمامه سوى الارتحال إلى العراق ومدح الأمراء والحكام، كما كان كل الشعراء فى عصره يفعلون، ليحصل على بعض المال.

فهل صرح ذو الرمة بخطته لمى ؟! هل شاركها التفكير فى حل لأزمته؟! هل قرر معها أين سيذهب ومتى سيعود ؟! لا أعتقد ذلك، وإنما كأى فتى فى العقد الثانى من عمره لابد وأن الغضب من أخيه قد أعماه فقفز فوق فرسته أو ناقته وانطلق لا يلوى على شىء.

ولابد أن ميا ظلت تنتظر، فلا أحد يروى لنا شيئا عن مشاعرها أثناء غياب ذى الرمة.. ولكننا نتصور معا وضع تلك الفتاة المسكينة التى ظهر واضحا جليا أنها أحبته وأنها كانت تكذب نفسها وتكذبه ولا تصدق أنه يمكن أن يحبها كل ذلك الحب. وأنها كانت تمنحه من وقتها واهتمامها وهداياها ما يكفل لتلك العاطفة الرائعة أن تنمو وتستمر، فالأخبار القليلة جدا عن مى، التى ظل ذو الرمة يتشبب بها حتى آخر يوم فى حياته تقول أنها كانت امرأة جميلة ذلك الجمال الباقى .. جمال الروح، فهى مثقفة واعية على درجة من عفة النفس والكبرياء، بحيث أن ذكراها لم تبرح خيال الشاعر لحظة، حتى بعد أن باعدت الأيام بينهما.

لقـد علقـت مـى بقلـبى عـلاقـة

بطيـئا على مـر الشهور انحلالها

إذا قلت يجرى الود أو قلت ينبرى

لها الجود يأبى بخلها واعتدالها

علـى أن ميـا لا أرى كبـلائهـا

من البخل ثم البخل يرجى نوالها

ولم ينسنى ميا تراخى مزارهـا

وصرف الليالى مرهـا وانفتالهـا

على أن أدنى العهد بينى وبينهـا

تقـادم إلا أن يـزور خيـالهـا

طالت غيبة ذى الرمة عن مى، وعن البادية ولم تكن فى ذلك الوقت وسائل اتصال كالبريد والهاتف تبرد نار العاشقة أو تمنحها القوة والصبر وتجعلها تصبر

على الانتظار، مهما طال. والأهل لا يصبرون كثيرا على بناتهم، خصوصا إذا ما تقدم واحد من أبناء العم لخطبتها. ولابد أنه القدر ذلك الذى يصر على أن تنتهى قصص الحب العظيمة كلها نهاية مؤسفة: الفراق. كأنه شرط من شروط الخلود لولاه تهمد العاطفة وتذوب مع الأيام وتنطفئ شرارتها.

يعود ذو الرمة بعد غيبة باحثا عن حبه القديم، ناشدا الوصل، ولكنه يجد أن ميا قد تزوجت من ابن عمها ورحلت عن البادية. تختفى عن ناظره، لكنها لا تبرح خياله لحظة .. حتى بعد أن يلتقى بامرأة أخرى تشغله بعض الشىء، تظل مى هاجسه الأبدى. فما هى حكاية المرأة الأخرى فى حياة شاعر الحب والصحراء ذى الرمة ..؟!

وهل حكاية ذى الرمة ومى، حقيقة أم وهم وخيال صنعه بعض الشعراء..!

وإذا كان ذو الرمة شاعراً حقيقياً هو غيلان بن عقبة بن بهيش بن مسعود، المولود عام ٧٧هـ لأب عدوى وأم أسدية. نجد أشعاره والروايات عنه مذكورة فى كتب العرب التى تحكى تاريخهم القديم، ونجد من يعتبره واحداً من أهم شعراء العصر الأموى.

فماذا عن مية ..؟! وماذا عن خرقاء ..؟! اسمان يترددان كثيراً فى أشعار ذى الرمة ولكن الشعراء العرب رددوا كثيراً من الأسماء لنساء لا حصر لهن.

وحكاية ذى الرمة مع مية، التى حكيناها تشبه كثيراً حكايات سبق وأن سمعناها ورددناها حول شعراء آخرين من شعراء الحب العذرى.. جميل وكثير وقيس وعروة.

أما حكايته مع خرقاء –المرأة الثانية فى حياته– فهى تختلف كثيراً، ليس فى تفاصيل اللقاء فقط، وإنما فى صفات خرقاء التى قرأناها فى كتب "الأغانى" و"الأمالى" والشعر والشعراء لابن قتيبة وأخيراً كتاب الدكتور يوسف خليف أستاذ الأدب العربى بجامعة القاهرة عن ذى الرمة شاعر الحب والصحراء.

وما يهمنا هو هذه النظرة الجديدة للمرأة التى سادت فى صدر الإسلام -أى قبل أن يختلط الفكر الإسلامى بأفكار وعقائد وأعراف الحضارات التى كانت موجودة فى ذلك العالم والديانات السائدة من مزدكية وزرادشتية .. إلخ، وكلها كانت تختلف فى نظرتها للمرأة عن الفكر الإسلامى الجديد.

يقول د. يوسف خليف فى كتابه عن "ذى الرمة" يوشك الأدب العربى أن يكون أغنى الآداب العالمية فى شعر الحب، ولا يكاد يعدل الغزل العربى أى غزل آخر كثرة شعراء، وتنوع تجارب، وتعدد مذاهب".

هذه حقيقة هامة لابد وأن نستنتج منها حب العربى - فى ذلك الوقت - للمرأة واحترامه لها ورغبته العميقة فى التواصل والحوار معها، فلا يمكن أن تفرد الأشعار المطولة فى التغزل بشىء أو إنسان تحتقره، ولا يمكن أن تشغف بالحوار إلا مع من هو ند لك، يمتعك كثيراً أن تمنحه مشاعرك وأفكارك وأحلامك وتتلقى منه نفس الشىء.

وإذا كان هناك من يشكك فى حكايات جميل وكثير وقيس فإن أحداً لم يشكك فى حكاية ذي الرمة وولعه بمية، وإن اختلفوا حول قصة لقائه الأول بها فى بعض التفاصيل الصغيرة التى تدل على أن أحداً قد زاد وأضاف أو غير بعض الأحداث ليزيد من إثارة الموضوع، المهم أن الروايات تلتقى جميعها فى أن مية كانت فتاة بدوية، وأن ذى الرمة عجز عن تدبير مهرها فرحل بعيداً، ثم عاد فوجدها قد تزوجت.

وتقول الحكايات أن ذى الرمة صدم وحزن وهام على وجهه طويلا إلى أن التقى بامرأة أخرى هى خرقاء، "وفى غمرة من غمرات اليأس والحرمان والإحساس بالضياع خيل إليه أنها هى التى تسليه عن مية، وتنسيه غرامها وتعوضه عن حبه الضائع".

فكيف التقى ذو الرمة بخرقاء ؟!

نقرأ فى "الأغانى" حكاية ظريفة تصلح لأن تكون سهرة تليفزيونية مسلية. فالشاعر الذى مازال مفتونا بغادته البدوية، يتوصل أخيراً إلى عنوانها الجديد.

ثم يتحين ليلة حالكة الظلام لكى ينزل ضيفا علي زوجها، يفعل ذلك وهو متنكر، ولا نعرف لماذا يقبل الزوج استضافته ولماذا يفتح بيته لغريب ويكرمه، لكنها عادات العرب ومازلنا فى البادية، وقريبى عهد بالرسالة، لم تتعقد الحياة بعد، ولم تتعقد علاقات ونفوس الناس.

على أن غفلة الزوج لا تستمر طويلاً، فسرعان ما يدرك الحيلة الماكرة، ويفطن إلى أن الضيف المتنكر ماهو إلا ذو الرمة، عاشق مية قبل زواجها منه، وشاعرها الذى تتناقل الأفواه قصائد تشببه بها فى كل أرجاء البادية.

يسرع الزوج بطرد الشاعر العاشق من بيته، ملقياً حاجياته وراءه، تاركاً إياه فى العراء.

ولا يجد ذو الرمة وسيلة ليخفف بها على نفسه ما حدث سوى أن يتوقف أمام البيت، ويغنى مردداً بيت شعر كان قد قاله فى مى من قبل :

أراجعـة يا مـى أيامنـا الألى　　بذى الأثل أم لا ما لهن رجوع

ويسمع الزوج ذلك الغناء فتثور ثائرته ويتساءل فى غضب عن معنى الكلام، وما الذى يعنيه ذو الرمة بقوله : أيامنا الألى بذى الأثل" فماذا حدث فى تلك الأيام ؟!

هكذا يصرخ فى زوجته مى، ويطالبها بأن تقوم فتطرد ذا الرمة وتبعده عن المكان وإلا ضربها بالسيف.

وتفعل مى ما أراد زوجها، فيغضب ذو الرمة، وينهض إلى راحلته فيركبها وينصرف، وقد آلى على نفسه أن يقطع صلته بمى تماماً، وأن يفعل ما بوسعه

لكى ينساها ويظل يسير على غير هدى حتى يصل إلى مكان ينزل به أهل خرقاء، ويتعرف إليها، وتعجبه فيقول فيها الشعر.

وهناك حكايات أخرى حول لقاء ذى الرمة بخرقاء، فتاته الثانية بعد مى، لكن هذه أقربها جميعاً إلى العقل. فالحكايات الأخرى تزعم أن ذا الرمة لم يحب خرقاء، بل لم يلتق بها إلا لماما، مما يجعل البعض يتساءل : أكانت خرقاء غير مية أم كانت هى مية نفسها ... هل خلق ذو الرمة شخصية وهمية أسماها خرقاء لكى يتشبب بها، فيذيع شعره عنها ويصل إلى مية، ويغيظها ..؟!

أم أن خرقاء اسم وهمى، اخترعه ذو الرمة لكى يطلق العنان لأشعاره فى حب مية دون خوف من أذى زوجها، ودون إساءة لها ..؟!

ويجيب د. يوسف خليف، الذى أمضى عشرين عاماً يدرس أشعار ذى الرمة ويجمع حكاياته :

إن من ينظر فى شعر ذى الرمة يلاحظ أنه يفرد أحياناً قصائد لمية، وأحياناً لخرقاء، وأحيانا أخرى يجمع بينهما ويتحدث عنهما معاً، ويخرج من هذا بخلاصة : أن "مية (كانت) المحبوبة الأولى، وخرقاء المحبوبة الأخرى. وهو حديث من الصراحة بحيث يصبح الجدل حول هذه المسألة ضرباً من المراء لا معنى له. فخرقاء غير مية، فخرقاء عامرية، ومية منقرية، وبنو عامر ينزلون اليمامة، وبنو منقر ينزلون الدهناء، وكلتاهما شخصية حقيقية. وإذا كانت مية فى أواخر حياة ذى الرمة الأمل الضائع أو الفردوس المفقود الذى أفلت من بين يديه إلى الأبد، فقد كانت خرقاء فى هذه المرحلة من حياته الأمل المنتظر الذى تراءى له فى ظلمات يأسه والفردوس المنشود الذى ضمه بعد ضياع."

ما يهمنا بعد ذلك تلك الصفات التى نعتت بها خرقاء، وأغلب الأحاديث عنها متواترة يؤيد بعضها بعضاً.

فيقولون أنها كانت بدوية أصيلة، تروى الشعر وتنظمه، وتعرف أنساب العرب وأخبارهم معرفة دقيقة.

تلك إذن صورة المرأة التى يمكن أن تكون عزاء للرجل إذا ما صدم فى عاطفة قوية . امرأة ذات عقل وروح وليست مجرد دمية جميلة تفتنه بتقاطيعها الجذابة أو صوتها الشجى أو .. أو .. ونكتشف ذلك ونحن نطالع أشعاره عن خرقاء.. لقد اختفى منها ذلك الصراع الحاد بين الروح والجسد الذى كان يسرى فى أشعاره عن مى، هناك فارق السن بين شاعر مية وشاعر خرقاء.. هو الآن قد غادر سنوات الشباب المبكر وأضحى يقترب من الأربعين.

وهناك فارق السن أيضا بين مى الفتاة الصغيرة، وخرقاء المرأة الناضجة التى كانت تكبره فى السن، التى تفهمه وتعطيه حق قدره وتعطف عليه وتحاول أن تساعده كى يتخطى أزمته العاطفية. إنها تعرف أمر مية، وتردد أشعار ذى الرمة عنها، لكنها لا تشعر بالغيرة منها، حتى عندما يقول الشاعر أشعاراً جديدة يظهر فيها بوضوح أن جرحه القديم لم يندمل وحبه لمية حبا ينبض ويوخز ويلهم بالمزيد من الأشعار. ويقول د. خليف :

"إن كل من ينظر فى أحاديثها عنه وفى شعرها الذى قالته فيه يشعر شعوراً عميقاً بأنها كانت تحمل له فى نفسها شيئاً أكثر من الحب.. هو ذلك المزج الصافى العميق من الحب والأمومة".

الأذن تعشق قبل العين أحيانا

بشار وعبدة (١)

هل أحب بشار عبدة ؟!

سؤال لابد وأن يدور فى عقلك وأنت تقرأ مئات الأشعار التى كتبها الشاعر الأموى المخضرم الكبير، وكلها موجهة إلى عبدة أو عبيدة كما كان يدللهاأحيانا..

ولم يكن بشار بن برد شاعرا رقيقا أو رجلا وسيما، وإنما كان ضخما مجدورا طويلا جاحظ المقلتين قد تغشاهما لحم أحمر، وقد ولد كفيفا، وقال عن نفسه :

عميت جنينا والذكاء من العمـى

فجئت عجيب الظن للعلم موئـلا

وغاض ضياء العين للعلـم رافدا

لقلب إذا ما ضيع الناس حصلا

فهو إذن لم يكن على وسامة ورشاقة كى يلفت نظر النساء إليه، ولم يكن ذا بصر لينعم برؤية الجمال ويفتن بمحاسن الجميلات، فهو وإن حرم نعمة البصر إلا أنه لم يكن أعمى البصيرة، فكان يشبه الأشياء ببعض فياتى بما لم يقدر البصراء أن ياتوا بمثله.

كان الشاعر بشار بن برد يدهش معاصريه بتشبيهاته القوية، ويغلبهم بلسانه الحاد وهجائه المقزع. لقد كان شاعرا موهوبا لاشك فى ذلك، وكان

(١) المرجع السابق .

يمتلك أدواته الخاصة وله كلمات كثيرة استخدمها ولم يسبق لشعراء آخرين أن استخدموها، ذلك أنه كان حريصا على الاغتراف من لغة البادية التى أمضى بها شطرا من عمره.

فهل تعلم بشار حب المرأة فى البادية ؟!

الغريب أن الدكتور طه حسين الذى يعترف صراحة بأنه لا يحب بشارا ولا يميل إليه، شخصا وشعرا، يقول عن شعره : وجملة القول في بشار أنه كان شاعرا غزير المادة جدا، ولكن الجيد فى هذه المادة لم يكن صادقا فى شعره ولا مخلصا، وإنما كان يتكلف المعانى فى أكثر الأوقات، وكان يتكلف الألفاظ والأصوات، لم يكن محببا ولا جذابا، ولا لينا رقيق الطبع والحاشية، وإنما كان قويا جبارا، مبغضا إلى الناس، مبغضا لهم.."

يقول عن شعر بشار فى الغزل : والغريب أنك لا تجد بشارا يسف فى اللفظ إذا مدح أو تعرض لفن من فنون الشعر إلا الغزل والهجاء ... ولهذا كان يتخير إذا تغزل أيسر الألفاظ والأساليب. وأدناها وأشدها شيوعا فى النساء وفتيات الهوى، كأنه كان يريد أن يفهمه النساء والفتيات، وأن يتأثرن به .."

واعتقد أن د. طه حسين ظلم بشار بن برد كثيرا، تماما كما فعل معاصره اسحق بن إبراهيم الموصلى. لقد كره شخصية الرجل، فرفض الشاعر ولو نحينا جانبا ما قرأناه عن بشار بن برد من حكايات وطرائف فى كتاب الأغانى تدل كلها على أنه كان سليط اللسان، قاسيا فى هجائه، جلفا فى تصرفاته مع أقرانه من الرجال، ثم نظرنا إلى شعره فى الغزل وبالذات فى عبدة، فإننا سنجد بشارا آخر. بشارا يذوب رقة وحنانا، تسيل دموعه شوقا إلى حبيبته، ويودعها بزفرات حارة عندما تتزوج رجلا آخر فيقول لامرأة تدعى خشاب :

أخشـــاب حقـــا أن دارك تــزعــج

وأن الـــذى بينـــى وبينـــك ينـــهـــج

فواكبدا قد انضج الشوق نصفهـــا

ونصف على نار الصبابــة ينضـــج

وواحـــزنا منهـــن يحففـــن هودجـــا

وفى الهودج المحفوف بدر متوهـــج

بكيت وما فى الدمـــع منك خليفـــة

ولكـــن أحـــزانى عليـــك توهـــج

فبشار كان عاشقا للمرأة، لا يخفى افتتانه بالنساء قال رجل مرة لبشار يعابثه :

يا أبا معاذ، أيعجبك الغلام الجادل (أى اليافع الذي قوى واشتد) فأجابه بشار بكل صراحة :

لا، ولكن تعجبنى أمه.

وسئل مرة : أى متاع الدنيا آثر عندك ؟ فقال :

طعام مُزّ، وشراب مر، وبنت عشرين بكر.

وعلى الرغم من ولعه للنساء، ألا أنه لم يكن يجبرهن على شىء، وعندما حاول مرة أن يقبل جارية لصديق له، وقاومته شعر بالندم الشديد وراح يقدم اعتذاره لها ولصديقه شعرا :

أتـــوب إليـــك من السيـــئـــات

واستغفـــر اللـــه مـــن فعلتـــى

تناولت ما لم أرد نيله

على جهل أمرى وفى سكرتى

ووالله والله ما جنيته

لعمد ولا كان من همتى

والا نمت إذا ضائعا

وعذبنى الله فى ميتتى

فمن نال خيرا على قبلة

فلا بارك الله فى قبلتى

كان حب بشار للنساء صادقا، إذ كان يعتمد على ما كان يسمعه منهن، وليس على جمالهن. كانت اذنه ذات موهبة خاصة فى التقاط الصوت الأنثوى الرخيم الذى يدل على شخصية صاحبته، وكلام المرء يفصح عن عقليته وروحه. ونراه يقول :

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم

الاذن كالعين توفى القلب ما كانا

ما كنت أول مشغوف بجارية

يلقى بلقيانها روحا وريحانا

ياقوم أذنى لبعض الحى عاشقة

والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وقد تكرر هذا المعنى كثيرا فى شعره، "أن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر".

فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب" "القلب راء ما لا يرى البصر"

فكأنه يشرح لمن كانوا يعيرونه بالعمى ويتهمونه بالكذب والنفاق، وكأن الكفيف ليس من حقه أن يحب ويهوى .

يزهدني في حب عبدة معشر

قلوبهم فيها مخالفة قلبي

فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى

فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب

فما تبصر العينان في موضع الهوى

ولا تسمع الأذنان الا من القلب

وما الحسن الا كل حسن دعا الصبا

وألف بين العشق والعاشق الصب

ولست أرى في هذا الشعر العذب أي تكلف أو صنعة، ولا تهالكا على اللذة وافحاشا في هذا التهالك وافتتانا فيه أيضا .. كما يرى د. طه حسين الذي يعترف صراحة أنه لا يقرأ كل ديوان بشار لأنه لم يكن قد نشر كاملا في زمنه. ولو كان د. طه حسين أمعن قليلاً في شعر بشار بن برد في محبوبته عبدة لغير حكمه عليه، فلا شك أن شعر بشار في عبدة لم يكن من ذلك الغزل الذي يرص فيه الشاعر مجموعة من الكلمات والمعاني المكررة، وإنما كان تعبيرا صادقا عن مشاعر مضطربة وعقل حائر وقلب معذب :

يا قلب مالي أراك لا تقر

إياك اعني وعندك الخبر

اضعت بين الألى مضوا حرقا

أم ضاع ما استودعوك إذ بكروا

فقال بعض الحديث يشغفني

والقلب راء مالا يرى البصر

ولقد أدركت النساء صدق مشاعر بشار، فتعلقن به، وكن يحضرن مجلسه، وينصتن فى شغف إلى حديثه، ويرددن أشعاره، بل كن يلجأن إليه إذا مات لأحدهن قريب فيسألنه أن يقول شعرا ينحن عليه به، وكان يرفض أن يعطيهن الشعر إلا إذا أكلن من طعامه وشربن من شرابه. وقد ظل حتى آخر أيامه يحب التحاور معين، ويعجب بما يقلنه له. قالت امرأة ذات يوم بعد أن شاب شعره : أى رجل أنت لو كنت أسود اللحية والرأس !

قال بشار : أما علمت أن بيض البزاة أثمن من سود الغربان ! فقالت له : أما قولك فحسن فى السمع، ومن لك بأن تحسن شيبك في العين كما حسن قولك فى السمع !

فكان بشار يقول : ما أفحمنى قط غير هذه المرأة.

وقالت له أخرى : ما أدرى لم يهابك الناس مع قبح وجهك ! فقال لها: ليس من حسنه يهاب الأسد.

كانت عبدة واحدة من النساء اللاتى يترددن على بشار ويتحاورن معه، وقد تعلق بها، فاتفق مع خادمه على أن يتبعها بعد أن ينتهى المجلس ويكلمها ويعلمها بإعجاب سيده بها. ولا نعرف هل فعل الخادم ذلك أم لا، وإذا كان قد فعل فبماذا أجابت عبدة. لكن الذى نعرفه أن بشار ظل يقول فيها شعرا من أعذب ما قبل فى الحب، ويبدو أنها كانت سعيدة بذلك فكانت ترسل له السلام، بعد زواجها، وتعبر عن شوقها له فيرد عليها بالشعر قائلاً :

عبـد انى إليـك بالأشـواق

لتـلاق وكيـف لى بالتـلاقـى

أنا والله اشتهى سحـر عينيـك

وأخـشى مصــارع العشــاق

وأهاب الحرس محتسب الجند

يلــف البــرى بالفســـــاق

فهو لا يجرؤ على ملاقاتها خشية الحراس والمحتسب وإنما يطلب منها أن تزوره هى :

ياعبـــد زورينـــى تكـن منة

للـــه عنــدى يــوم ألقـــاك

والـله ثم اللــــه فاستيقـــنى

انى لأرجـــوك وأخشــــاك

ياعبد انـى هالـــك مدنـف

ان لـم أذق بــرد ثنـايـــاك

فــلا تردى عاشــقا مدنـفـا

يرضى بهذا القـدر مـن ذلك

كل هذا التذلل والرجاء من رجل كان الرجال يخشون هجاءه، ومنهم الأصمعى وسيبويه والأخفش وكان بعضهم يدفع له آلاف الدنانير كى لا يهجوه. ويقال إن الخليفة المهدى نفسه طلب من بشار ألا يتشبب بالنساء، لأنه شعر أنهن قد شغفن بأشعاره، وأن هذه الأشعار قد تفسدهن، ومع ذلك فقد انتشرت تلك الأشعار وذا ع صيتها وغناها أشهر مغنى ذلك العصر.

الحب من أول نظرة

أبو نواس .. ومعشوقته جنان

أبو نواس، الشاعر المعروف الذى عاصر الخليفة المهدى ثم الرشيد ثم الأمين، مات قبل أن يدخل الخليفة المأمون بغداد.

قرأنا عنه وله كثيرا، ولكن آخر ما يتوقعه المرء أن يتأكد حب أبى نواس لجارية من بنات عصره، كانت تدعى جنان. قال أغلب الذين كتبوا عن أبى نواس أن حبه لجنان كان صادقا، وكان حقيقة لم ينكرها أبو نواس ولا انكرها أحد ممن عاصروه سوى قلة منهم شكوا فى جديته.

فما هى حكاية أبى نواس وجنان والحب من أول نظرة ..

كان أبو نواس شاعرا فذا أجمع شعراء عصره على تميزه حتى أن الشاعر أبا العتاهية وسط أحد أصدقائه ليطلب منه ألا يقول الشعر فى الزهد حتى لا يتفوق عليه.

وقد اشتهر أبو نواس بالمجون والزندقة، ولم يكن يخفى ذلك أو ينكره بل كان يجاهر بشذوذه، ويتغزل علنا فى الغلمان ويحكى عن مغامراته معهم. ويقول أبو الفرج الأصفهانى أن أهل أبى نواس حاولوا أن يزوجوه حتى ينصلح حاله فأبى عليهم ولكنهم ظلوا يلحون حتى أذعن أخيرا فزوجوه جارية جميلة من أهل بيته، فلما دخل بها أعرض عنها، وخرج إلى غلمان كانوا يأتونه، ثم لما أمسى طلقها ثم أنشد :

صاحبة القرقر قومى ارحلى	تنقـبى صاغـرة واذهبـى
مرى فكم مثلك من حـرة	رائقـة لم تـك مـن مطلـبى
لا أبتغى بالطمـث مطموقة	ولا أبيـع الظبـى بالأرنـب

وعلى الرغم من ذلك ذكرت الأخبار أنه كان يعجب ببعض الجوارى وأنه عشق جارية وطلبها من صديقه ذات مرة، وأصر على أن تهديها له، وأخيرا حدث للحسن بن هانىء، مالم يكن يتوقعه هو ولا أصدقاؤه.. وقع فى الحب، الحب من أول نظرة كما يحدث لشاب غرير فى بداية الصبا وليس لديه أية تجارب فى الحياة. ويقول لنا صاحب الأغانى : إن أبا نواس لم يصدق فى حب امرأة غيرها . وكان أول كلفه بها أنها مرت، وهو جالس فى المربد مع فتيان من أهلها يتنزهون وينشدهم، فأبرزت عن وجه بارع الجمال، فجعل ينظر إليها، فقال له أصحابه : خرجت من حدك الذى كنت تنتسب إليه، يعنى من حب الغلمان إلى حب النسوان، فأنشأ يقول :

أنى صرفت الهوى إلى قمر لم تبتذلـه العيـون بالنظـر
إذا تأملتــه تعـاظمــك الا قرار فى أنـه مـن البشـر
ثم يعود الانكـار معرفـة منك إذا قسته إلى الصـور
مباحة ساحة القلـوب لـه يأخذ منها أطايـب الثمـر

وشغف بها حبا وهام بها، وقال فيها أشعارا كثيرة وشكا وجده بحبها وهو لا يعرفها، وسأل عنها فلم يقع على خبر منها بعد اليوم الذى رآها فيه، فقال :

كمــا لا ينقضـى الإرب كـذا لا يفتــر الطلـــب

وتناقل أهل البصرة شكايته من حبها وشعره فيها، وأكثروا ذكره فى كل محفل وجمع.

فمن هى تلك المرأة التى قهرت شذوذ أبى نواس وانتصرت على ندمائه من الغلمان والمجان وأعادت إليه طبيعته التى خلقه الله عليها!

تلك كانت جنان جارية آل عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى المحدث ويصفها أبو الفرج قائلا : "كانت جنان حلوة، جميلة المنظر، بديعة الحسن، أديبة

عاقلة ظريفة، تعرف الأخبار وتروى الأشعار، وكانت مقدودة حسنة القوام". تلك إذن صفات المرأة التى لابد وأن تخلب لب الرجل مهما كان فاسقا أو منحرفا، ويستوقفنا وصف الأصفهانى لجنان بأنها كانت أديبة تعرف الأخبار وتروى الأشعار. أى أنها لم تكن مجرد وجه مليح وقوام معتدل بل كانت ذات ثقافة وموهبة ولم تكن امرأة متهتكة مثل أغلب جوارى وقيان ذلك الزمان، بل كانت تفضل صحبة النساء على الرجال، وكانت حريصة على أداء فرائض دينها.

وقد بلغ أبا نواس يوما أن معشوقته جنان قد عزمت على الحج فقال : أما والله ما يفوتنى الحج والمسير معها عامى هذا، إن أقامت على عزيمتها، فظن مازحا، ولكنه لم يكن يمزح بدليل أنه سبقها إلى الخروج.

جنان إذن كانت قادرة على أن تقوم اعوجاج الشاعر الكبير، وأن تعيده إلى الصراط المستقيم فقد ذهب فعلا إلى الحج، وأحرم، ويقول الذين شاهدوه بالحج، أنه جعل ينشد الشعر، ويطرب فى صوته بالليل حتى فتن به كل من سمعه يقول :

إلهنـا مـا أعـدلـك
مليـك كل من ملـك

لبيـك قد لبيـت لـك
لبيك أن الحمـد لـك

والملك لا شريـك لـك
ما خـاب عبـد سألـك

أنـت لـه حيـث سلـك
لـولاك يـارب هلـك

ولكن الناس لم تصدق أن أبا نواس يمكن أن يتوب عن آثامه الكثيرة بسبب حبه لامرأة. واتهمه أحدهم بأنه حاول أن يلثم خد جنان، بينما هى منهمكة فى لثم الحجر الأسود.

أما جنان نفسها فلم تكترث بحب أبى نواس لها وافتتانه بها، ولم تتحرك فى قلبها أية عاطفة تجاهه، على الرغم من كل تلك الأشعار التى كان أبو نواس يعبر فيها عن حبه العميق لها، وكانت جنان تسخر من أبى نواس، حتى أنها خرجت ذات يوم هى وصاحبة لها حتى التقيا بأبى نواس، فلما رآها كاد أن يذهب عقله وتحير وراح يدبر ويقبل، أى أنه تصرف كتلميذ مراهق التقى مصادفة بمن يحب، وراحت صاحبة جنان تمازحه وتقول له : فاجعلنى رسولا إليها، فلعل الله أن يمن على وعليك. فلما بلغ ذلك جنان غضبت من صاحبتها: وقالت لها: مثل هذا الكلب تطمعينه فى "!

وكان أبو نواس يعلم أن جنان تحتقره وتسبه فقد تقرب من الثقفيين الذين كانت تنتمى إليهم، وأصبح يزورها ويتحين الفرص ليبعث إليها بالرسائل التى تفيض حبا ووجدا، فكانت تسبه أمام من يرسلهم إليها وتقول أنه مخنث كذاب حتى أنه انشد فى ذلك يقول :

جنـــان تسـبنى ذكرت بخير

وتزعم اننى مـــزق خنيـث

وأن مودتــى كــذب ومـــين

وأنـى للذى أهــوى بثـــوث

وما صدقـت ولا رد عليـهـا

ولكن الملـول هـو النكـــوث

ولى قلب ينازعنى إليها

وشوق بين أضلاعى حثيث

رأت كلفى بها ودوام عهدى

فملتنى كذا كان الحديث

شكته جنان يوما إلى مولاها، فشتمه ثم ندم على شتمه - هكذا حكى أبو نواس نفسه - فذكر له ذلك. فقال : من سبنى من ثقيف فاننى لن أسبه .. ثم أضاف "فكان ذلك مما عطفها ورقق قلبها، وكان أول الأسباب إلي وصلها". ويبدو أن أبا نواس كان يتخيل أن جنانا قد رضيت عنه وقبلت أن تلتقى به، وأن قلبها لان له وأصبحت تحبه، ثم فجأة تجهمت فى وجهه فغضب وهجرها مرة فأرسلت إليه رسولا لتصالحه، فرده ولم يصالحها ثم رآها فى النوم تطلب صلحه، فقال :

دست له طيفها كيما تصالحه

فى النوم حين تأبى الصلح يقظانا

فلم يجد عند طيفى طيفها فرجا

ولا رثى لتشكيه ولا لانا

حسبت أن خيالى لا يكون كما

أكون من أجله غضبانا

فكيف يستقيم هذا الإدعاء مع ما ذكره هو عدة مرات من أنها كانت تشتمه كلما تحدث أحد عنه، وكانت تلقبه بالكلب والمخنث والكذاب وشكوه لمولاها وقال فى ذلك :

وبأبى من إذا ذكرت له وطول وجدى به تنقصنى

لـو سألـوه عـن وجـه حجتـه فى سبـه لـى لقـال يعشقنـى

نعـم إلى الحشـر والتنـاد نعـم أعشقـه أو الف فى كفنـى

لا انثنـى ويـك عـن محبتـه ما دام روحى مصاحبا بدنـى

أصبح جهـرا لا استسـر بـه عنفنـى فيـه مـن يعنفـنى

يا معشر الناس فاسمعوه وعـوا ان جنانـا صديقـة الحسـن

وكانت النتيجة أن حجب أهل جنان جاريتهم عن أبى نواس، وأرسلوها إلى دار لهم فى بلدة أخرى تدعى حكمان لكى ينساها، فكان يقصد الجبل بالبصرة فيسأل كل من أقبل من تلك الناحية وينشد :

اسـأل القادمـين مـن حكمـان

كيـف خلفتمـا أبـا عثمـان

وأبـا ميـة المهـذب والمـا

مـول والمرتجـى لريـب الزمـان

فيقـولان لـى جنـان كمـا سـرك

فـى حالهـا فسـل عـن جنـان

مالهـم لا يبـارك اللـه فيـهم

كيـف لم يغـن عندهـم كتمـانى

صرت كالشـن يشرب الماء فيمـا

قـال كسـرى بعلـة الريحـان

أو كمـا قيـل قبـل إيـاك اعـنى

واسمعـوا يـا معشـر الجـيران

هذه الأبيات ترجمة للمثل السائر "الكلام عنك ياجارة" فهو يتظاهر بالسؤال عن رجال آل ثقيف ولكن الكل يعلم أنه لا يعنيه الا جنان، وقد بلغ ذلك الخبر مولاة جنان فبعثت إليه : إن أردت وهبتها لك. ولكن جنان مانعت فى الزواج منه، واشترطت عليه ألا يعود إلى شذوذه، ولم يستطع هو أن يعدها بذلك.

بعد هذا كله هل أحب أبو نواس جنانا، أم أنه كان يعبث كما قال بعض معاصريه. ولو أن جنانا بادلته حبا بحب فهل كان تاريخه سيتغير وسلوكه سيستقيم ؟! هذه الأسئلة ما تزال فى حاجة لمن يجيب عليها ولكن الثابت أن شعر أبى نواس فى محبوبته جنان كان من أرقى وأعذب وأصدق ما قيل فى الحب.

الفقيه وقع فى الحب

هو عبد الرحمن بن أبى عمار الجمشى من أهل مكة.

وهى سلامة، مولدة من مولدات المدينة كانت مملوكة لسهيل بن عبد الرحمن بن عوف.

هو كان يوصف بأنه من أعبد أهل مكة، وقد لقبوه بالقس لكثرة تعبده ... وهى كانت من أشهر مطربات عصرها، وكانت أيضا سيدة صالون من الطراز الأول، تستقبل الشعراء فينشدونها وتنشدهم الشعر، ويتغنون بجمال صوتها وظرفها ويتنافسون للحصول على رضائها.

حكايتها اشتهرت وشاع خبرها فى الربع الأخير من القرن الهجرى الأول، أثناء خلافة عبد الملك بن مروان وأبنائه.

والحكاية بدأت بصدفة، ولكنها كانت خيراً من ألف ميعاد. فلأمر ما ذهب الناسك المتعبد إلى المدينة.

والحجاز فى صدر الإسلام كانت الحياة فيه - كما يصفها لنا كاتب الأغاني- حياة فرح ومرح ومغنى وطرب إلى جانب الزهد والورع والتقوى والحديث والفقه.

ويصف لنا الدكتور أحمد أمين أهل الحجاز فى ذلك الوقت بالظرف والرقة فى الشعور، وانهم فى ذلك فاقوا أهل العراق والشام، حتى لقد كان فقهاء الحجاز أوسع صدرا وأكثر تسامحا تجاه الغناء والمغنين من أهل العراق.

وكان لمغنى مكة مذهب فى الغناء ولمغنى المدينة مذهب. وكان بين الفريقين مفاخرة، وأقبل الناس على الغناء يسمعونه ولعلهم كانوا يقارنون بين هذا المغنى وذلك، وبين تلك المغنية والأخرى. ولعل الفقهاء لم يكونوا ببعيدين عن هذه الروح حتى أن الإمام مالك بن أنس اعترف بأنه نشأ فى ذلك الوسط وكان يتبع المغنين ويأخذ عنهم. أى أنه كان يتمنى أن يصبح مغنيا، ولكن أمه نصحته بأن يتجه للفقه قائلة : يابنى ان المغنى إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه، فدع الغناء وأطلب الفقه، فانه لا يضر معه قبح الوجه[1].

ويحكى لنا أبو الفرج الأصفهانى عن ذلك العصر أن المغنيين كانوا يخرجون إلى الحج قوافل. واجتمع فى زمن واحد من مشاهير المغنين والمغنيات فى الحجاز جميلة وهيت وطويس والدلال وعزة الميلاء وحبابة وسلامة وبلبلة....إلخ. ويرون أن هؤلاء حجوا، فتلقاهم فى مكة سعيد بن مسجع وابن سريج والغريض ... إلخ. من المطربين وخرج أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى حسن هيئتهم وأزيائهم المبتكرة ويرحبون بهم.

كان عبد الرحمن بن أبى عمار مارا فسمع غناء سلامة، فوقف وراح ينصت، وقد أعجبه صوتها وأدها إلى الحد الذى جعله غير قادر على التحرك من مكانه. ورآه مولاها، ولاشك أنه عرفه وعرف قدره حتى أنه رحب به وقال له:

(١) الفقهاء يعتبرون الغناء الخليع من الفسق .

هل لك أن أخرجها إليك أو تدخل فتسمع ! فأبى . فقال مولاها: أنا أقعدها فى موضع تسمع غناها ولا تراها فأبى. فلم يزل به حتى أخرجها فأقعدها بين يديه، فتغنت له.

وصار عبد الرحمن بن أبى عمار يتردد على دار أبى سهيل مدة طويلة فيستمع إلى سلامة وهى تغنى، ثم يتحدثان معا وسط الناس إلى أن سنحت لهما الفرصة ذات يوم لينفردا معا دون رقيب. خرج مولى سلامة لبعض شأنه وخلف "القس" عبد الرحمن بن أبى عمار مقيماً لدى سلامة وكانت حكايتهما قد ذاعت بين أهل مكة، وأصبح الناس يتهامسون بما يجرى فى دار سهيل، وذلك الفقيه الورع الذى تحول إلى عاشق متيم بالمغنية.

ولعل سلامة أرادت أن تطور العلاقة بينهما فهى أيضا قد شغفت بذلك المعجب المفتون وبأدبه وشخصيته المهذبة. وهى جارية، يستطيع لو أراد أن يشتريها من مالكها، فتصير ملك يديه، أو يستطيع أن يشتريها منه، ويحررها ثم يتزوجان على سنة الله ورسوله.

لابد أن يحدث شىء لينقذ سمعة الفقيه، ويخفف عن قلبها لوعة الاشتياق ومرارة الحيرة والضياع. إنها - مثل أى أنثى - تتوق إلى حياة مستقرة هانئة حيث يمكنها أن تنعتق من حياة الليل والسمر والغناء.

وإنقل لكم ما يرويه أبو الفرج عندما انفرد العاشقان فى خلوة قالت له : أنا والله أحبك : قال : وأنا والله أحبك. قالت : وأحب أن أعانقك وأضع فمى على فمك. قال: وأنا والله أحب ذلك. قالت : فما يمنعك ! فوالله ان الموضع خال.

ولا ينبغى أن نحكم على هذا الحوار بتفكيرنا اليوم.

فسلامة كانت جارية، وكان اقتناء الجوارى مباحا فى صدر الإسلام[1].

---

(١) اقتناء الجوارى لم ينسخ .

وكان بإمكان مولى الجارية أن يهبها لمن يحب. وكثيراً ما كان الرجل يسأل صاحبه أن يهبه إحدى جواريه. ذلك إذن عرف شائع فى ذلك العصر، وكانت سلامة تتصرف بعقلية الجارية.

لكن عبد الرحمن بن أبى عمار كان له موقف آخر. فلابد أنه خشى على حياته من سيطرة الحب. لقد أدرك أنه إذا ما امتلك سلامة فلن ينشغل بشىء آخر سواها. ولعلها ستغير حياته تماما، وتصرفه عن الفقه الذي تخصص فيه، والورع الذى عرف عنه حتى أن الناس كانوا يشبهونه بعطاء بن رباح، أحد التابعين ومن أجل فقهاء مكة وزهادها، ولعله كان يتطلع لأن تكون له مكانته، فيجلس فى المسجد الحرام ويجتمع الناس حوله، فيفتيهم ويحدثهم ويعلمهم، كما كان عطاء يفعل.

تذكر عبد الرحمن أحلامه وطموحاته في أن يصير واحدا من أشهر فقهاء مكة، فما أن تطور الحديث بينه وبين سلامة إلى الحد الذى دعته فيه صراحة إلى عناقها حتى أجابها: يمعنى قول الله عز وجل "الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين" فاكره أن تحول مودتى لك عداوة يوم القيامة ثم خرج من عندها وهو يبكى فما عاد إليها بعد ذلك.

هل صعدت سلامة حكايتها مع عبد الرحمن لكى تصل إلى النهاية وتحسم موقفه تجاهها، فأما اختارها أو مضى عنها بلا عودة ؟!

إن الحكاية تتوقف عند مغادرة عبد الرحمن دار سلامة ولا تقول لنا هل استدعته مرة أخرى، أو حاولت أن توسط بينها وبينه واحدا من الشخصيات المعروفة التى كانت تتردد عليها وتستمع لغنائها، كالأحوصى أو قيس بن عبد الله الرقيات اللذين كانا يعلمان بأمر عشق القس لها، فقال ابن قيس الرقيات فى ذلك:

لقـد فتنـنا ريـا وسلامـة القسـا

فلم تتركا للقس عقـلا ولا نفسـا

فتاتـان أمـا منهمـا فشبيهـة الـ

هلال وأخرى منهما تشبه الشمسا

وريا أخت سلامة وكانت تلازمها أثناء زيارة القس لها.

أما الأحوصى فقد أنشد فى سلامة :

أسـلام أنك قد ملكت فاسجحى

قد يملك الحـر الكريم فيسجح

منـى على عـان أطلـت عنـاءه

فى الغل عنـدك والعنـاة تسـرح

انى لا نصحكـم واعلـم أنـه

سيـان عنـدك من يغش وينصـح

وإذا شكـوت إلى سلامة حبهـا

قالـت أجد منـك ذا أم تمـزح

وعلم الخليفة يزيد بن عبد الملك بأمر سلامة فقال :

ما يقر عينى ما أوتيت من أمر الخلافة حتى اشترى سلامة وحبابة الجاريتين. فأرسل الرسل إلى المدينة فاشتروا سلامة بعشرين ألف دينار. وعلم الخبر فى المدينة، فتوافد الناس على سلامة ليودعوها ويسلموا عليها، وسارت هى فى موكب كبير يشيعها الخلق من أهل المدينة، فلما بلغوا مكانا يدعى سقاية سليمان بن عبد الملك، قالت للرسل لابد أن أتوقف لأودع القوم فأذن

للناس عليها، فانقضوا حتى ملأوا فناء القصر الذى كانت تستريح فيه، فوقفت بينهم ومعها العود وراحت تغنى :

فارقونــى وقــد علمت يقيــنا

ما لمــن ذاق ميتــة من ايــاب

ان أهل الحصاب قد تركونى

مولعا موزعا بأهل الحصــاب

ولم تزل تردد القصيدة حتى راحت، وانتحب الناس بالبكاء عند ركوبها، فما بقى أحد إلا بكى

هكذا كان تأثير الفن على أهل المدينة قبل أن ينصرم قرن واحد على هجرة رسول الله ﷺ إليها. كانوا يتذوقون الشعر الجميل ويطربون للحن ولصوت المغنية الموهوبة وأدائها الشجى. وكانوا يطلقون لأنفسهم العنان فيعبرون بحرية عن إعجابهم الشديد بذلك الفن والموهوبين فيه. حتى ان واليا جديدا ولى على المدينة ونصحه البعض بأن يغلق دور اللهو ويطهر المدينة من الغناء والمجون. فاستمع للنصيحة وانذر أهل الطرب أن يخرجوا جميعا من المدينة وأعطاهم مهلة ثلاثة أيام. إلا أن أحد معجبى سلامة تحايل على الوالى الجديد حتى جعله يستمع لغنائها، فقام الوالى من مجلسه فقعد بين يديها ثم قال : لا والله فما مثل هذه تخرج. قال ابن عتيق : لايدعك الناس يقولون أقر سلامة واخرج غيرها. قال : فدعوهم جميعا فتركوهم جميعا.

أما الخليفة فما استقبل الجاريتين : سلامة وحبابة حتى قال : أنا الآن كما قال الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قر عينــا بالإيــاب المسافــر

وأما الفقيه عبد الرحمن بن أبى عمار، فلم تذكر عن فقهه الكتب شيئا، وإنما فقط خلدت أشعاره التى قالها فى حبه لسلامة ومنها تلك القصيدة التى كانت أول ما غنت سلامة لوليد بن اليزيد :

الا قل لهذا القلب هل أنت مبصر

وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر

الا ليت أنى حين صار بها النوى

جليس لسلمى حيث ماعج مزهر

وإنى إذا ما الموت زال بنفسها

يزال بنفسى قبلها حين تعبر

إذا أخذت فى الصوت كاد جليسها

يطير إليها قلبه حين ينظر

كان حماما راعيا مؤدبا

إذا نطقت من صدرها يتغسمر

أم الكرام(١)

بنت المعتصم بالله، أبى يحيى محمد بن معن بن أبى يحيى بن صمادح التجيبى.

قال الأديب أبو الحسن على بن موسى بن سعيد فى المغرب :

كانت تنظم الشعر، وعشقت الفتى المشهور بالجمال من دانية المعروف «بالسمّار»، وعملت فيه الموشحات.

(١) نزهة الجلساء فى أشعار النساء ـ للإمام جلال الدين السيوطى .

ومن شعرها فيه :

يامعشر الناس ألا فاعجبوا   مما جنته لوعة الحب

لولاه لم ينزل ببدر الدجى   من أفقه العلوى للترب

حسبى بمن أهواه لو أنه   فارقبى تابعه قلبى

ولها إخوة : ثلاثة شعراء :

* الواثق عز الدولة أبو محمد عبدالله.

* ورفيع الدولة الحاجب أبو زكريا يحيى.

* وأبو جعفر ... أولاد المعتصم بن صمادح.

وأبوهم ملك المرية وأعمالها - شاعر،أيضا من أهل المائة الخامسة.

أم العلاء بنت يوسف الحجارية

أم العلاء بنت يوسف بن حزر المجلسى الحجارية، ذكرها صاحب المغرب، وقال :

من أهل المائة الخامسة، ومن شعرها :

كل مايصدر عنكم حسن   وبعلياكم تحلى الزمن

تعطف العين على منظركم   وبركراكم تلذ الأذن

ومن يعش دونكم فى عمره   فهو فى نيل الأمانى يغبن

وعشقها رجل أشيب فكتبت إليه :

يا صبح لاتبد إلى جُنح   والليل لا يبقى مع الصبح

الشيب لا يخدع فيه الصبا   بحيلة فاسمع إلى نصحى

فلا تكن أجهل من فى الورى   تبيت فى الجهل كما تضحى

ولها :

افهم مطارح أحوالى وما حكمت ... بـه الشـواهد واعـذرنى ولاتلـم

ولا تلكـنى إلى عــذر أبينـــه ... شر المعاذيـر ما يحـتاج للكلـم

وكل ما قـد جنـته مـن زلة فـا ... أصبحت فى ثقة من ذلك الكرم

أمة العزيز الشريفة الفاضلة

قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية فى كتاب «المطرب من أشعار المغرب» :

أنشدتنى أخت جدى الشريفة الفاضلة، أمة العزيز بن موسى بن عبدالله بن أبى الحسن أبى جعفر الزكى بن الهادى بن محمد بن علي الرضى، بن موسى الكاظم، بن جعفر الصادق بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب :

لحاظكم تجرحنا فى الحشا ... ولحظنا يجرحكم فى الخدود

جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا ... فما الذى أوجب هذا الصدود؟

أم السعد القرطبيـة

أم السعد بنت عصام بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن يحيي الجميرى من أهل قرطبة .

وتعرف «بسعدونة» .. قال : «البدر النابلسى» فى «التذبيل» :

لها رواية عن أبيها وجدها وغيرهما من أهل بيتها. أنشدت لنفسها فى «تمثال» نعل النبى ﷺ تكملة لقول من قال :

سألثم «التمثال» إذا لم أجـد ... للثم نعل المصطفى من سبيل !!

فقالت :

لعلنـــي أحظـــي بتقبـيلـــه　　في جنة الفردوس أسنى مقبل

في ظـل «طوبى» ساكنا آمنا　　أسقى باكواس من السلسبيل

وأمســح القلـب بـــه علـــه　　يسكن ما جاش به مـن غليـل

فطالما استشفى بأطـلال مـن　　يهواه أهل الحب من كل جيل

بدر التمام بنت الحسين

بدر التمام بنت الحسين بن محمد بن عبد الوهاب الدباس.

يعرف والدها بالبارع، ذكرها الحافظ محب الدين بن النجار في تاريخ بغداد وقال :

كانت شاعرة رقيقة الشعر محسنة.

ثم قال : أنبأنا يوسف بن المبارك بن كامل بن أبي طالب الخفاف قال :

أنشدني عبد الباقي بن عبد الواحد المقرى قال :

أنشدتني بدر التمام بنت عبد الله بن الدباس لنفسها :

يبـدو وعيـدك قبل وعدك　　ويحول منعك دون رفـدك

ويزور طيفك في الكـرى　　فبحمد طيفك لا بحمـدك

لم لا تـرق لذل عبـــدك　　ولخضوعـه فتفي بعهدك

وبه إلى عبد الباقي قال :

أنشدتني بدر التمام لنفسها :

جمالـك بين الورى عاذري　　وذكرى في ليلتـي سامـري

فـلا صـح ودك إن سلـوت ولا جال حبك فى خاطـرى

أما لأن قلبـك يا هاجـرى ولا رق للمدنـف الساهـر

بوران بنت الحسن بن سهل

بوران بنت الحسن بن سهل وزير المأمون. ذكر الصولى أن اسمها «خديجة» وتعرف « ببوران».

تزوجها المأمون، وأخبارها فى ذلك مشهورة.

روى ابن النجار بسنده عن أبي الفضل الربعى عن أبيه قال : لما تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهيل، أراد أن يفتضها، فلما كاد حاضت، فقالت: ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾

ففهم المأمون قولها، فوثب عنها !!.

قال ابن النجار، وذكر الجهشيارى أن أبا عبد الله بن حمدون ذكر أن بوران بنت الحسين بن سهل قالت ترثى المأمون :

أسعـدانى علـى البكـا معلنينـا صـرت بعد الإمـام للهم قينـا

كنت أسطـو على الزمـان فلما مات صار الزمان يسطو علينا

ولدت بوران ليلة الاثنين لليلتين خلتا من صفر سنة اثنين وتسعين ومائة، وماتت ببغداد أول يوم الثلاثاء لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة إحدى وسبعين ومائتين.

تقية أم على

«تقية أم على» بنت أبى الفرج غيث بن على بن عبد السلام بن محمد بن عبد الفرج السلمى الصورى قال الصلاح الصفدى :

كانت فاضلة، ولها شعر وقصائد ومقاطيع ذكرها السلفى فى بعض تعاليقه، وأثنى عليها وقال :

عثرت مرة فانجرحت إخمصاى، فشقت وليدة فى الدار خرقة من خمارها، وعصبته، فأنشدت «تقية» المذكورة فى الحال لنفسها :

لو وجـدت السبـيل جـدت بخـدى

عوضـا عـن خمـار تلـك الولـيدة

كيـف لـى أن أقبـل اليـوم رجـلا

سلكت - دهرها- الطريق الحميدة

وذكر الحافظ زكى الدين المنذرى أن «تقية» المذكورة نظمت قصيدة تمدح الملك المظفر تقى الدين عمر بن أخى السلطان صلاح الدين بن أيوب، وكانت القصيدة «خمرية» ووصفت آلة المجلس، وما يتعلق بالخمر، فلما وقف عليها قال: الشيخة تعرف هذه الأحوال من صباها!، فبلغها ذلك، فنظمت قصيدة أخرى حربية، ووصفت الحرب، وما يتعلق بها أحسن صفة.

ثم سيرت إليه تقول : علمى بذلك كعلمك بهذا!!.

ولدت بدمشق سنة خمس وخمسمائة، وماتت سنة سبع وسبعين وخمسمائة.

ومن شعرها :

نايت وما قلبى عن النأى بالراضى

فلا تغترر منى بصدى وإعراضى

وإنى لمشتاق إليهم متيم

وقد طعنوا قلبى بأسمر غراض

إذا ما تذكرت الشام وأهله

بكيت دما حزنا على الزمن الماضى

ومذ غبت عن وادى دمشق كأننى

يقرض قلبى كل يوم بمقراض

أبيت أراعى النجم والنجم راكد

وقد حجبوا عن مقلتى طيب إغماض

فهل طارق منهم يلم بناظرى

فإن لقاء الطيف أكثر أغراضى

لعل الليالى أن تجرد صارما

على البين أو يقضى لها حكم قاضى

ثمامة بنت عبد الله

ثمامة بنت عبد الله بن سوار القاضى البصرى.

قال ابن الطراح : كانت شاعرة. توفى أخوها سوار القاضى البصرى فى سنة خمس وأربعين ومائتين ، فقالت ترثيه :

جفا جفنى الكرى بعـ ـدك وانهلت ما فيه

أمنت الدهر لما مت فلتطرق دواهيه

سقى قبرك دان مُسبل واه عزاله

ولاح جديد السرو ض منفترا بواديه

ثواب بنت عبد الله الحنظلية

الهمذانية

قال ابن الطراح شاعرة ماجنة ظريفة. ثم روى عن بعض الشيوخ قال :

كانت ثواب بنت عبد الله من أشعر النساء وأظرفهن وكانت من ساكني همدان، فنظرت يوما إلى فتى من أولاد التجار- له رواء ومنظر- ، ورد همدان في تجارة له، فأعجبها ووقع بقلبها، فتزوجته، فلما دخل بها لم يقع منها بحيث تريد !!، ففركته، وأبغضها هو، ولم يستمر بينهما وفاق، فقالت تهجوه :

إنى تزوجت من أهل العراق فى مرزا ما له عرق ولا باه[1]

ما غرنى منه إلا حسن طرته[2] ومنطق لنساء الحى هياه

يقول لما خلا بى : أنت (...) وذاك من خجل منى تغشاه

فقلت لما أعاد القول ثانية أنت الفداء لمن قد كان (...)

فقال لها أبو منصور الثعالبى يهجو زوجها:

يحب أبو صالح وايس يطاوعه (...)

وقد أمسك البخل فى كفه فأصبح لا يرتجى خيره

فياليت ما فى (...) ويملكنى رجل غيره

(١) الباه : القوة على الجماع .

(٢) الطرة : الهيئة .

وقال أبو منصور الثعالبى :

وجدت فى فصل من كتاب الصاحب بن عباد فى ذكر «الحنظلية الشاعرة» قال :

كانت بهمدان ظريفة تعرف «بالحنظلية» خطبها أبو على كاتب بكر، فلما ألح، وألحت كتبت إليه :

(...) مـــا لـــــــه عند باب (...) هذا (...) ؟

فاصـرفه مـن بـاب (...) وأدخلـه من حيث خـرج؟

قال أبو منصور : هى والله فى هذين البيتين أشهر من :

١- كبشة أخت عمرو. ٢- والخنساء بنت صخر.

٣- والجنوب الهندلية. ٤- وليلى الأخيلية.

الحجناء بنت نصيب

الحجناء بنت نصيب الشاعر الأصغر الحبشى مولى المهدى .

قال ابن النجار : لها مدائح فى المهدى قد جُمعت فمنها قولها:

أمـــير المؤمنـــين ألا ترانـــا كأنـا من سـواد الليـل قـير

أمـير المؤمنـــين ألا ترانـــا خنافـس بيننـا جـعـل كبـير

أمـــير المـؤمنـــين ألا تـرانـا فقـيرات ووالدنـــا فقـــير

أضرينـا شقـاء الجـد منـه فليـس يمـيرنا فيمـن يمير !!

وأحـواض الخليفـة مترعـات لهـا عـرف ومعـروف كبـير

---

(١) الميرة : الطعام .

أمـير المؤمنـــين وأنــت غيـــث يعـم النـــاس وابلــــه غزيـــر
يعاش بفضل جـودك بعد مـوت إذا عـالـوا وينـجـبر الكســير

حفصة بنت الركونى

من أهل غرناطة . قال ابن سعيد فى كتاب الغراميات كانت أديبة شاعرة جميلة مشهورة بالحسب والمال.

اتفق أن بات أبو جعفر عبد الملك بن سعيد هو وإياها فى بستان، وكان يهواها فقال :

رعـى اللـــه ليـــلا لم يرح بمذمم
عشـيـــة ورانـــا بجـــود مؤمـــل
وقد خفقـت من نحـو نجد روايح
إذا نفحـــت هـبـت بريـا القـرنفـل
وغـرد قمـرى علـى الدوح وانـثنى
قضيب من الريحان من فوق جدول
يرى الروض مسرورا بما قد بدا له
عنـاق، وضـم، وارتـشـاف مـقبـل

قالت حفصة :

لعمرك ما سـر الريـاض بوصلنـا ولكنـه أبـدى لنـا الغـل والحسـد
ولا صفـق النهر ارتياحـا لقربنا ولا صـدح القمرى إلا بمـن وجـد
فلا تحسن الظن الذى أنت أهلـه فما هـو فى كل المواطـن بالرشـد
فما خلت هذا الأفق أبدى نجومه لأمر سوى كيما يكون لنـا رصـد

وأورد لها «ابن الأنبار» فى تحفة القادم ، و«الملاحى» فى تاريخه، و«ابن سعيد فى المغرب» مما قالته للملك الأعظم عبد المؤمن بن على ارتجالا بين يديه:

يا سيد النـاس يـا مـن | يؤمـل النـاس رفـده
امـنـن علـى بصـك | يكـون للدهـر عـده
تخـط يمنـاك فيـه | والحمـد للـه وحـده

وقال ابن دحية فى كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب حفصة بنت الحاج من أشراف غرناطة. رخيمة الشعر، رقيقة النظم والنثر، وأنشدنى لها غير واحد من أهل غرناطة :

ثنائى على تلـك الثنايـا لأننى | أقول على علم وأنطق عن خبر
وأنصفها لا أكذب اللـه اننى | رشفت لها ريقا ألذ من الخمر

وقال ابن سعيد فى «المغرب» من أهل المائة السادسة، تولع بها ملك غرناطة، وتغير بسببها على أبى جعفر بن سعيد حتى أدى تغيره عليه أن قتله، ومن شعرها:

سلام يفتح فى زهره الكما | م وينطـق ورق الغصـون
فلا تحسبوا البعد ينسيكم | فذلـك واللـه ما لا يكـون

وقالت تخاطب ملك غرناطة يوم عيد :

يـاذا العـلا وابـن الخليـ | ـفة والإمـام المرتضـى
يهنيـك عيـد قـد جـرى | - فيه بما تهوى - القضـا
وأتـاك مـن تهـواه فـى | قيـد الإنابـة والرضـا
ليعيـد مـن لـذاتـه | ما قد تصـرم وانقضـى

قال أبو جعفر بن سعيد:

أقسم ما رأيت وسمعت مثل «حفصة» !!.

قال ابن سعيد فى كتابه المسمى بـ «الطالع السعيد» :

كتبت حفصة بنت الحاج الركونى المشهورة بالأدب والجمال إلى بعض أصحابها :

أزورك أم تـزور فـإن قلـبى ... إلى ما شئتـه أبـدا يميل ؟!

فثغـرى مـورد عـذب زلال ... وفـرع ذؤابتى ظـل ظليـل

وقد أملت أن تظما وتضحى ... إذا وافـى إليـك بـى المقيـل

فعجل بالجواب فما جميـل ... أناتك عن بثيـنة يا جمـيل

حفصة بنت حمدون

من وادى الحجارة، ذكرها فى المغرب، وقال : من أهل المائة الرابعة ومن شعرها :

رأى ابن جميل أن يرى الدهر مجملا

فكل الورى قد عمهم سيـب نعمتـه

لـه خلـق «كالخـمر» بعـد مزاجهـا

وأحسـن من أخـلاقه حسـن خلقتـه

بوجـه كمـثل الشمـس يدعـو ببشـره

العيـون ويثنيهـا بإفـراط هيبتـه

ولها :

لـى حبيـب لا ينثـنى لعتـاب ... وإذا مـا تركتـه زاد تيـهـا!!

قال لي : هل رأيت لي من شبيه؟!   قلت أيضـا: وهـل تـرى شبيهـا؟

ولها تذم عبيدها:

يارب إنـــي من عبيـــدي علـــى   جمر الغضا ما فيهم من نجيب

إمـا جهـــول أبلــه متعـــب   أو فطن من كيـد - لا يجيـــب

حمدة بنت زياد

حمدة بنت زياد من بني الغيث المؤدب من أهل وادي آش.

قال «ابن الأباري» في تحفة القادم : إحدي المتأدبات المتصرفات المتغزلات المتعففات.

حدثت عن أبي الكرم جودي بن عبد الرحمن الأديب قال : أنشدني أبو القاسم بن البراق، قال : أنشدتني «حمدة بنت زياد العوفية» قال ابن الأباري: أنشدني الكاتبان: «أبو جعفر بن عبد الأركشي» و«أبو إسحق بن الفقير الحياني» قالا : أنشدنا القاضي «أبو يحيي» عتبة بن محمد بن عتبة الجرادي لحمدة هذه الأبيات :

ولـما أبـى الواشـون إلا فراقـنا   وما لهم عنـدي وعنـدك من ثـار

وشنـوا علـى آذاننـا كـل غـارة   وقلت حُماتي عند ذاك وأنصـاري

غزوتـهـم مـن مقلتيـك وأدمعـي   ومن نفسي بالسيف والسبل والنار

وحدثني بعض الناس : أن هذه الأبيات لهجة بنت عبد الرازق الغرناطية.

وقال الصلاح الصفدي في تذكرته :

الأبيات التي اشتهرت بهذه البلاد، ونسبها الناس إلى القاضي المنازي وهي :

وقانــا وقــدة الرمضـــاء واد وقاه مضاعف الظلم العميم

الأبيات لمجموع رأيت الشيخ شهاب الدين أبا جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الرعينى وقد ذكر أنه لحمدة الوادى آشيه.

وقال : إن مؤرخى بلادنا أثبتوها لها من قبل أن يوجد المنازى ا.هـ.

وقال ابن سعيد: غرناطة ... يقال لنسائها المشهورات بالحب والجلالة العربيات لمحافظتهن على المعانى العربية.

ومن أشهرهن : زينب بنت زياد الواد آشى، وأختها : حمدة بنت زياد.

وحمدة هذه هى القائلة- وقد خرجت إلى نهر منقسم الجداول بين الرياض مع نسائها فى بعض هوى - فسبحن فى الماء وتلاعبن :

أباح الدمع أســرارى بــواد له فى الحســن آثــار بــواد

فمن نهر يطوف بكل روض ومن روض يطوف بكـل واد

ومن بين الظباء مهاة أنــس لها لبى وقـد سلبت فؤادى

لهـا لحــظ ترقـــده لأمــر وذاك الأمر يمنعنى رقادى

إذا سدلت ذوائبهــا عليها رأيت البدر فى أفق السواد

كأن الصبح مات له شقيق فمن حزن تسربل بالحداد

قال ابن دحية فى المطرب : أنشدنى الأديب زياد المؤدب لنفسها. فذكر هذه الأبيات.

خديجة بنت أمير المؤمنين

عبد الله المأمون

خديجة بنت أمير المؤمنين عبد الله بن هارون الرشيد العباسى قال ابن النجار:

كانت أديبة شاعرة ظريفة من شعرها:

تالله قولو لمن ذا الرشا | المثقل الردف الهضيم الحشا
أظرف ما كان إذا ما صحا | وأملح الناس إذا ما انتشى
وقد بنى برج حمام له | أرسل فيه طائراً مرعشا
ياليتنى كنت حماما له | أو باشقا يفعل بى ما يشا
لو لبس القوهى من رقة | أو جعه القوهى أو خدشا

خديجة بنت أحمد

بن كلثوم المعافرية

خديجة بنت أحمد بن كلثوم المعافرى وتعرف بخدوج قال «ابن رشيق» فى «الأنموذج» :

هذه المرأة من أهل «رصفة» بساحل البحر شاعرة مشهورة بذلك، ومن شعرها :

جمعوا بيننا فلما اجتمعنا | فرقوا بيننا بالزور والبهتان
ما أرى فعلهم بنا اليوم إلا | مثل فعل الشيطان بالإنسان
لهف نفسى علام تلهف | منك إن نايت يا أبا مروان !!

ومنه :

أبغى رضاك بطاعة مقرونة عندى بطاعة ربى القدوس
فإذا زللت وجدت حلمك ضيقا عن زلتى أبدا لفرط نحوسى
ولقد رجوت بأن أعيش كريمة فى ظل طود دائم التعريس
ببقاء عزك - لا عدمت بقاءه - فإذا أنا أصلى بحر شموس
ياسيدى ما هكذا احكم النهى حق الرئيس الرفق بالمرءوس
فإذا رضيت لى الهوان رضيته وجعلت ثوب الذل خير لبوس

سلمى البغدادية الشاعرة

قال ابن النجار: ذكرها القاضى أبو العلاء محمد بن محمود النيسابورى فى «كتاب سر السرور» الذى جمعه فى شعراء عصره، وأورد لها هذه الأبيات :

عيون مها الصريم فداء عينى وأجياد الظباء فداء جيدى
أزين بالعقود وإن نحرى لأزين للعقود من العقود
ولا أشكو من الأرداف ثقلا ويشكون من ثقل النهود

قال ابن الحصين : وبلغت هذه الأبيات المقتفى فقال :

اسألوا عنها : هل تصدق صفتها قولها؟.

فقالوا : مايكون أجمل منها! فقال : اسألوا عن عفافها...

فقيل : هى أعف الناس !!.

فأرسل إليها مالا جزيلا وقال: تستعين به على صيانة جمالها، ورونق أدبها.

شمسة الموصلية

قال أبو حيان : كانت شيخة عالمة.

ومن شعرها :

وتميس بـــين معصفـــر ومزعفـــر
ومكفـــر ومعنـــبر ومـــصنـــدل

كبـهـــارة فى روضـــة أو وردة
فى جـونـــة أو صـــورة فى هيكـل

هيفاء إن قال الزمان لها انهـضى
قالت روادفهـــا : اقعـدى وتمهـــلى

شهدة بنت أحمد بن الفرج بن عمر الأبرى الدينورية

شهدة بنت أبى نصر أحمد بن أبى الفرج بن عمر الدينورى ثم البغدادى الأبرى الكاتبة فخر النساء ومنشدة العراق كانت ذات دين وورع وعبادة، سمعت الكثير، وعمرت، وكتبت الخط المنسوب على طريقة الكاتبة بنت الأقرع، وما كان من زمانها من يكتب مثلها، وكان لها الإسناد العالى، ألحقت الأصاغر بالأكابر.

سمعت من أبى الخطاب نصر بن البطروانى والحسين بن أحمد بن طلحة النعالى، وطراز الزينبى، وفخر الإسلام أبى بكر الشاشى، وغيرهم،

واشتهر ذكرها، وبعد صيتها، واختصت بالخليفة المقتفى، وقاربت المائة، وماتت سنة أربع وسبعين وخمسمائة.

قال الصلاح الصفدى :

رأيت بخط، بعض الأفاضل قال : نقلت من مجموع بخط الصاحب كمال الدين بن العديم « لشهدة بنت الأبرى» الكاتبة :

مل بى إلى مجرى النسيم العانى واجعـل مقيلـك دوحتـى نعمـان

وإذا العيون شـنن غارة سحرهـا ورمين عن حصـن المنـون جوان

فاحفظ فؤادك أن يصـاب بنظـرة عرضـا فآفـة قلبـك العينـان

من كل جائلـة الوشـاح يهزهـا مـرح الشبـاب اللـدن هـز البان

بيض غنين بحسنهن عن الحـلى ولذاك أسمـاء النسـاء غـوان

سكنوا العقيق وحركوا بغرامهم قلبـا يكـاد يطـير بالخفقـان

حملتـه ثقـل الهـوى فلم يطـق فأطعنـه فى طرحـه وعصـانى

سلبتـه يـوم الدوحتـين طليعـة نزلت بهـذا الحـى من غطفـان

حتام تقرط فى الصبابة أضلـعى وتلـح من عبراتـها أجفـانى ؟!

وإذا تبسم ثغـر بـرق منجـد أغرى دموع العـين بالهمـلان

ياحادى النكران هل لك روحـة بالعمـر عند مسـارح الرعيـان؟

فتذكر الناسـين عهـدى بالحمى فجديـده أبـلاه مـن أبـلانـى

وذكرت ميدان الودا ع فأرسلـت عينـى إلى أمـد البكـاء عنانـى

لم أخـش من ظمـأ الحوادث إذ عرت ومعى نظير الجـدول الريـان

إن مسـنى سعـب قرانى غربـه أو قلنـى ظمـأ فـرى فسـقانـى

وإذا السـيوف تحدثـت لجفونـها فحديثـها منه بأحمـر قانـى

قال الصفدى :

أنا أستبعد أن يكون هذا الشعر «لشهدة».

قال : على أننى رأيته فى مجموع قديم بخط فاضل وقد نسبه إليها.

صفية البغدادية الشاعرة

صفية البغدادية الشاعرة: قال ابن النجار : ذكرها أبو العلاء محمد بن محمود النيسابورى قاضى غزنة فى كتابه: «سر السرور» الذى جمعه فى أخبار شعراء عصره.

وأورد لها :

أنا فتنة الدنيا التى فتنت حجا   كل القلوب فكلها فى مغرم

أثرى محياى البديع جماله   وتظن ياهذا بانك تسلم

صفية بنت عبد الرحمن

صفية بنت عبد الرحمن بن محمد بن على بن يعيش .

قال ابن النجار :

كانت واعظة أديبة فاضلة :

أنشدتنى لنفسها مجيزة لهذا البيت :

إذا ما خلت أرض من أحبتى   فلا سال واديها ولا اخضر عودها

فقالت :

ولا نطقت فى الرَّبع بعدك جارة   يلذ بسمعى شدوها ونشيدها

وإنى لأبكى الربع مذ بان أهله   وأنشد ليلات قضت من يعيدها؟

ماتت يوم الجمعة لأربع خلون من ذى الحجة سنة عشرين وستمائة.

طيف البغدادية الشاعرة

طيف البغدادية الشاعرة : كذا ذكرها ابن النجار وقال : قرأت فى كتاب صاعد بن فارس بن السلطان اللبان. بخطه قال : لبعض نساء بغداد واسمها «طيف» :

وظبية من بنـات الروم قلت لهـا   لما التقينا .. وقلبى عندهـا علـق

هل فى زيارة صب عاشـق دنـف   أجر؟ فقالت : ودمع العين يستبق

لولا الوشاة وأن الخـوف يقلقنى   لهـان ذاك، وغـل الأمـر يتفـق

وقال : ولها أيضا :

فتكت بـنا يوم القـداح   بيضاء تهـزآ بالمـلاح

تبـدى الظـلام بفرعهـا   وبوجهها ضـوء الصباح

ويجـد فـى قـتل السليـم   الجـد فى ظـل المـزاح

وقال : ولها أيضاً :

أسفت على ما نلت منهـا   بعـد ما جـدت حبـالى

وتقـول : وا حـسـراه آه   على النوى وعلى الوصال

عائشة بنت الخليفة المعتصم

عائشة بنت الخليفة المعتصم محمد بن هارون الرشيد العباسى قال ابن النجار : كانت أديبة شاعرة .

كتب إليها عيسى بن القاسم بن محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس أن توجه إليه بجاريتها وكان يهواها:

كتبـت إليـك ولـم أحتشـم   وشـوق المحبـين لا ينكتـم

صبوحى فى السبت من عادتى على رغم أنف الذى قد زعم
وعيشى يتم بمن تعلمين ولا تشك شكوى امرىء قد ظلم
ولا تحبسيها لوقت المبيت كما يفعل الرجل المعتنم

عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبية

قال أبو حيان فى «المقتبس» : لم يكن فى زماننا فى حرائر الأندلس من يعدلها علما وفهما وأدبا وشعرا وفصاحة، تمدح ملوك الأندلس وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة !!

وكانت حسنة الخط، تكتب المصاحف، ماتت عذراء – لم تنكح– سنة أربعمائة.

وقال فى «المغرب» من عجائب زمانها وغرائب أوانها، وأبو عبد الله الطيب عمها، ولو قيل : إنها أشعر منه لجاز.

دخلت على المظفر بن منصور أبى عامر وبين يديه ولد له، فارتجلت :

أراك الله فيه ما تريد ولا برحت معاليه تزيد
فقد دلت مخايله على ما تومله وطالعه السعيد
تشوقت الجياد له وهز الحسام هوى وأشرقت البنود
فسوف تراه بدرا فى سماء من العليا كواكبه الجنود
وكيف يخيب شبل قد نمته إلى العليا ضراغمة أسود
فأنتم آل عامر خير آل زكا الأبناء منكم والجدود
وليدكم له رأى كشيخ وشيخكم لدى حرب وليد

وخطبها بعض الشعراء ممن لم ترضه فكتبت إليه :

أنـا لبـوة لكـننى لا أرتـضـى   برقى مناخا طول دهرى من أحد

ولو أننى أختـار ذلـك لم أجـب   كلبا وكم غلقت سمعى عن أسـد

عائشة الإسكندرانية

عائشة الإسكندرانية المعروفة بزهرة الأدب !!

قال ابن سعيد : كان مجلسها يعرف « بالروض».

قالت تخاطب من بعث إليها بشعر ذكر فيه أن قلبه من الحب يتقلب فى جمر الغضا.

إذا كان قلبـك ذا صاحـب   فـلا تبعـثن بأســراره

فإنــى لأشفـق مــن نــاره   على الروض أو بعض أزهاره

عابدة بنت محمد الجهنية

عابدة بنت محمد الجهنية: امرأة عمر أبى محمد الحسن بن محمد المهلبى الوزير.

قال ابن النجار : كانت أديبة شاعرة فصيحة فاضلة، روى عنها القاضى أبو على المحسن ابن على بن محمد التنوخى.

قال التنوخى : حضرت ببغداد فى مجلس الملك عضد الدولة فى يوم عيد الفطر سنة سبع وستين وثلاثمائة والشعراء ينشدونه التهانى، فحضرت عابدة الجهنية امرأة عمر بن محمد المهلبى فأنشدت قصيدة لم أظفر منها بشىء !!

قال التنوخى : أنشدتنى عابدة لنفسها، وهذه امرأة فاضلة كانت تهجو أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخى :

شاورنى الكرخى لما دنا ... النيروز والسن له ضاحكة

فقال : ما تهدى لسلاننا ... من خير ما الكف له مالكه ؟

فقلت له : كل الهدايا سوى ... مشورتى ضائعة هالكة

أهد له نفسك حتى إذا ... أشعل نارا كنت (دوبارکة)

قال التنوخى :

«الدو باركة» كلمة أعجمية وهى اسم للعب على قدر الصبيان يحلها أهل بغداد فى سطوحهم ليلة النيروز وقد كانت تنشدنى أفضل من هذا، وكتبت ذلك عنها فى موضع من كتبى.

عاتكة بنت محمد بن القاسم

المخزومية

عاتكة بنت محمد بن القاسم بن محمد بن يحيى بن حابس بن عبدالله بن يحيى بن طقيس بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله ابن عمرو بن مخزوم المخزورمية أم أبى الحسن محمد بن عبيدالله السلامى الشاعر.

قال ابن النجار، كانت شاعرة مدحت عضد الدولة ببغداد فى يوم عيد الفطر سنة سبع وستين وثلاثمائة وحضر الشعراء، فأنشدوا التهانى، وحضرت أم أبى الحسن البغدادى السلامى، فأنشدته قصيدة طويلة بعبارة فصيحة، وإنشاد صيت مستقيم، ولسان سليم من اللحن لم أصل إلى جميعها، تقول فيها عند ذكرها لحسان :

شتان بين مدبر ومدبر ... صيد الليوث حصائد الغزلان

روعته من بعد دهر راعنى ... وسقيته ما كان قبل سقانى

فلقد سهرت لياليا ولياليا ... حتى رأيتك يا هلال زمانى !!

العباسة بنت الخليفة المهدى

أخت هارون الرشيد

أمها : أم ولد ، واسمها «رضيم» قال ابن النجار: كانت العباسة بديعة الجمال، فاضلة جليلة.

قال الجاحظ: كتبت إلى وكيل لها يقال لها: سباع، وقد بلغها أنه يحتاج إلى مالها، ويبنى به المساجد والحياض :

ألا أيهـذا المعمـل العيـس بلغـن   سباعا وقل إن ضم إياكما السفر

أتظلمنى مالى فإن جاء سائـل   رفقـت له أن حطـه نحوك الفقـر

كشافيـة المرضى بفائـدة الزنـا   تؤمله أجـرا وليـس لـه أجـــر

ماتت سنة ١٨٢ بالرقة.

علية بنت الخليفة المهدى

قال ابن النجار : أمها «مكنونة» اشتريت للمهدى بمائة ألف درهم، وكانت علية من أحسن النساء، وأظرفهن وأعقلهن ذات صيانة وأدب بارع، تقول الشعر الجيد وتسوغ فيه الألحان الحسنة، ولها ديوان شعر معروف بين الأدباء.

وكان أخوها الرشيد يبالغ فى إكرامها واحترامها، وكانت من أعف الناس، إذا طهرت لزمت المحراب، وإذا لم تكن طاهرا غنت.

وتزوجت موسى بن عيسى بن موسى بن محمد العباسى.

ولدت سنة ستين ومائة، وتوفيت سنة عشر ومائتين.

ومن شعرها :

أهلى سلوا الله العافية ... فقد دهتنى بعدكم داهية
مالى أرى الأبصار بى جافية ... لم تلتفت منى إلى ناحية ؟!!
ما ينظر الناس إلى المبتلى ... وإنما الناس مع العافية !!

ومنه :

ألبس الماء مُداما ... واسقنى حتى أناما
وأفض جودك فى النا ... س تكن فيهم إماما
لعن الله أخا البخـ ... ـل وإن صلى وصاما

ومنه :

كتمت اسم الحبيب عن العباد ... ورددت الصبابة فى فؤادى
فوا شوقى إلى ناد خلى ... لعلى باسم من أهوى أنادى

ومنه :

إنى كثرت عليه فى زيارته ... فمل والشىء مملول إذا كثرا
ورابنى منه أنى لا أزال أرى ... فى طرفه قصرا عنى إذا نظرا

ومنه :

أما والله لو جوزيت ... بالإحسان إحسانا
لما صد الذى أهوى ... ولا ملا ولا خانا
رأيت الناس من ألقى ... عليهم نفسه هانا
فزر غبا تزدد حبا ... وإن حملت أشجانا

وقال الحصرى فى كتاب «النورين» :

كانت عليه تعدل بكثير من أفاضل الرجال فى فضائل العقل، وحسن المقال، ولها شعر رائق، وغناء رائع وهى القائلة :

وضـــع الحـــب علـــى الجـــور فلو أنصف المعشوق فيه لسمـج

ليس يستحسن فى وصف الهوى

وقليـل الحـب صرفـا خالصـا لـك خـير من كثـير قـد مُـزج

قال : وخرج الرشيد إلى الرى ومعه عليه فلما قارب المرج عملت شعرا وغنته :

ومغتـرب بالمرج يبكـى لشـأنـه وقد غاب عنه المسعدون على الحب

إذا ما أتاه الركب من نحو أرضـه تنشـق يستشـفى برائحـة الركـب

فلما سمع الصوت رق عليها وعلم أنها اشتاقت إلى بغداد فأمر بردها.

وقال إسحاق الموصلى : كانت علية إذا طهرت لزمت المحراب وقرأت القرآن!!.

وإذا لم تصل غنت، وكانت تكاتب الأشعار خادمين: يقال لأحدهما :«طل»، وتكنى عنه «بظل»، والآخر : «رشا» وتكنى عنه «بزينب» على أنهما جاريتان، فحجب طل عندما أحس الرشيد بما بينهما فقالت :

أيا سروة البسـتان طـال تشـوقى

فهـل لى إلى (ظل) إليـك سبـيل ؟

متى يلتقى من ليس يرجى خروجـه

وليس لمن تهـوى إلـيه دخـول ؟!

وكان الرشيد قد حلف عليها ألا تكلم «طلا» ولا تذكر اسمه فدخل عليها

غفلة وهى تقرأ فى المصحف :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)﴾ [البقرة]

فما نهى عنه أمير المؤمنين، فضحك ، وقبل رأسها وقال : ولا كل هذا !!... وقد وهبت لك «طلا».

ومن قولها فى «رشا» :

القلب مشتاق إلى «ريب» يارب ما هذا من العيب !!

قد تيمت قلبى فلم أستطيع إلا البكا يا عالم الغيب

خبات فى شعرى ذكر الذى أحببته كالخبا فى الجيب

لأن قوها فى الشطر الأول «ريب» تصحيف «رشا».

قسمونة بنت إسماعيل بن بغدالة اليهودى

قال فى «المغرب» من أهل المائة السادسة .

كان أبوها قد اعتنى بتأديبها، وكان أبوها ربما صنع القسيم من الموشحة فاتمها بقسيم آخر.

وقال لها أبوها يوما أجيزى :

لى صاحبة ذات بهجة قد قابلت نفعا بضر واستحلت جرمها

ففكرت مدة غير كثيرة وقالت :

كالشمس منها البدر تلبس نوره أبدا ويكسف بعد ذلك جرمها

فقام كالمختبل، وضمها إليه، وجعل يقبل رأسها ويقول :

أنت والعشر كلمات .... أشعر منى !!.

ونظرت فى المرآة، فنظرت جمالها، وقد بلغت أوان التزويج، ولم تتزوج فقالت :

أرى روضة قد حان منهـا قطافها   ولسـت أرى جـان يمـد لهـا يـدا

فوا أسفى يمضى الشباب مضيعا   ويبقى الذى ما إن أسميه مفـردا

فسمعها أبوها فنظر فى تزوجها !!.

وقالت فى ظبية عندها :

يا ظبـية ترعـى بروضـى دائمـا   إنى حكيتك فى التوحـش والحـور

أمسى كلاما مفردا عن صاحـب   فعتـابنا أبـدا علـى حكـم القـدر!

لبابة بنت على المهدى

لبابة بنت على المهدى : قال ابن النجار : كانت جليلة فاضلة تزوجها الأمين بن الرشيد فقتل قبل أن يدخل بها، فقالت ترثيه :

أبكيـك لا للنعيـم والأنـس   بل للمعالى والرمح والفرس

أبكى على فارس فجعت به   أرملنى قبـل ليلـة العـرس

مراد شاعرة على بن هشام

مراد شاعرة على بن هشام .

لما قتل المأمون قالت ترثيه :

هـل مسعـد لبكـاى   بعـبـرة أو دمـاء

وذاك منـى قليـل   لسـادتـى النجبـاء

مريم بنت أبى يعقوب

القبضولى الشلبى

مريم بنت أبى يعقوب القبضولى الشلبى .

ذكرها ابن دحية فى كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب وقال : أديبة شاعرة جزلة مشهورة، تعلم النساء الأدب، وتحتشم لدينها وفضلها. وعمرت عمرا طويلا، سكنت « أشبيلية» وشهرت بها بعد الأربعمائة.

ذكرها الحميدى وقال :

أنشدنى لها أصبغ بن سيد الإشبيلى.

وأخبر أن المهتدى بعث إليها بدنانير وكتب إليها :

مالى بشـكر الـذى أوليـت من قبل

لو أننى حزت نطـق الإنس والخبـل

يافـذة الظـرف فى هـذا الزمـان ويـا

وحيدة العصر فى الإخلاص والعمل

أشبهـت مريـم العـذراء فـى ورع

وفقت خنسـاء فـى الأشعـار والمثل

فكتبت إليه :

من ذا يجاريـك فى قـول وفى عمـل

وقد بـدرت إلى فضـل ولـم تـسـل

مالى بشكر الذى نظمت فى عنقى

من اللآلى، ومـا أوليـت مـن قبـل

حليتني بحلي أصبحت زاهية

بها على كل أنثى من حلى عطل

لله أخلاقك الغر التي سقيت

ماء الفرات فرقت رقة الغزل

أشبهت في الشعر من غارت بدائعه

وأنجدت وغدت في أحسن المثل

من كان والده العضب المهند لم

يلد من النسل غير البيض والأسل

وذكرها صاحب المغرب، وقال : من أهل المائة الخامسة.

ذكرها الحميدي في الجذوة، والحجاري : في المسهب، ومن شعرها وقد كبرت :

وما يرتجي من بنت سبعين حجة

وسبع كنسج العنكبوت المهلهل ؟

تدب دبيب الطفل تسعى إلى العصى

وتمشي بها مشي الأسد المكبل !!

مهجة بنت التياني القرطبية

مهجة بنت التياني القرطبية :

قال في المغرب : من أهل المائة الخامسة، كان أبوها يبيع التين، وكانت من أجمل نساء زمانها.

وعلقت بها ولادة، ومن شعرها فى ولادة :

ولادة قـــد صـــرت ولادة　　من رغير بعل فضح الكاتم

حكت لنـا مريـم لكتمـا　　نخلـة هـدى ... قائـم

فلو سمع ابن الرومى هذا لأقر لها بالتقدم :

ومن شعرها :

لئن جلت عن ثغرهـا كل حاتئم　　فمازال تحمى عن مطالعها الثغر

فذاك تحميـه القواضـب والقنـا　　وهذا حماه من لواحظها السحر

وأهدى لها بعض من كان يهيم بها خوخا فكتبت إليه :

يامتحفـا بالخـوخ أحبابـه　　أهلا به من مثلج فى الصدور

حكـى شدى الغيـد تفليكـه　　لكنـه أخـزى (........)

نجيبة القحطانية

نجيبة القحطانية : قال ابن النجار : كانت شاعرة حسنة الشعر فصيحة.

ومن شعرها :

إذا أصبح المرء فى عيشة　　من المال والأمن فى سربه

أتى عرض جد فى موتـه　　فصاح الفنا بـه : سر به

نضار بنت الأمير أثير الدين بن حيان

محمد بن يوسف الأندلسى

نضار بنت الأمير أثير الدين بن حيان محمد بن يوسف الأندلسى. كانت كاتبة قارئة، تنظم الشعر، وخرجت لنفسها جزءاً حدثيا.

وكان والدها يثنى عليها كثيرا ويقول:

ليت أخاها «حيان» كان مثلها!!

ماتت سنة ثلاثين وسبعمائة، ووجد عليها والدها وجدا عظيما.

وقال الصلاح الصفدى يرثيها :

بكينـا باللجـين على نُضـار   فسيل الدمع فى الخدين جارى

فيالله جاريـة تولـت   فبكيهـا بادمعنـا الجـوارى

نزهون بنت القلاعى الغرناطية

زهون بنت القلاعى الغرناطية - قال فى المغرب : من أهل المائة الخامسة ذكرها الحجارى فى المسهب، ووصفها: بخفة الروح، وانطباع النادرة والحلاوة، وحفظ الشعر، والمعرفة بتصريف الأمثال مع جمال فائق، وحسن رائق.

وكان الوزير أبو بكر بن سعيد أولع الناس بمحاضرتها ومذاكرتها، ومراسلتها، فكتب إليها مرة هذين البيتين :

يا مـن لـه ألـف خـل   من عاشـق وصديـق

أراك خليـت للنـاس   منـزلا فـى الطريـق

فأجابته :

حللت أبا بكر محلا منعته

سواك وهل غير الحبيب له صدرى؟

وإن كان لى كم من حبيب فإنما

يقدم أهل الحق فضل أبى بكر

ولما قال فيها الأعمى المخزومى :

على وجه نزهون من الحسن مسحة

وتحت الثياب العار أو كان باديا

قواصد نزهون توارك غيرها

ومن قصد البحر استقل السواقيا

قالت :

إن كان ما قلت حقا من نقض عهد كريم

فصار ذكرى ذميما يعزى إلىّ كل لوم

وصرت أقبح شىء فى صورة المخزوم

وقال لها بعض الثقلاء : على من أكل معك خمسمائة سوط فقالت :

وذى شقوة لما رآنى رأى له

تمنيه أن يصلى معى جاحم الضرب

فقلت : كلها هنيئا وإنما

خلقت إلى لمس المطارف والشرب

ونظرت إلى رجل عليه غضارة صفراء وهو أشقر أزرق كبير البطن، فقالت يا أستاذ، أصبحت اليوم مثل بقرة بنى إسرائيل، ولكن لا تسر الناظرين !!

ودخل الكندى الشاعر على المخزومى وهى تقرأ عليه، فقالت :

أجز يا أستاذ :

لـو كنـت تبصـــر مـن تكلمـــه

فانعم وأطال الفكر، فما وجد شيئا !!

فقالت :

... ... لغدوت أخرس من خلاخله

البـدر يطلـع فى أزرتـه والغصن يمرح فى غلائله

ولادة بنت المستكفى

ولادة بنت المستكفى بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبدالله بن الناصر بن عبدالرحمن بن محمد المروانى.

كانت واحدة زمانها، المشار إليها فى أوانها، حسنة المحاضرة، مشكورة المذاكرة.

كتبت بالذهب على طرازها الأيمن :

أنا -والله- أصلح للمعـالى وأمشـى مشيتـى وأتيـه تيها

وكتبت على الطراز الأيسر:

أمكن عاشقى من صحن خدى وأعطى قبلـة من يشتهـيها

وكانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف، وفيها خلع ابن زيدون عذاره، وله فيها القصائد والمقطعات.

وكانت له جارية سوداء بديعة القوام.. ظهر لولادة من ابن زيدون ميل إليها فكتبت إليه :

لو كنت تنصف فى الهوى ما بيننا

لـم تهـو جاريتـى ولـم تتخـير

وتركـت غصـنا مثمـرا بجمالـه

وجنحـت للغصـن الـذى لم يثمـر

ولقـد عملـت بأننـى بـدر السمـا

لكن ولعت - لشقوتى - بالمشـترى

وكانت ولادة تلقب ابن زيدون بالمسدس وفيه تقول :

ولقبـت المسـدس وهـو نعـت   تفارقـك الحيـاة ولا يفـارق

فلـوطـى، ومـأبـون، وزان   وديـوث، وقـواد، وسـارق

وقالت فيه أيضا :

إن ابن زيـدون لـه نقمـة   تعشـق (.....) السـراويـل

لو أبصـرت (.....) على نخلـة   صـارت من الطـير الأبابيـل

وقالت تهجو الأصبحى :

يا أصبحى أهـنا فحكـم نعمة   جاءتك من ذى العرش رب المنن

قد نلت (...) ابنـك ما لم ينـل   (...) بـوران أبوهـا الحسـن

وقالت فى المغرب :

مرت بالوزير أبى عامر بن عبدوس وأمام داره بركة من كثرة الأمطار فقالت له :

أنـت الخصيـب وهـذه مصـر   فتـدفقـا فكلاكمـا بحـر

قالت : وكانت «ولادة» فى بنى أمية بالمغرب كـ «عُلية» فى بنى أمية بالمشرق. إلا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائق !!.

وذكرها ابن بشكوال فى الصلة فقال :

كانت أديبة شاعرة، جزلة القول، حسنة الشعر، وكانت تخالط الشعراء، وتساجل الأدباء، وتعرف البرعاء، وعمرت طويلا، ولم تتزوج قط.

ماتت لليلتين خلتا من صفر سنة ثمانين، وقبل سنة أربع وثمانين وأربعمائة.

وكانت قد كتبت فى طراز جعلته فى إحدى عاتقيها :

أنـا والله أصلـح للمعالـى   وأمشـى مشيتـى وأتيـه تيـها

وكتبت فى الطراز الآخر:

أمكن عاشقى من صحن خدى   وأمنـح قبلـتى من يشتهيـها

وهى التى أولع بحبها أبو الوليد بن زيدون فكتبت إليه بعد طول تمنع :

ترقـب إذا جـن الظـلام زيارتـى

فإنـى رأيـت الليـل أكتـم للسـر

وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح

وبالبدر لـم يطلـع، وبالنجـم لم يسـر

ووفت له بما وعدت، ولما أرادت الانصراف ودعها بهذه الأبيات :

ودع الصبر محـب ودعـك   ذائـع من سـره ما استودعـك

يقرع السن على أن لم يكـن   زاد فى تلك الخطا إذا شيعـك

يا أخـا البـدر سنـاء وسنـا   حفـظ اللـه زمانـا أطلعـك

إن يطل بعـدك ليـلى .. فلكـم   بت أشكـو قصـر الليـل معك

وكتبت إليه :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق سبيل، فيشكو كل صب بما لقى
وقد كنت أوقات التزاور فى الشتا أبيت على جمر من الشوق محرق
فكيف وقد أمسيت فى حال قطعة لقد عجل المقدار ما كنت أتقى
تمر الليالى لا أرى البين ينقضى ولا الصبر من رق التشوق معتقى
سقى الله أرضا قد عدت لك منزلا بكل سكوب هاطل الوبل معدق

الشاعرة الغسانية البجانية

كذا ذكرها فى المغرب، وقال : من أهل المائة الرابعة.

ومن شعرها قولها من أبيات :

عهدتهم والعيش فى ظل وصلهم
أنيق، وروض الوصل أخضر فينان
ليالى سعد لا يخاف على الهوى
عتاب ولا يخشى على الوصل هجران

عمة السلامى الشاعرة

وهى ابنة محمد بن محمد بن يحيى

كذا ذكره ابن النجار، ثم روى بسنده عن الحسن بن على الجوهرى قال :

أنشدنا السلامى لعمته قال : وكنت ألعب فى أيام الحداثة مع بعض جوارنا، فعضت خدى فازرق موضع العضة، فقالت عمتى فى ذلك :

ماذا صنعت بنا يا عاشق عبث

في صحن خد يبيح الشعر وهاج

زرعت إذ عصيته غير مشفقة

روض البنفسج في روض من الزاج

المخزومية ابنة خال السلامي

المخزومية ابنة خال السلامي الشاعر- كذا في تاريخ ابن النجار.

ثم روى عن أبي علي التنوخي قال :

أخبرني محمد بن عبيد السلامي أنه كانت له ابنة خال بغدادية مخزومية تقول الشعر.

وقال : أنشدتني لنفسها من قصيدة لها إلى سيف الدولة، وأنها توفيت سنة سبع وستين وثلثمائة :

لولا جذاري من آلام على عتاب يوم منه وأعتابه

لسرت والليل هوبجي وذباب السيف في نحره إلى بابه

حكايات ونوادر

١- امرأة وزوجها :

وقابلت الكمال الأوفر حكى لى شرف الدين محمد عبد المحسن الأرمينى قال :

حكى لى بن عدول البهنسا أن امرأة حضرت مع زوجها للطلاق فرأينا الزوج لايريد ذلك، فكلمناها فلم تقبل.

وأنشدت :

لما غدا الأليد عهدى ناقضا ... وأراد ثوب الوصل أن يتمزقا

فارقته وخلعت من يده يدى ... وتلوت لى وله (وإن يتفرقا)

٢- المعتمد والرميكية :

وقال صاحب المغرب :

قال الحجازى فى المسهب : ركب المعتمد بن عباد فى النهر ومعه ابن عمار وزيره، وقد زردت الريح النهر.

فقال ابن عباد لابن عمار : أجز :

صنع الريح من الماء زرد

فأطال ابن عمار الفكرة، وأفحم، ولم يأت بشىء !!

فقالت امرأة من الغاسلات : أى درع لقتال لو جمد

فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به مع عجز ابن عمار، ونظر إليها فرأى صورة حسنة، فأعجبته ، فسألها :

أذات زوج ؟.

قالت لا.

فتزوجها، وهى «الرميكية».

٣- الشافعى وجارية له :

فى الطبقات الكبرى للسبكى من طريق الربيع بن سليمان قال :

سمعت الشافعى يقول :

اشتريت جارية مرة، وكنت أحبها فقلت لها:

أو ما شديد أن تحب ولا يحبك من تحبه ؟!

فقالت لى الجارية :

ويصد عنك بوجهه وتلح أنت فلا تغبه

٤- إبراهيم بن محمد إدريس وزوجته :

وأخرج ابن أبى حاتم فى «مناقب الشافعى» و«ابن عساكر» فى «تاريخه» من طريقه قال ابن سعيد بن محمد البيروتى قاضى بيروت : حدثنا أحمد بن محمد المكى قال :

سمعت إبراهيم بن محمد بن إدريس الشافعى يقول :

كانت لى امرأة وكنت أحبها فكنت إذا رأيتها قلت :

أليس شديدا أن تحب ولا يحبك من تحبه ؟

فتقول هى :

ويصد عنك بوجهه وتلح أنت فلا تغبه

حكايات عن الجوارى

سقونى وقالوا لا تغن (١)

جلس عبد الله بن جعفر يوما عند عبد الله بن الملك بن مروان، فحدثه عن إقلال إبن أبى عتيق وكثرة عياله، فأمره عبد الملك أن يبعث به إليه، فأتاه ابن جعفر فأعلمه بما دار بينه وبين عبد الملك وبعثه إليه.

فدخل ابن عتيق على عبد الملك، فوجده جالسا بين جاريتين قائمتين عليه تميسان كغصنى بان، بيد كل جارية مروحة، تروح بها عليه، مكتوب بالذهب فى المروحة الواحدة :

أننى أجلب الرياح	وبى يلعب الخجل
وحجاب إذا الحبيب	ثنى الرأس للقبل
وغياث إذا النديم	تغنى أو ارتجل

وفى المروحة الأخرى :

أنا فى الكف لطيفه	مسكن قصر الخليفة
أنا لا أصلح إلا	لظريف أو ظريفة
أو وصيف حسن القد	شبيه بالوصيفه

قال ابن أبى عتيق، فلما نظرت إلى الجاريتين هونتا الدنيا على، وأنستانى سوء حالى، ثم قلت : إن كانتا من الإنس فما نساؤنا إلا من البهائم، فلما كررت بصرى فيهما تذكرت الجنة، فإذا تذكرت امرأتى - وكنت لها محبا- تذكرت النار، وبدأ عبد الملك يتوجع لى بما حكى له ابن جعفر عنى، ويخبرنى لما لى عنده من جميل الرأى، فاكذبت له كل ما حكاه له ابن جعفر عنى، ووصفت له

---

(١) نساء خلف أبواب القصور- محمد رضوان- مركز الراية للنشر والاعلام.

نفسى بغاية الملا والجدة، فامتلاء عبد الملك سرورا بما ذكرت له وغما بتكذيب ابن جعفر.

فلما عاد إليه ابن جعفر عاتبه عبد الملك على ما حكاه عنى، وأخبره بما حليت له نفسى، فقال : كذب، والله يا أمير المؤمنين، وإنه أحوج أهل الحجاز إلى قليل فضلك، فضلا عن كثيره.

ثم خرج عبد الله فلقينى، فقال : ما حملك على أن كذبتنى عند أمير المؤمنين؟ قلت : أفكنت ترانى وقد أجلسنى بين شمس وقمر، ثم أتفاقر عنده ! لا والله، ما رأيت ذلك لنفسى، وإن رأيته لى.

فلما أعلم بذلك عبد الله بن جعفر بن عبد الملك بن مروان قال : فالجاريتان له. قال ابن أبى عتيق : فلما صارتا إلى زرت عبد الله بن جعفر فوجدته قد امتلأ فرحا وهو يشرب، وبين يديه عس فيه عسل ممزوج بمسك وكافور، فقال : مهيم؟ قلت : قد والله قبضت الجاريتين، وقال : فاشرب، فتناولت العس، فجرعت منه جرعة، فقال لى زد، فأبيت عليه، فقال لجارية له عنده تغنيه : إن هذا قد حاز اليوم غزالتين من عند أمير المؤمنين فخذى فى نعتهما، فحركت الجارية العود، ثم غنت :

عهدى بها فى الحى قد جردت   صفراء مثل المهرة الضامر

قد حجم الثدى على نحرها   فى مشرق ذى بهجة ناضر

لو أسندت ميتا إلى صدرها   قام ولم ينقل إلى قابر

حتى يقول الناس مما رأوا : يا عجبا للميت الناشر

فلما سمعت الأبيات طربت، ثم تناولت العس، فشربت عللا بعد نهل، ورفعت عقيرتى أغنى :

سقونى وقالوا: لا تغن ولو سقوا   جبال حنين ما سقونى لغنت

جميلة (١)

جلست جميلة يوما للوفادة عليها، وجعلت على رءوس جواريها شعورا مسدلة كالعناقيد إلى أعجازهن، وألبستهن أنواع الثياب المصبغة، ووضعت فوق الشعور التيجان، وزينتهن بأنواع الحلى.

ووجهت إلى عبد الله بن جعفر تستزيره، وقالت لكاتب أملت عليه :"بأبى أنت وأمى ! قدرك يجل عن رسالتى، وكرمك يحتمل زلتى، وذنبى لا تقال عثرته، ولا تغفر حوبته، فإن صفحت فالصفح لكم معشر أهل البيت يؤثر، والخير والفضل كله فيكم مدخر، ونحن العبيد وأنتم الموالى. فطوبى لمن كان لكم مجاورا، ويعزكم قاهرا، وبضيائكم مبصرا! والويل لمن جهل قدر كم، ولم يعرف ما أوجبه الله على هذا الخلق لكم ! فصغيركم كبير، بل لا صغير فيكم، وكبيركم جليل، بل الجلالة التى وهبها الله عز وجل للخلق هى لكم، ومقصورة عليكم، وبالكتاب نسألك، وبحق الرسول ندعوك - إن كنت نشيطا - لمجلس هيأته لك، ولا يحسن إلا بك، ولا يتم إلا معك، ولا يصلح أن ينقل عن موضوعه، ولا يسلك به عن طريقه".

فلما قرأ عبد الله الكتاب قال : إنا لنعرف تعظيمها لنا، وإكرامها لصغيرنا وكبيرنا، وقد علمت أنها آلت إليه ألا تغنى أحدا إلا فى منزلها.

وقال للرسول : والله قد كنت على الركوب إلى موضع كذا، وكان فى عزمى المرور بها، فأما إذ وافق مرادها فإنى جاعل بعد رجوعى طريقى عليها.

فلما صار إلى بابها أدخل بعض من كان معه إليها وصرف بعضهم . فنظر إلى ذلك الحسن البارع والهيئة الباذة، فأعجبه ووقع من نفسه، فقال : يا

(١) مولاة بنى سليم كانت معلمة الغناء أخذ عنها معبد وحبابة وابن عائشة وغيرها ، توفيت سنة ١٢٥هـ.

جميلة، لقد أتيت خيرا كثيرا! ما أحسن ما صنعت ! فقالت : سيدى، إن الجميل للجميل يصلح، ولك هيأت هذا المجلس.

فجلس عبد الله بن جعفر، وقامت على رأسه، وقامت الجوارى صفين، فأقسم عليها فجلست غير بعيد. ثم قالت : ياسيدى، ألا أغنيك ، فقال : بلى ! فغنت :

بنى شيبة الحمد الذى كان وجهه يضـىء ظلام الليـل كالقمـر البدر

كهولهـم خـير الكهـول ونسلهـم كنسل الملوك لا يبور ولا يجـرى

أبوكم قصـى كـان يدعى مجمعـا به جمـع اللـه القبائـل من فهـر

فقال عبد الله : أحسنت يا جميلة ! بالله أعيديه على، فأعادت، فجاء الصوت أحسن من الارتجال. ثم دعت لكل جارية بعود، وأمرتهن بالجلوس على كراسى صغار قد أعدتها لهن، فضربن، وغنت عليهم هذا الصوت وغنى حواريها على غنائها.

فلما ضربن جميعا قال عبد الله : ما ظننت أن مثل هذا يكون ! وإنه لما يفتن القلب !

ثم دعا بغلته فركبها وانصرف إلى منزل – وقد كانت جميلة أعدت طعاما كثيرا– فقال لأصحابه : تخلفوا فتغدوا وانصرفوا مسرورين .

قال أبو عباد، أتيت جميلة يوما، وقد ظننت أنى سبقت الناس إليها، فإذا مجلسها غاص، فسألتها أن تعلمنى شيئا، فقالت لى : إن غيرك قد سبقك، ولا يجمل تقديمك على من سواك. فقلت : جعلت فداك ! متى تفرغين ممن سبقنى ؟ قالت : هو ذاك، الحق يسعك ويسعهم.

فبينما نحن كذلك إذ أقبل عبد الله بن جعفر – وإنه لأول يوم رأيته وآخره،

وكنت صغيراً كيساً، وكانت جميلة شديدة الفرح - فقامت وقام الناس، فتلقته وقبلت رجليه ويديه، وجلس فى صدر المجلس على كوم لها وتحوق أصحابه حوله، وأشارت إلى من عندها بالانصراف، وتفرق الناس، وغمزتنى ألا أبرح، فأقمت. وقال : يا سيدى وسيد آبائى وموالى، كيف نشطت إلى أن تنقل قدميك إلى أَمَتك ؟ قال : يا جميلة، قد علمت ما آليت على نفسك ألا تغنى أحدا إلا فى منزلك، وأحببت الاستماع. قالت : جعلت فداك ! فأنا أصير إليك وأُكَفِّر. قال : لا أكلفك ذلك، وبلغنى أنك تغنين بيتين لامرئ القيس تجيدين الغناء فيهما، وكان الله أنقذ بهما جماعة من المسلمين من الموت. قالت : يا سيدى، نعم ! فاندفعت تغنى، فغنت بعودها، فما سمعت منها قبل ذلك، ولا بعد إلى أن ماتت، مثل ذلك الغناء، فسبح عبد الله بن جعفر والقوم معه، وهما :

ولـمـا رأت أن الشـريعـة همهـا   وأن البيـاض من فرائصها دامى

تيممت العـين التى عنـد ضـارج   يفىء عليها الظل عرمضها طامى

فلما فرغت قالت جميلة : أى سيدى، أزيدك ؟ قال : حسبى. فقال بعض من كان معه : بأبى جعلت فداك ! وكيف أنقذ الله من المسلمين جماعة بهذين البيتين ؟ قال : نعم، أقبل قوم من أهل اليمن، يريدون النبى ﷺ، فضلوا الطريق، ووقعوا على غيرها، ومكثوا ثلاثا لا يقدرون على الماء، وجعل الرجل منهم يستذرى بفىء السمر والطلح يائسا من الحياة إذ أقبل راكب على بعير له، وأنشد بعض القوم هذين البيتين ، فقال :

ولـمـا رأت أن الشـريعـة همهـا   وأن البيـاض من فرائصها دامى

تيممت العـين التى عنـد ضـارج   يفىء عليها الظل عرمضها طامى

فقال الراكب : من يقول هذا ؟ قال : امرؤ القيس . قال : والله ما كذب، هذا ضارج عندكم، وأشار لهم إليه، فحبوا على الركب فإذا ماء عذب، وإذا عليه

الفرمض والظل يفيء عليه، فشربوا منه ريهم، وحملوا ما اكتفوا به حتى بلغوا الماء.

فأتوا النبى ﷺ فأخبروه وقالوا : يا رسول الله ، أحيانا الله عز وجل ببيتين من شعر امرىء القيس، وأنشدوه الشعر. فقال رسول الله ﷺ : ذلك رجل مذكور فى الدنيا شريف فيها، منسى فى الآخرة، خامل فيها، يجئ يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار. فكل استحسن الحديث. ونهض عبد الله بن جعفر ونهض القوم معه، فما رأيت مجلسا كان أحسن من مجلسه.

صاحبة الخمار

قال الأصمعى : قدم عراقى بعدل من خمر العراق إلى المدينة، فباعها كلها إلا السود، فشكا ذلك إلى الدارمى، وكان قد تنسك وترك الشعر ولزم المسجد، فقال : ما تجعل لى على أن أحتال لك بحيلة حتى تبيعها كلها على حكمك ؟ قال: ما شئت ! فعمد الدارمى إلى ثياب نسكه، فألقاها عنه، وعاد إلى مثل شأنه الأول، وقال شعرا رفعه إلى صديق له من المغنين، فغنى به، وكان الشعر :

قل للمليحة فى الخمار الأسود ... ماذا فعلـت بزاهـد متعبـد

قـد كـان شمـر للصـلاة ثيابه ... حتى خطرت له بباب المسجد

ردى عليـه صلاتـه وصيامـه ... لا تقتليـه بحـق ديـن محمـد

فشاع هذا الغناء فى المدينة، وقالوا، قد رجع الدارمى، وتعشق صاحبة الخمار الأسود، فلم تبق مليحة بالمدينة إلا اشترت خماراً أسود، وباع التاجر جميع ما كان معه، فجعل إخوان الدارمى من النساء يلقون الدارمى فيقولون : ماذا صنعت ؟ ستعلمون نبأه بعد حين، فلما نفد ما كان مع العراقى رجع الدارمى إلى نسكه ولبس ثيابه !

تحريم الغناء

لما دخل المدينة عثمان بن حيان المرى والياً عليها اجتمع الأشراف عليه من قريش والأنصار، فقالوا له : إنك لا تعمل عملا أجدى ولا أولى من تحريم الغناء والرثاء ففعل وأجل أهلها ثلاثا يخرجون فيها من المدينة.

فقدم ابن أبى عتيق فى الليلة الثالثة، فحط رحله بباب سلامة ؟ وقال لها: بدأت بك قبل أن أصير إلى منزلى، فقالت : أو ما تدرى ما حدث ؟ وأخبرته الخبر. فقال : أقيمى إلى السحر حتى ألقاه ! فقالت : إنا نخاف ألا تغنى شيئا، وننكظ[1] إنه لا بأس عليك !

ثم مضى إلى عثمان فاستأذن عليه، فأذن له وسلم عليه، وذكر له غيبته، وأنه جاء ليقضى حقه، وقال له : إن من أفضل ما عملت تحريم الغناء والرثاء. وقال : إن أهلك قد أشاروا على بذلك. وقال : فإنك قد وفقت ! ولكنى رسول امرأة إليك تقول : قد كانت هذه صناعتى فتبت إلى الله منها، وأنا أسألك أيها الأمير ألا تحول بينها وبين مجاورة قبر النبى ﷺ .

فقال عثمان : إذن أدعها لك ولكلامك . قال : لا يدعك الناس، ولكن تدعو بها وتسمع كلامها، وتنظر إليها، فإن كانت ممن يترك تركتها. وقال : فادع بها.

فأمرها ابن عتيق، فتخشعت، وأخذت سبحة فى يدها، وصارت إليه، وحدثته، فإذا هى من أعلم الناس بالناس، فأعجب بها، وحدثته عن آبائه وأمورهم، ففكه لذلك، فقال لها ابن أبى عتيق : إقرئى للأمير، فقرأت له. فقال لها: أحد للأمير، فحركه حداؤها. ثم قال لها : غنى للأمير، فجعل يعجب بذلك عثمان. فقال له ابن أبى عتيق: فكيف لو سمعتها فى صناعتها ! فقال : قل لها فلتقل. فأمرها فغنت :

---

(١) ننكظ : ننا نناشده.

سددن خصاص الخيم لما دخلته بكـل لبـــان واضـــح وجبـــين

فنزل عثمان بن حيان عن سريره، حتى جلس بين يديها، ثم قال : والله ما مثلك يخرج عن المدينة !

فقال له ابن أبى عتيق : يقول الناس : أذن لسلامة فى المقام وأخرج غيرها. فقال له عثمان : قد أذنت لهم جميعا!

عشق الصوت

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : حدثتنى عمتى – وكانت أسن من أبى وعمرت بعده – قالت : كان السبب فى طلب أبيك الغناء والمواظبة عليه لحنا سمعه لجميلة فى منزل يونس بن محمد الكاتب، فانصرف وهو كئيب حزين مهموم، ولم يطعم ولم يقبل علينا بوجهه كما كان يفعل .

فسألته عن السبب فأمسك، فألححت عليه فانتهرنى، وكان لى مكرماً، فغضبت وقمت من ذلك المجلس إلى بيت آخر، فتبعنى وترضانى، وقال لى : أحدثك ولا كتمان منك ! عشقت صوتا لامرأة قد ماتت، فأنا بها وبصوتها هائم، إن لم يتداركنى الله منه برحمته . فقلت : أتظن أن الله يحيى لك ميتا! قال : لا: قلت : فما تعليقك قلبك بما لا يعطاه أحد ! وأما عشقك الصوت فهو أن تحذقه وتغنيه عشر مرار، فتمله ويذهب عشقك له ! فكأنه أرعوى ورجع إلى نفسه، وقام فقبل رأسى ويدى ورجلى، وقال لى : فرجت عنى ما كانت فيه من الكرب والغم، ثم تمثل :

حبك الشىء يعمى ويصم

ولزم بيت يونس حتى حذق الصوت، ولم يمكث إلا زمنا يسيرا حتى مات يونس، وانضم إلى سياط، وكان من أحذق أهل زمانه بالغناء وأحسنهم أداء عمن مضى.

قالت عمتي : فقلت لإبراهيم : وما الصوت ؟ فأنشدني الشعر ولم يحسن أداء الغناء :

مـن البكـرات عـراقيـــة	تسمـى سبيعـة أطربتـهـا
ومن آل أبي بكرة الأكرمين	خصصت بودي فاصفيتهـا
ومن حبها زرت أهل العراق	وأسخطت أهلـي وأرضيتها
أموت إذا شحطت دراهـا	وأحيـا إذا أنـا لاقيتهـا
فأقسم لو أن ما بي بهـا	وكنـت الطبيـب لداويتهـا

قالت عمتي : هذا شعر حسن، فكيف به إذا ما قطع ومدد ! فما مضت الأيام والليالي حتى سمعت اللحن مؤدى، فما خرق مسامعي شيء قط أحسن منه، ولقد أدركني بما يؤثر من حسن صوت داود وجمال يوسف.

فبينا أنا يوما جالسة، إذ طلع على إبراهيم ضاحكا مستبشرا، فقال لي : ألا أحدثك بعجب ؟ قلت : وما هو ؟ قال : إن لي شريكا في عشق صوت جميلة! قلت : وكيف ذلك ؟ قال : كنت عند سياط في يومنا هذا، وأنا أغنيه الصوت، وقد وقفني فيه على شيء لم أكن أحكمته عن يونس، وحضر عند سياط شيخ نبيل، فسبح على الصوت تسبيحا طويلا، فظننت أنه فعل ذلك لاستحسانه الصوت. فلما فرغت أنا وسياط من اللحن قال الشيخ : ما أعجب أمر هذا الشعر، وأحسن ما غني به، وأحسن ما قال قائله !

فقلت له دون القوم : وما بلغ من العجب به ؟ قال : نعم ! حجت سبيعة من ولد عبد الرحمن بن أبي بكرة، وكانت من أجمل النساء، فأبصرها عمر بن أبي ربيعة فلما انحدرت إلى العراق اتبعها يشيعها حتى بلغ معها موضعا يقال له : الخورنق . فقالت له : لو بلغت إلى أهلي، وخطبتني لزوجوك. فقال لها : ما كنت لأخلط تشييعي إياك بخطبة ، ولكن أرجع ثم آتيكم خاطبا، فرجع ومر بالمدينة، فقال فيها :

ثم أتى بيت جميلة، فسألها أن تغنى بهذا الشعر ففعلت . فأعجبه ما سمع من حسن غنائها وجودة تأليفها، فحسن موقع ذلك منه، فوجه إلى جارية له كانت تطلب الغناء أن تأتى جميلة، وتأخذ الصوت منها، فاطرحتها إياه أياما حتى حذقت ومهرت به . فلما رأى ذلك عمر قال : أرى أن تخرجى إلى سبيعة وتغنيها هذا الصوت وتبلغيها رسالتى، قالت : نعم، جعلنى الله فداك.

فأتتها فرحبت بها، وأعلمتها الرسالة، فحيت وأكرمت، ثم غنتها فكادت تموت فرحا وسرورا لحسن الغناء والشعر. ثم عادت رسول عمر، فأعلمته ما كان، وقالت له : إنها خارجة فى تلك السنة.

فلما كان أوان الحج استأذنت سبيعة أباها فى الحج فأبى عليها، وقال لها: قد حججت حجة الإسلام. قالت له : تلك الحجة هى التى أسهرتنى ليلى، وأطالت نهارى، وتوقتنى إلى أن أعود وأزور البيت والقبر، وإن أنت لم تأذن لى مت كمداً وغماً.

فلما رأى ذلك أبوها رق لها، وقال : ليس يسعنى منعها لما أرى بها، فأذن لها ووافى عمر المدينة ليعرف خبرها، فلما قدمت علم بذلك، وسألها أن تأتى منزل جميلة، وقد سبق إليها عمر، فأكرمتها جميلة، وسرت بمكانها. فقالت لها سبيعة : جعلنى الله فداك ! أقلقنى وأسهرنى صوتك بشعر عمر فى، فأسمعينى إياه. قالت جميلة : وعزازة لوجهك الجميل ! فغنتها الصوت، فأغمى عليها ساعة حتى رش على وجهها الماء، وثاب إليها عقلها. ثم قالت : أعيدى على، فأعادت الصوت مرارا فى كل مرة يغشى عليها.

ثم خرجت إلى مكة وخرج معها. فلما رجعت مرت بالمدينة وعمر معها، فأتت جميلة قالت لها: أعيدى على الصوت. ففعلت، وأقامت عليها ثلاثا تسألها

أن تعيد الصوت، فقالت لها جميلة : إنى أريد أن أغنيك صوتا فاسمعيه. قالت هتيه يا سيدتى فغنتها:

أبت المليحـة أن تواصلـنى	وأظـن أنـى زائـر رمسـى[1]
لا خـير فـى الدنيـا وزينتهـا	ما لـم توافـق نفسهـا نفسـى
لا صبر لى عنها إذا حسرت	كالبدر أو قرن من الشمـس

قالت سبيعة : لولا أن الأول شعر عمر لقدمت هذا على كل شىء سمعته. فقال عمر : فإنه والله أحسن من ذلك ؟ فأما الشعر فلا. قالت جميلة : صدقت والله !

عمر بن أبي ربيعة

حج عمر بن أبى ربيعة فى عام من الأعوام على نجيب له، مخضوب بالحناء مشهر الرحل بقراب مذهب، ومعه عبيد بن سريج على بغله له شقراء، ومعه غلامه جناد، وقود فرسا له أدهم أغر محجلا وكان عمر بن أبى ربيعة يسميه "الكوكب" فى عنقه طوق ذهب. ومع عمر جماعة من حشمه وغلمانه ومواليه، وعليه حلة موشية يمانية وعلى ابن سريج ثوبان هرويان مرتفعان، فلم يمروا بأحد إلا عجب من حسن هيئتهم، وكان عمر من أعطر الناس وأحسنهم عيشة، فخرجوا من مكة يوم التروية بعد العصر يرتدون منى.

فمروا بمنزل رجل من بنى عبد مناف يمنى، قد ضربت عليه فساطيطه وخيمة، ووافى الموضع عمر فابصر بنتا للرجل قد خرجت من قبتها، وستر جواريها دون القبة لئلا يراها من مر، فأشرف عمر على النجيب، فنظر إليها، وكانت من أحسن النساء وأجملهن، فقال لها جواريها : هذا عمر بن أبى ربيعة،

---

(١) رمسى : القبر .

فرفعت رأسها فنظرت إليه ، ثم سترتها جواريها وولائدها عنه، حتى دخلت، ومضى عمر إلى منزل وفساطيطه بمنى، وقد نظر من الجارية إلى ما تيمه، ومن جمالها إلى حيره، فقال فيها :

نظـرت إليهــا بالمحصــب مـن منــى
ولـى نظــر - لولا التجــرج - عــارم

فقلـت : أشمــس أم مصابيــح بيعــة
بدت لى خلف السجف أم أنـت حالـم

بعيـدة مهـوى القــرط إمــا لنوفـــل
أبوهـا وإمــا عبـد شمــس وهاشـــم

ومـد عليهــا السجـف يــوم لقيتهــا
علـى عجـــل تباعهـــا والخـــوادم

فلم أستطعها غـير أن قـد بـدا لنـــا
على الرغـم منهـا كفهــا والمعاصـــم

معاصم لم تضرب على البهم بالضحى
عصاهــا ووجــه لـم تلحــه السمائـم

نضـير تـرى فيــه أساريــع مائـــة
صبيـــح تغاديــه الأكـــف النواعـــم

إذا مــا دعـــت أترابـــها فاكتنفهـــا
تمـايلـــن أو مـالـت بهـن المـاكــم

طلبن الصبا حتى إذا ما أصبنه

نزعن وهن المسلمات الظوالم

ثم قال لابن سريج يا أبا يحيى ، إنى تفكرت فى رجوعنا مع العشية إلى مكة مع كثرة الزحام والغبار وجلبة الحاج، فثقل على، فهل لك أن تروح رواحا طيبا معتزلا، فنرى فيه من راح صادرا إلى المدينة من أهلنا، ونرى أهل العراق والشام ونتعلل فى عشيتنا وليلتنا ونستريح ؟ قال : وأنى ذلك يا أبا الخطاب ؟ قال : على كثيب أبى شحوة، المشرف على بطن يأجج بين منى وسرف، فنبصر مرور الحاج بنا ونراهم ولا يروننا. قال ابن سريج : طيب والله يا سيدى.

فدعا بعض خدمه فقال: اذهبوا إلى الدار بمكة، فاعملوا لنا سفرة، واحملوها مع شراب إلى الكثيب، حتى إذا أبردنا، ورمينا الجمرة صرنا إليكم.

فصار إليه فأكلا وشربا، فلما انتشيا أخذ ابن سريج الدف فنقره، وجعل يغنى، وهم ينظرون إلى الحاج، فلما أمسيا رفع ابن سريج صوته فغنى فى الشعر الذى قاله عمر، فسمعه الركبان فجعلوا يصيحون به : يا صاحب الصوت، أما تتقى الله ! فقد حبست الناس عن مناسكهم ! فيسكت قليلاً، حتى إذا مضوا رفع صوته، وقد أخذ فيه الشراب، فيقف آخرون، إلى أن مرت قطعة من الليل، فوقف عليه فى الليل رجل على فرس عتيق عربى مرح مستن، فهو كأنه ثمل، حتى وقف بأصل الكثيب، وثنى رجله على قربوس سرجه، ثم نادى : يا صاحب الصوت، أيسهل عليك أن ترد شيئا مما سمعته ؟ قال : نعم، ونعمة عين، فأيها تريد ؟ قال : تعيد على :

ألا يا غراب البين مالك كلما ... تعبت بفقدان على تحوم

أبا لبين من عفراء أنت مخبرى ... عدمتك من طير فأنت مشوم

فأعاده ، ثم قال له ابن سريج : ازدد إن شئت ، فقال : غننى:

أمسلم إني – يا بن كل خليفة ويا فارس الهيجا ويا قمر الأرض

شكرتك إن الشكر حبل من التقى وما كل من أقرضته نعمة يقضي

ونوهت لي باسمي وما كان خاملا ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

فغناه، فقال له : الثالث ، ولا أستزيدك. فقال : قل ما شئت، فقال : تغنيني:

يا دار أقوت بالجزع فالكثب بين مسيل العذيب فالرحب

لم تتقنع بفضل مئزرها دعد ولم تسق دعد في العلب

فغناه، فقال له ابن سريج : أبقيت لك حاجة ؟ قال : نعم، تنزل إلى لأخاطبك شفاها بما أريد. فقال له عمر: انزل إلي، فنزل، فقال له : لولا أني أريد وداع الكعبة وقد تقدمني ثقلي وغلماني لأطلت المقام معك، ولنزلت عندكم، ولكني أخاف أن يفضحني الصبح، ولو كان ثقلي معي لما رضيت لك بالهويني، ولكن خذ حلتي هذه وخاتمي ولا تخدع عنهما، فإن شراءهما ألف وخمسمائة دينار.

ثم قال له : بالله أنت سريج ؟ قال : نعم، قال : حياك الله. وهذا عمر ابن أبي ربيعة ؟ قال : نعم، قال : حياك الله يا أبا الخطاب !

فقال له : وأنت فحياك الله ! قد عرفتنا فعرفنا نفسك، قال : لا يمكنني ذلك، فغضب ابن أبي سريج وقال : والله لو كنت يزيد بن عبد الملك لما زاد، فقال له : أنا يزيد بن عبد الملك !

فوثب إليه عمر فأعظمه، وابن سريج فقبل ركابه، ثم مضي يزيد إلي ثقله، ودفع ابن سريج الحلة والخاتم إلى عمر فأعطاه إياهما، وقال له : إن هذين بك أشبه منهما بي، فأعطاه عمر ثلاثمائة دينار وغدا فيهما إلى المسجد، فعرفهما الناس، وجعلوا يتعجبون ويقولون : كأنهما والله حلة يزيد بن عبد الملك وخاتمه، ثم يسألون عمر فيخبرهم أن يزيد بن عبد الملك كساه ذلك !

ابن عائشة

كان ابن عائشة من أحسن الناس غناء، وأنبههم فيه، وأضيقهم خلقاً : إذا قيل له غن، فيقول : أو لمثلي يقال هذا؟ على عتق رقبة إن غنيت يومي هذا ! فإن غني وقيل له : ألمثلي يقال أحسنت ؟ على عتق رقبة إن غنيت سائر يومي هذا.

فلما كان في بعض الأيام سال وادي العقيق، فجاء بالعجب، فلم يبق بالمدينة مخبأة ولا شابة ولا شاب ولا كهل إلا خرج ببصره، وكان فيمن خرج ابن عائشة المغني، وهو معتجر بفضل ردائه، فنظر إليه الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب – وكان فيمن خرج إلى العقيق – وبين يديه أسودان كأنهما ساريتان يمشيان بين يديه أمام دابته، فقال لهما : اذهبا إلى الرجل المعتجر بفضل ردائه فخذا بضبعيه فإن فعل ما آمره به، وإلا فاقذفا به في العقيق. فمضيا والحسن يقفوهما، فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما آخذان بضبعيه، فقال: من هذا ؟ فقال له الحسن : أنا هذا يا بن عائشة، قال : لبيك وسعديك ! وبأبي أنت وأمي ! قال : اسمع مني ما أقول ، واعلم أنك مأسور في أيديهما، فغن مائة صوت أو يطرحاك في العقيق، وإن لم يفعلا ذلك لأقطعن أيديهما!

فصاح ابن عائشة : ياويلاه ! وأعظيم مصيبتاه ! قال : دع صياحك، وخذ فيما ينفعنا. قال : اقترح، وأقم من يحصي، وأقبل يغني، فترك الناس العقيق، وأقبلوا عليه، فلما تمت أصواته مائة كبر الناس بلسان واحد تكبيرة واحدة، ارتجت لها أقطار المدينة، وقالوا للحسن : صلى الله على روحك حيا وميتا! فما اجتمع لأهل المدينة سرور قط إلا بكم أهل البيت.

فقال له الحسن : إنما فعلت هذا بك يا بن عائشة لأخلاقك الشكسة، قال له ابن عائشة : والله ما مرت علي مصيبة أعظم منها. فكان ابن عائشة بعد ذلك إذا قيل له: ما أشد ما مر عليك؟ قال: يوم العقيق.

أمر له ثلاثين ألفا

خرج ابن عائشة من عند الوليد بن يزيد وقد غناه :

أبعدك معقلا أرجو وحصنا   قد أعيتني المعاقل والحصون

فأطربه، فأمر له بثلاثين ألف درهم وبمثل كارة القصار كسوة.

فبينما ابن عائشة يسير إذ نظر إليه رجل من أهل وادى القرى كان يشتهى الغناء ويشرب النبيذ، فدنا من غلامه وقال : من هذا الراكب ؟ قال : ابن عائشة المغنى، فدنا منه وقال : جعلت فداءك ! أنت ابن عائشة أم المؤمنين ؟ قال: لا، أنا مولى لقريش، وعائشة أمي، وحسبك هذا، فلا عليك أن تكثر، قال : وما هذا الذى أراه بين يديك من المال والكسوة ؟ قال : غنيت أمير المؤمنين صوتا فأطربته فأمر لى بهذا المال وهذه الكسوة. قال : جعلت فداءك، فهل تمن على بأن تسمعنى ما أسمعته إياه ؟ فقال له : ويلك أمثلى يكلم بمثل هذا فى الطريق! قال : فما أصنع ؟ قال : الحقنى بالباب.

وحرك ابن عائشة بغلة شقراء كانت تحته لينقطع عنه، فعدا معه حتى وافيا الباب كفرسى رهان، ودخل ابن عائشة فمكث طويلا طمعا فى أن يضجر فينصرف، فلم يفعل، فلما أعياه قال لغلامه : أدخله، فلما دخل، قال له : ويلك ! من أين صبك الله على ؟ قال : أنا رجل من أهل وادى القرى، أشتهى هذا الغناء، فقال له : هل لك فيما هو أنفع لك منه ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : مائتا دينار وعشرة أثواب تنصرف بها إلى أهلك، فقال له : جعلت فداءك ، والله إن لى لبنية ما فى إذنها -علم الله- حلقة من الورق[1] فضلا عن الذهب، وإن لى لزوجة، ما عليها - يشهد الله - قميص، ولو أعطيتنى جميع ما أمر لك به أمير المؤمنين على هذه الخلة والفقر اللذين عرفتكهما، وأضعفت لى ذلك، لكان الصوت

---

(١) الورق : الفضة .

أعجب إلى – وكان ابن عائشة تائها[1] لا يغنى إلا لخليفة أو لذى قدر جليل من إخوانه – فتعجب ابن عائشة منه ورحمه ودعا بالأداة – وكان يغنى مرتجلا– فغناه الصوت، فطرب له طربا شديداً، وجعل يحرك رأسه حتى ظن أن عنقه سينقصف. ثم خرج من عنده.

وبلغ الخبر الوليد بن يزيد، فسأل ابن عائشة عنه، فجعل يغيب عن الحديث، ثم حد الوليد به فصدقه عنه، وأمر بطلب الرجل فطلب حتى أحضر، ووصله صلة سنية، وجعله فى ندمائه، ووكله بالسقى، فلم يزل معه حتى مات.

إرجع إلى عمك راشدا

أتى رجل من العراق المدينة فى طلب جارية – وصفت له – قارئة قوالة، فسأل عنها فوجدها عند قاضى المدينة، فأتاه وسأله أن يعرضها عليه، فقال : يا عبد الله، لقد أبعدت الشقة فى طلب هذه الجارية فما رغبتك فيها ؟ قال : إنها تغنى فتجيد . فقال القاضى : ما علمت بهذا، فألح عليه فى عرضها، فعرضت بحضرة مولاها القاضى. فقال لها الفتى : هاتى ، فغنت :

إلى خالـد حتى أنحـن بخالد   فنعم الفتى يرجى ونعم المؤمل !

ففرح القاضى بجاريته، وسر بغنائها، وغشيه من الطرب أمر عظيم، وقال هاتى شيئا بأبى أنت ، فغنت :

أروح إلى القصـاص كل عشية   أرجى ثواب الله فى عدد الخطا

فزاد الطلب على القاضى، ولم يدر ماذا يصنع، فأخذ نعله فعلقها فى أذنه، وجثا على ركبتيه، وجعل يأخذ بطرف أذنه، والنعل معلقة فيها ويقول : اهدونى إلى البيت الحرام، فإنى بدنة ! حتى أدمى أذنه !

---

(١) تائها : من التيه أى الصلف والكبر .

فلما أمسكت أقبل على الفتى فقال : انصرف ! قد كنا فيها راغبين قبل أن نعلم أنها تقول ، فنحن الآن فيها أرغب. فانصرف الفتى.

وبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز، فقال : قاتله الله ! لقد استرقه الطرب، وأمر بصرفه عن عمله.

فلما صرف قال : لو سمعها عمر لقال : أركبونى فإنى مطية !

فبلغ عمر، فأشخص القاضى والجارية، فلما دخلا عليه قال : أعد ما قلت! قال : نعم ! فأعاد ما قال للجارية : قولى، فغنت :

كأن لك لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى ! نحن كنا أهلها فأبادنا
صروف الليالى والجدود العواثر

فما فرغت من الشعر حتى طرب عمر طربا بينا، وأقبل يستعيدها ثلاثا، وقد بلت دموعه لحيته، ثم أقبل على القاضى، فقال : إرجع إلى عملك راشدا!

غناء الغريض

وجه يزيد بن عبد الملك(١) إلى الأحوص فى القدوم عليه، وكان الغريض معه، فقال له : اخرج معى حتى آخذ لك جائزة أمير المؤمنين وتغنيه، فإنى لا أحمل إليه شيئا هو أحب إليه منك، فخرجا.

فلما قدم الأحوص على يزيد جلس له ودعا به، فأنشده مدائح فاستحسنها، وخرج من عنده، فبعثت إليه سلامة جارية يزيد بلطف، فأرسل

(١) مولع يزيد بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز وكان محبا للغناء توفى سنة ١٠٥ هـ.

إليها : إن الغريض عندى قدمت به هدية إليك. فلما جاءها الجواب اشتقات إلى الغريض وإلى الاستماع منه.

فلما دعاها أمير المؤمنين تمارضت وبعثت إلى الأحوص : إذا دعاك أمير المؤمنين فاحتل له فى أن تذكر له الغريض.

فلما دعا يزيد الأحوص قال له يزيد : ويحك يا أحوص ! هل سمعت شيئا فى طريقك تطرفنا به ! قال نعم يا أمير المؤمنين، مررت فى بعض الطريق فسمعت صوتا أعجبنى حسنه وجودة شعره، فوقعت حتى استقصيت خبره، فإذا هو الغريض، وإذا هو يغنى بأحسن صوت وأشجاه.

ألا هـاج التذكر لى سـقامـا   ونكس الداء والوجع الغراما

سـلامة إنهـا همـى ودائـى   وشـر الداء ما بطـن العظاما

فقلت له - ودمع العين يجرى على الخدين أربعة سجاما :

عليك لها السـلام فمن لصب   يبيت الليـل يهذى مستهامـا

قال يزيد : ويلك يا أحوص ! أنا ذاك فى هوى خليلتى، وما كنت أحسب مثل هذا يتفق، وإن ذاك لما يزيد لها فى قلبى. فما صنعت يا أحوص حين سمعت ذاك ! قال : سمعت ما لم أسمع يا أمير المؤمنين أحسن منه، فما صبرت حتى أخرجت الغريض معى وأخفيت أمره، وعلمت أن أمير المؤمنين يسألنى عما رأيت فى طريقى.

فقال يزيد : أئتنى بالغريض ليلا واخف أمره، فرجع الأحوص إلى منزله، وبعث إلى سلامة بالخبر. فقالت للرسول : جزيت خيرا. قد انتهى إلى كل ما قلت، وقد تلطفت وأحسنت.

فلما وارى الليل أهله بعث إلى الأحوص أن عجل المجئ إلى ضيفك.

فجاء الأحوص مع الغريض فدخلا عليه، فقال: غننى الصوت الذى أخبرنى أنه سمعه منك- وكان الأحوص قد أخبر الغريض الخبر، وإنما ذلك شعر قاله الأحوص يريد أن يحركه به على سلامة، ويختال للغريض فى الدخول عليه - فلما غناه الغريض دمعت عين يزيد، وأمر باحضار سلامة فحضرت، وضرب لها حجاب فجلست ، وأعاد عليه الغريض الصوت، فقالت : أحسن والله يا أمير المؤمنين، فأسمعه منى. فأخذت العود فضربته وغنت الصوت، فكاد يزيد يطير فرحا وسرورا، وقال : يا أحوص، إنك لمبارك ! يا غريض، غننى فى ليلتى هذا الصوت، فلم يزل يغنيه حتى قام يزيد وأمر لهما بمال، وبعث سلامة إليهما بكسوة ولطف كثير.

عندما غنى الغريض

قال عبد الرحمن بن إبراهيم المخزومى : أرسلتنى أمى وأنا غلام أسأل عطاء بن أبى رباح عن مسألة، فوجدته فى دار يقال لها دار المعلى، وعليه ملحفة معصفرة، وهو جالس على منبر، وقد ختن ابنه، والطعام يوضع بين يديه، وهو يأمر به أن يفرق فى الخلق، فلهوت مع الصبيان ألعب بالجوز حتى أكل القوم وتفرقوا، وبقى مع عطاء خاصته، فقالوا : يا أبا محمد، لو أذنت لنا، فأرسلنا إلى الغريض وابن سريج ! فقال : ما شئتم. فأرسلوا إليهما، فلما أتيا قاموا معها، وثبت عطاء فى مجلسه فلم يدخل، فدخلوا بهما بيتا فى الدار فغنيا وأنا أسمع، فبدأ ابن سريج فنقر بالدف، وتغنى بشعر كثير :

بليــلى وجــارات لليــلى كـأنهـا ... نعاج الملا تحدى بهـن الأباعـر
أمنقطـع يا عـز مـا كـان بيننـا ... وشاجرنـى يا عز فيـك الشواجر
إذا قيل هـذا بيـت عـزة قادنى ... إليه الهوى واستعجلتنى البـوادر
أصد وفى مثل الجنون لكى يرى ... رواة الخنـا أنى لبيتـك هاجـر
ألا ليت حظى منك يا عـز أننى ... إذا نبت باع الصبر لى عنك تاجر

فكأن القوم نزل عليهم السبات، وأدركهم الغشى، فكانوا كالأموات، ثم أصغوا إليه بآذانهم، وشخصت إليه أعينهم، وطالت أعناقهم . ثم غنى ابن سريج ووقع بالضيب، وأخذ الغريض الدف، فغنى بشعر الأخطل :

فقلت أصبحونا لا أبا لأبيكم   وما وضعوا الأثقال إلا ليفعلوا

وقلت : اقتلوها عنكم بمزاجها   فأكرم بها مقتولة حين تقتل

أناخوا فجروا شاصيات كأنها   رجال من السودان لم يتسر بلوا

فوالله ما رأيتهم تحركوا ولا نطقوا إلا مستمعين لما يقول. ثم غنى الغريض بشعر آخر، وهو :

هلى تعرف الرسم والأطلال والدمنا

زدن الفؤاد على ما عنده حزنا

دار لأسماء إذ كانت تحل بها

وإذ ترى الوصل فيما بيننا حسنا

إذ تستبيك بمصقول عوارضه

ومقلتى جؤذر لم يعد أن شدنا

ثم غنى الغريض فى شعر عمر بن أبى ربيعة، وهو قوله :

كفى حزنا أن تجمع الدار شملنا

وأمسى قريبا لا أزورك كلثما

دعى القلب لا يزدد خبالا مع اذى

به منك أو دارى جواه المكتما

ومن كان لا يعدو هواه لسانه

فقد حل فى قلبى هواك وخيما

وليس بتزويق اللسان وصوغه

ولكنه قد خالط اللحم والدما

قال الراوى : وما زال يغنيان وعطاء يسمع على منبره ومكانه، وربما رأيت رأسه قد مال وشفتيه تتحركان حتى بلغته الشمس،ي فقام يريد منزله، فما سمع السامعون شيئاً أحسن منهما، وقد رفعا أصواتهما، وتغنيا.

ولما بلغت الشمس عطاء قام وهم على طريقة واحدة فى الغناء، فاطلع فى كوة البيت، فلما رأوه قالوا: يا أبا محمد، أيهما أحسن غناء ؟ قال : الرقيق الصوت. يعنى ابن سريج.

ماذا لقيت من الهوى

لقى عطاء بن أبى رباح[1] ابن سريج[2] بذى طوى وعليه ثياب مصبغة، وفى يده جرادة مشدودة الرجل بخيط يطيرها ويجذبها به كلما تخلت، فقال له عطاء : يا فتان، ألا تكف عما أنت ! كفى الله الناس مئنتك. فقال ابن سريج : وما على الناس من تلوينى ولعبى بجرادتى ؟ فقال له : تفتنهم بأغانيك الخبيثة، فقال له ابن سريج سألتك بحق رسول الله ﷺ، إلا ما سمعت منى بيتاً من الشعر، فإن سمعت منى منكراً أمرتنى بالإمساك عما أنا عليه، وأنا أقسم بالله وبحق هذه البينة لئن أمرتنى بعد استماعك منى بالإمساك عما أنا عليه لأفعلن ذلك.

(١) هو عطاء بن أسلم بن قوان تابعى من الفقهاء، ولد فى اليمن ، ونشأ بمكة ، وتوفى فيها سنة ١١٥هـ.

(٢) ابن سريج: كان من أحسن الناس غناء وهو أول من ضرب بالعود ، مات فى خلافة هشام بن عبد الملك.

فأطمع ذلك عطاء فى ابن سريج، وقال : قل، فاندفع يغنى بشعر جرير:

إن الذين غدو بلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معيناً

غيضن من عبراين وقلن لى ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فلما سمع عطاء الغناء اضطرب اضطراباً شديداً ودخلته أريحية، فحلف ألا يكلم أحداً بقية يومه إلا بذا الشعر وصار إلى مكانه من المسجد الحرام، فكان كل من يأتيه سائلا عن حلال أو حرام أو خبر من الأخبار، لا يجيبه إلا بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى، وينشد هذا الشعر حتى صلى المغرب، ولم يعاود ابن سريج بعدها ولا تعرض له[1].

اشتاق إلى معبد

اشتاق الوليد بن يزيد إلى معبد فوجه إليه إلى المدينة فأحضر، وبلغ الوليد قدومه، فأمر ببركة بين يدى مجلسه فملئت على حافة البركة، وبسط لمعبد مقابله على حافة البركة، ليس معهما ثالث، وجى بمعبد فرأى ستراً مرخياً ومجلس رجل واحد، فقال له الحجاب : يا معبد، سلم على أمير المؤمنين واجلس فى هذا الموضع، فسلم فرد عليه الوليد السلام من خلف الستر، ثم قال له : حياك الله يا معبد ! أتدرى لم وجهت إليك ؟ قال : الله أعلم ثم أمير المؤمنين . قال : ذكرتك فأحببت أن أسمع منك. قال معبد: أأغنى ما حضر أم ما يقترحه أمير المؤمنين؟ قال : بل غننى :

مازال يعجو عليهم ريب دهرهم

حتى تفانوا وريب الدهر عداء

أبكى فراقهم عينى وأرقها

إن التفرق للأحباب بكاء

---

(١) هكذا رويت هذه القصة فى كتب التراث .

فغناه، فما فرغ منه حتى رفع الجوارى السجف ثم خرج الوليد فألقى نفسه فى البركة فغاص فيها، ثم خرج منها فاستقبله الجوارى بثياب غير الثياب الأولى ثم شرب وسقى معبد، ثم قال : غننى يا معبد :

ياربعـ مالـك لا تحـب متيمـا   قد عاج نحوك زائراً ومسلمـاً

جادتـك كـل سحابـة هطالـة   حتـى ترى عن زهـرة متبسمـا

لو كنت تدرى من دعاك أجبته   وبكيت من حرق عليه إذن دما

فغناه، وأقبلت الجوارى فرفعن الستر، وخرج الوليد فألقى نفسه فى البركة فغاص فيها ثم خرج، فلبس ثيابا غير تلك، ثم شرب وسقى معبدا، ثم قال له غنى. فقال : بماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : غننى :

عجبت لمـا رأتـــــنى   أنـدب الربـع المحيـلا

واقفا فى الدار أبكى   لا أرى إلا الطلـــــولا

كيـف تبكـى لأنـاس   لا يملـــون الذميـــلا

كلمـا قلــت إطمأنـت   دارهـم قالوا الرحيـلا

فلما غناه رمى بنفسه فى البركة ثم خرج فردوا عليه ثيابه، ثم شرب وسقى معبد، ثم أقبل عليه الوليد فقال له : يا معبد، من أراد أن يزداد عند الملوك حظوة فليكتم أسرارهم، فقلت : ذلك ما لايحتاج أمير المؤمنين إلى إيصائى به، فقال : يا غلام، أحمل إلى معبد عشرة آلاف دينار تحصل له فى بلده، وألفى دينار لنفقة طريقه، فحملت إليه كلها، وحمل على البريد من وقته إلى المدينة.

لآتين مكة

قال معبد : غنيت فأعجبني غنائي، وأعجب الناس، وذهب لي به صيت وذكر، فقلت : لآتين مكة فلا سمعن من المغنين بها، ولأغنينهم، ولأتعرفن إليهم.

فابتعت حمارا، فخرجت عليه إلى مكة، فلما قدمتها بعت حماري، وسألت عن المغنين : أين يجتمعون ؟ فقيل : بقعيقعان، وفي بيت فلان.

فجئت إلى منزله بالغلس، فقرعت الباب، فقال : من هذا ؟ فقلت : أنظر عافاك الله، فدنا وهو يسبح ويستعيذ كأنه يخاف، ففتح، فقال : من أنت عافاك الله ؟ قلت : رجل من أهل المدينة.

قال : فما حاجتك ؟ قلت : أنا رجل أشتهي الغناء، وأزعم أني أعرف منه شيئا، وقد بلغني أن القوم يجتمعون عندك، وقد أحببت أن تنزلني في جانب منزلك وتخلطني بهم، فإنه لا مئونة عليك ولا عليهم.

فلوى شيئا ثم قال : انزل على بركة الله. فنقلت متاعي فنزلت في جانب حجرته.

ثم جاء القوم حين أصبحوا واحدا بعد واحد حتى اجتمعوا فأنكروني، وقالوا : من هذا الرجل ؟ قال : رجل من أهل المدينة ضيف يشتهي الغناء، ويطرب عليه، ليس عليكم منه عناء ولا مكروه. فرحبوا بي وكلمتهم، ثم إنبسطوا وشربوا وغنوا، فجعلت أعجب بغنائهم وأظهر ذلك لهم، ويعجبهم مني حتى أقمنا أياما، وأخذت من غنائهم - وهو لا يدرون - أصواتا وأصواتا، ثم قلت لابن سريج : أمسك على صوتك :

قـل لهنـد وتربـهـا قبل شحط النوى غدا

إن تجـودي فطـالمـا بـت ليلـي مسهـدا

قال : أو تحسن شيئا؟ قلت : تنظر ، وعسى أن أصنع شيئا واندفعت فيه فغنيته، فصاح وصاحوا، وقالوا: أحسنت ! قاتلك الله ! قلت : فأمسك على صوت (لحن) كذا، فأمسكوه على فغنيته، فإزدادوا عجبا وصياحا، فما تركت واحدا منهم إلا غنيته من غنائه أصواتا قد تخيرتها، فصاحوا حتى علت أصواتهم، وهرفوا بى ، وقالوا : لأنت أحسن بأداء غنائنا عنا منا. قلت : فأمسكوا على ولا تضحكوا بى حتى تسمعوا من غنائى. فأمسكوا على فغنيت صوتا من غنائى، فصاحوا بى ، ثم غنيت آخر وآخر، فوثبوا إلى وقالوا : نحلف بالله إن لك لصيتا واسما وذكرا، وإن لك فيما هنا لسهما عظيما، فمن أنت ؟ قلت : أنا معبد، فقبلوا رأسى، وقالوا: لفقت علينا وكنا نتهاون بك، ولا نعدك شيئا، وأنت أنت !

فأقمت عندهم شهرا آخذ منهم ويأخذون منى، ثم انصرفت إلى المدينة.

معبد والجارية ظبية

كان معبد قد علم الغناء جارية من جوارى الحجاز تدعى ظبية، وعنى بتخريجها، فاشتراها رجل من أهل العراق، فأخرجها إلى البصرة، وباعها هناك، فاشتراها رجل من أهل الأهواز فأعجب بها، ثم ماتت بعد أن أقامت عنده برهة من الزمان، وأخذ جواريه أكثر غنائها عنها، فكان لمحبته إياها وأسفه عليها لا يزال يسأل عن أخبار معبد وأين مستقره ؟ ويظهر التعصب له والميل إليه، والتقديم لغنائه على سائر أغانى أهل عصره إلى أن عرف ذلك منه.

وبلغ معبد خبره، فخرج من مكة حتى أتى البصرة، فلما وردها صادف الرجل، وقد خرج عنها فى ذلك اليوم إلى الأهواز، فاكترى سفينة، وجاء معبد يلتمس سفينة ينحدر فيها إلى الأهواز، فلم يجد غير سفينة الرجل، وليس يعرف أحد منها صاحبه، فأمر الرجل الملاح أن يجلسه معه فى مؤخرة السفينة، ففعل وانحدر.

فلما صاروا فى فم نهر الأبلة[1] تغدوا وشربوا، وأمر جواريه فغنين ومعبد ساكت، وهو فى ثياب السفر، وعليه فرو وخفان غليظان وزى جاف من زى أهل الحجاز، إلى أن غنت إحدى الجوارى :

بانت سعاد وأمسى حبلها انصرما

واحتلت الغور[2] والأجراع من إضما

إحدى بلى[3] وما هام الفؤاد بها

إلا السواه[4] ولا ذكرة حلما

فلم تجد أداءه، فصاح بها معبد : يا جارية، إن غناءك هذا ليس بمستقيم. فقال له مولاها– وقد غضب : وأنت ما يدريك الغناء ما هو ! ألا تمسك وتلتزم شأنك ! فأمسك.

ثم غنت أصواتا من غناء غيره، وهو ساكت لا يتكلم، حتى غنت :

يا بنة الأزدى قلبى كئيب	مستهام عندها ما ينيب
ولقد لاموا فقلت : دعونى	إن من تنهون عنه حبيب
إنما أبلى عظامى وجسمى	حبها، والحب شىء عجيب
أيها العائب عندى هواها	أنت تفدى من أراك تعيب

فأخلت ببعضه، فقال لها معبد : يا جارية، لقد أخللت بهذا الصوت (اللحن) إخلالا شديدا، فغضب الرجل وقال له : ويلك ! ما أنت والغناء! ألا تكف عن هذا الفضول ! فأمسك وغنت الجوارى مليا، ثم غنت إحداهن :

---

(١) بلدة على شاطئ دجلة .

(٢) المطمئن على الأرض.

(٣) اسم قبيلة.

(٤) الطيش .

خليلي عوجا فأبكيا ساعة معي على الربع نقضي حاجة ونودع

ولا تعجلاني أن ألم بدمنة لعزة لاحت لي ببيداء بلقع

وقولا لقلب قد سلا: راجع الهوى وللعين : أذري من دموعك أودعي

فلا عيش إلا مثل عيش مضى لنا مصيفا أقمنا فيه من بعد مربع

فلم تصنع فيه شيئا، فقال لها معبد : يا هذه ، أما تقومين على أداء صوت واحد، فغضب الرجل وقال له : ما أراك تدع هذا الفضول بوجه ولا حيلة، فأقسم بالله لئن عاودت لأخرجنك من السفينة !

فأمسك معبد حتى إذا سكتت الجوارى سكتة إندفع يغنى الصوت الأول حتى فرغ منه، فصاحت الجوارى : أحسنت والله يا رجل، فأعده، فقال : لا، والله ولا كرامة ! ثم اندفع يغنى الثانى ، فقلن لسيدهن : ويحك والله ! إن هذا أحسن الناس غناء، فسله أن يعيده علينا ولو مرة واحدة، لعلنا نأخذه عنه، فإنه إن فاتنا لم نجد مثله أبدا. فقال : فقد سمعتن سوء رده عليكن، وأنا خائف مثله منه، وقد أسلفناه الإساءة فاصبرن حتى نداريه. ثم غنى الثالث، فزلزل الأرض، فوثب الرجل وقبل رأسه،

وقال : يا سيدى، أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك. فقال له : فهبك لم تعرف موضعى، قد كان ينبغى لك أن تتثبت ولا تسرع إلى بسوء العشرة وجفاء القول ! فقال له : قد أخطأت، وأنا أعتذر إليك مما جرى، وأسألك أن تنزل إلى، وتختلط بى، فقال له : أما الآن فلا.

فلم يزل يرفق به حتى نزل إليه، فقال الرجل : ممن أخذت هذا الغناء ؟ قال: من بعض أهل الحجاز، فمن أين أخذه جواريك ؟ فقال : أخذنه عن جارية كانت لى، ابتاعها رجل من أهل البصرة من مكة، وكانت قد أخذت عن معبد، وعنى بتخريجها، فكانت تحل منى محل الروح من الجسد، ثم استأثر الله عز

وجل بها، ويقى هؤلاء الجوارى وهن من تعليمها، فأنا إلى الآن أتعصب لمعبد، وأفضله على المغنين جميعا، وأفضل صنعته على كل صنعة.

فقال له معبد : أو أنك لأنت هو؟ أفتعرفنى ؟ قال : لا. فصك معبد بيده صلعته، ثم قال : فأنا والله معبد، وإليك قدمت من الحجاز، ووافيت البصرة ساعة ونزلت السفينة فاقصدك بالأهواز، والله لا قصرت فى جواريك هؤلاء، ولأجعلن لك فى كل واحدة منهن خلفا من الماضية.

فاكب الرجل والجوارى على يديه ورجليه يقبلونها، ويقولون : كتمتنا نفسك طول هذا الوقت حتى جفوناك فى المخاطبة، وأسأنا عشرتك وأنت سيدنا ومن نتمنى على الله أن نلقاه.

ثم غير الرجل زيه وحاله وخلع عليه عدة خلع وأعطاه ثلثمائة دينار وطيبا وهدايا بمثلها، وانحدر معه إلى الأهواز، فأقام عنده حتى حذق جواريه ما أخذنه عنه، ثم ودعه وانصرف إلى الحجاز.

النكاح أفضل أم التخلى للعبادة

يختلف هل النكاح أفضل أو التخلى للعبادة أفضل ؟ والراجح أن الأفضل الجمع بينهما، لأن النكاح ليس مانعا من التخلى للعبادة. وقد تقرر أن أركان النكاح خمسة : العاقدان وهما الزوج والولى، والمعقود عليهما وهما الزوجة والصداق نصا كما فى نكاح تسمية، أو حكما كما فى نكاح التفويض والصيغة:

والمهر والصيغـة والزوجـان ثـم الولـى جملـة الأركــان

لكن قال الحطاب رحمه الله : الظاهر أن الزوج والزوجة ركنان، لأن حقيقة النكاح إنما توجد بهما. والولى والصيغة شرطان، أى لخروجهما عن ذات النكاح. وأما الصداق والشهود فلا ينبغى عدهما من الأركان ولا من الشروط لوجود النكاح بدونهما، لأن المضر إسقاط الصداق والدخول بلا شهود، وقد نظم العلامة المحقق أبو عبدالله سيد محمد ابن الفقيه المدرس سيد محمد ابن الفقيه العلامة: أبى القاسم بن سودة رحمه الله ما استظهره الحطاب -رحمه الله- بقوله:

إن النكاح حكمه النـدب على ما صـح مـن مذهبنا ونقـــلا
ركنـاه زوجـان وشرطـه ولـى وصيغـة لا غـير فى المحصـــل
والشاهدان الشرط فى الدخول والمهـر طـردى علـى المقـــول
وشر إسقاط الصـداق مجـرى على فساد المهــر دون حجــر
هـذا الـذى صححـه النقـــاد وكل ذى حجـى لـه منقـــاد

هذا وقد ورد فى الحض على النكاح والترغيب فيه أحاديث وآثار كثيرة. روى الإمام أحمد فى مسنده : أن رجلا دخل على النبى ﷺ يقال له عكاف ، فقال له النبى ﷺ (ياعكاف ألك زوجة) قال : لا، قال ولا جارية، قال ولا جارية،

قال (وأنت بخير موسر؟) قال: وأنا بخير موسر، قال (أنت من إخوان الشياطين، ولو كنت من النصارى كنت راهبا من رهباتهم إن من سنتى النكاح، وشراركم رابكم أراذل أمواتكم عزابكم).

شـراركم عزابكـم جافى الخبر   أراذل لأمــوات عــزاب البشــر

وقال ﷺ (يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج) وفى رواية (من كان ذا طول فليتزوج، ومن استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) أى قاطع للشهوات . وقال ﷺ (مسكين مسكين مسكين رجل ليس له امرأة قيل يارسول الله إن كان غنيا من مال؟ قال (وإن كان غنيا من المال). وقال: (مسكينة مسكينة مسكينة امرأة ليس لها زوج. قيل يارسول الله ، وإن كانت غنية من المال ؟ قال (وإن كانت غنية من المال).

وقال ﷺ (من كان موسرا لأن ينكح ثم لم ينكح فليس منى وقال ﷺ . (إذا تزوج الرجل فقد استكمل نصف الدين فليتق الله فى النصف الباقى. وقال ﷺ (من تزوج يريد العفاف فحق على الله عونه) وقال ﷺ (من تزوج لله كفى ووقى).

وقال ﷺ (النكاح سنتى فمن أحبنى فليستن بسنتى) وفى رواية (النكاح سنتى فمن رغب عنه فليس منى) وقال ﷺ (تناكحوا تناسلوا فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة) وفى رواية (فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة حتى السقط).

وقال ﷺ (من ترك التزويج مخافة العيلة[1] فليس منا) زاد فى رواية (ويوكل الله به ملكين يكتبان بين عينيه مضيع سنة الله، أبشر بقلة الرزق) وقال ﷺ (من نكح لله وأنكح لله استحق ولاية الله) وقال (فضل المتأهل على العازب

---

(١) الفقر .

كفضل المجاهد على القاعد، وركعتان من المتأهل خير من اثنتين وثمانين ركعة من المعتزب) .

وقال ﷺ (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة). وفى رواية (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة تعين زوجها على الآخرة). وقال ﷺ (ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة إن امرها أطاعته وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله) وقال ﷺ (من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلا، ومن تزوجها لمالها لم يزده إلا فقرا، ومن تزوجها لحسنها لم يزده إلا دناءة، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل).

وقال ﷺ (من كان له ولد وعنده ما يزوجه به ولم يزوجه وزل فإن الإثم بينهما، فعليك بذات الدين تربت يداك). وقال ﷺ (من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر). وقال ﷺ (أربع من سعادة المرء : أن تكون زوجته صالحة، وأولاده أبرارا، وخلطاؤه صالحين، وأن يكون رزقه فى بلده) .

وقال ﷺ (تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة). وقال ﷺ لزيد ابن ثابت –رضى الله عنه– (هل تزوجت يا زيد، فقال لا، فقال له تزوج تستعف مع عفتك ولا تزوجن خمسا، فقال من هن يا رسول الله : الشهبرة والمهبرة والهبرة والهندرة واللفوت ، فقال زيد : لا أعرف شيئا مما قلت يارسول الله فقال : ﷺ أما الشهبرة : فهى الزرقا البذيئة يعنى العين، وأما اللهبرة : فهى الطويلة المهزولة، وأما الهبرة : فهى العجوز المدبرة، وأما الهندرة فالقصيرة الذميمة. وأما اللفوت ولدت الولد من غيرك) .

وجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله إنى أصبت امرأة ذات حسن وجمال وإنها لا تلد أفأتزوجها ؟ فنهاه قال : ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه

الثالثة فنهاه. قال (تزوجوا الودود الولود مكاثر بكم. وقال ﷺ «زوجوا أبناكم وبناتكم، قيل يارسول الله هذا أبناؤنا نزوج، فكيف بناتنا؟ قال : (حلوهن الذهب والفضة وأجيدوا لهن الكسوة وأحسنوا إليهن بالنحلة ليرغبوا فيهن).

وقال معاذ بن رجبل -رضى الله عنه-: صلاة المتزوج أفضل من أربعين صلاة من غيره. وقال عبد الله بن عباس -رضى الله عنهما-: تزوجوا فإن يوما مع الزواج خير من عبادة ألف عام، وقال أيضا للعزاب : تزوجوا فإن خير هذه الأمة أكثرها نساء، وقال عبد الله ابن مسعود -رضى الله عنه-، وكان مطعونا: زوجونى فإنى أكره أن ألقى الله عازبا وقال سفيان الثورى لرجل : هل تزوجت ؟ قال لا، قال ما تدرى ما أنت فيه من العافية.

وروى أن بعض المتعبدين كان يحسن القيام على زوجته إلى أن ماتت فعرض عليه التزويج فامتنع وقال : الوحدة أروح لقلبى وأجمع لهمى. قال فرأيت فى المنام بعد جمعة من وفاتها كأن أبواب السماء فتحت وكأن رجالا ينزلون ويسيرون فى الهواء يتبع بعضهم بعضا فكلما نزل واحد إلى وقال لمن وراءه هذا هو المشئوم، فيقول الآخر نعم، ويقول الثالث كذلك ويقول الرابع نعم، فخفت أن أسألهم هيبة من ذلك إلى أن مر بى آخرهم وكان غلاما فقلت ياهذا من المشئوم الذى إليه يؤمنون ؟ فقال أنت، فقلت : ولم ذلك ؟ قال كنا نرفع عملك فى عمل المجاهدين فى سبيل الله، ومنذ جمعه أمرنا أن نضع عملك مع الخالفين فما تدرى ما أحدثت، فقال لإخوته زوجونى فلم يكن تفارقه زوجتان وثلاث.

(تنبيه) قال القرطبى فى كتاب النكاح من شرحه للإمام مسلم ما نصه : وما دلت عليه الأحاديث من أرجحية النكاح أى وأفضليته هو أحد القولين وهذا حين كان فى النساء المعونة على الدين والدنيا، وقلة الكلف، والشفقة على الأولاد. وأما فى هذه الأزمنة فنعوذ بالله من الشيطان ومن النسوان، فوالله الذى لا إله إلا هو لقد حلت العزوبة والعزلة، بل ويتعين الفرار منهن ولا حول ولا قوة إلا بالله.اهـ.

ويدل له ما في عوارف المعارف للإمام السهروردى عن عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ «ليأتين على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه إلا من فر من قرية إلى قرية ومن شاطئ إلى شاطئ . ومن جحر إلى جحر كالثعلب الذى يزوغ ؟ قالوا ومتى ذلك يارسول الله ؟ قال : إذا لم تنل المعيشة إلا بمعاصى الله فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة) قالوا وكيف ذلك يارسول الله وقد أمرنا بالتزويج ؟ قال : إنه إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه، فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده، فإن لم تكن له زوجة ولا ولد فعلى يد قرابته قالوا: وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال يعيرونه بضيق المعيشة فيتكلف مالا يطيق حتى يوردوه، وارد الهلكة» اهـ.

ومما فيها أيضا ونصه : وفى الخبر «يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده يعيرونه بالفقر، ويكلفونه مالا يطيق، فيدخل المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك».

فوائد

(الأولى) للنكاح فوائد، أعظمها طلب الولد، وآفات وأعظمها الحاجة إلى اكتساب الحرام، وقد جمعت فوائده مع بعض آفاته يقول :

فوائـد النكاح غـض البصـر	تحصين فرج ورجـا نسـل در
تصفيـة القلب كـذا تقويتــه	على العبـادة كذا استراحتـه
مـر تدبـير المنزل والتـكيــف	رياضـة للنفس فراغ واكتـف
والغنى أيضا واطلاع الإنسان	على الذى يشوقـه إلى الجنان
آفاتـه العجـز عن الحـلال	وعن حقوقهـا فى كـل حـال

(الثانية) قال أبو العباس الونشريسى فى اختصاره نوازل البرزلى ما

نصه : وقال الصالح أبو بكر الوراق : كل شهوة تقسى القلب إلا شهوة الجماع فإنها تصفيه، ولهذا كان الأنبياء عليهم السلام يفعلونه. وفى الحديث (حبب إلى من دنياكم : النساء، وجعلت قرة عينى فى الصلاة).

(الثالثة) وردت أحاديث كثيرة فى فضل النفقة على العيال بالنية الصالحة ومن حلال قال رسول الله ﷺ (إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها صلاة ولا صوم ولا جهاد إلا السعى على العيال) أو كما قال . وقال ﷺ (من كان له ثلاث بنات فأنفق عليهن وأحسن اليهن حتى يغنيهن الله عنه أوجب الله له الجنة ألبتة إلا أن يعمل عملا لا يغفر له) وكان ابن عباس -رضى الله عنهما- إذا حدث بهذا الحديث قال : هو والله من غرائب الحديث وغرره. وقال ﷺ (فضل دينار ينفقه الرجل : دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته فى سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله) قال أبو قلابة -رضى الله عنه- : بدأ بالعيال، وأى رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم.

وقال ﷺ (إذا بات أحدكم مغموما مهموما من سبب العيال كان أفضل عند الله من ألف ضربة بالسيف فى سبيل الله عز وجل) وقال ﷺ (إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت صدقة) وقال ﷺ (اليد العليا أفضل من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول. أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك فادناك).

وقال ﷺ (ما أنفقه الرجل على نفسه وأهله وولده وذى رحمه وقرابته فهو له صدقة، وما وقى المرء به عرضه كتب له صدقة، وما أنفق المؤمن من نفقة فإن خلفها على الله والله ضامن. وقال ﷺ (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان فى ينزلان فيقول أحدهما: اللهم اعط منفقا خلفا، ويقول الآخر : اللهم اعط ممسكا تلفا وقال ﷺ (من عال ابنتين أو ثلاثا أو أختين أو ثلاثا حتى بين أو يموت عنهم كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين). وأشار بأصبعه السبابة والتى تليها،

(وكان له أجر مجاهد فى سبيل الله صائما قائما)، قالت امرأة وواحدة يا رسول الله ؟ قال : وواحدة قال ﷺ (إن المعونة تأتى من الله على قدر المؤنة، وإن الصبر يأتى من الله على قدر البلاء، وأول ما يوضع فى ميزان العبد يوم القيامة نفقته على أهله).

وقال ﷺ (إذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله بالعيال ليغفرها له) وقال (إن الله يحب العبد المتعفف أبا العيال) وقال ﷺ (من بات متعبا فى طلب معاش أولاده بات مغفوراً له .

وقال ﷺ (من طلب الدنيا حلالا واستعفافا عن المسئلة، وسعيا على عياله، وتعطفا على جاره جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، ومن طلبها حلالا تكاثرًا مفاخراً مرائيا لقى الله يوم القيامة وهو عليه غضبان)،

وفى حديث أنس -رضى الله عنه- قال : قلت يارسول الله الجلوس مع العيال أفضل أم الجلوس فى المسجد ؟ قال : (الجلوس ساعة مع العيال أحب إلىَّ من الاعتكاف فى مسجدى هذا)، قال : قلت يارسول الله النفقة على العيال أحب إليك أم النفقة فى سبيل الله ؟ قال (درهم ينفقه الرجل على عياله أحب إلىَّ من ألف دينار ينفقه فى سبيل الله) وقال ﷺ (إن فى الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها قيل : ومن سكانها يارسول الله ؟ قال (الذين يطعمون الطعام . ويطيبون الكلام، ويديمون الصيام، ويفشون السلام، ويصلون بالليل والناس نيام)، قالوا يارسول الله ومن يطيق ذلك ؟ قال : من قال (سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر فقد أطاب الكلام، ومن أطعم أهله فقد أطعم الطعام، ومن صام رمضان فقد أدام الصيام، ومن لقى أخاه يسلم عليه فقد أفشى السلام ، ومن صلى العشاء الآخرة والفجر فقد صلى بالليل والناس نيام) أى اليهود والنصارى والمجوس.

(الرابعة) يروى أن رجلا جاء إلى أصحاب رسول الله ﷺ اشتكى إليهم زوجته، فقال كل واحد فى ذلك ما أسمع من النبى ﷺ، ثم بعثوا إلى زوجته بذلك مع حذيفة بن اليمان -رضى الله عنه-، فقال أبو بكر الصديق -رضى الله عنه- : سمعت رسول الله ﷺ يقول (لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها).

وقال عمر -رضى الله عنه- : سمعت النبى ﷺ يقول (أيما امرأة رفعت صوتها فوق صوت زوجها لعنها كل شىء طلعت عليه الشمس إلا أن تتوب وترجع) .

قال عثمان بن عفان -رضى الله عنه- : سمعت النبى ﷺ يقول (لو أن امرأة ملكت الدنيا كلها وانفقتها على زوجها ثم منت بذلك عليه، أحبط الله عملها وحشرها مع فرعون).

وقال على بن أبى طالب -رضى الله عنه- : سمعت رسول الله ﷺ يقول (لو أن امرأة طبخت ثديتها وأطعمتها زوجها ما أدت حقه) .

وقال معاوية ابن أبى سفيان -رضى الله عنه- : سمعت رسول الله ﷺ يقول (أيما امرأة أخذت من متاع زوجها شيئا إلا كان عليها وزر سبعين سارقا)،

وقال تميم الدارى -رضى الله عنه- : سمعت النبى ﷺ يقول (أيما امرأة قالت لزوجها مالك لا يقبل الله عذرها يوم القيامة).

وقال عبد الله بن عباس -رضى الله عنهما- : سمعت النبى ﷺ يقول (أيما امرأة كان لها مال فطلبه منها زوجها فمنعته منه إلا منعها الله يوم القيامة ماعنده) ،

وقال عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه- : سمعت النبى ﷺ يقول (أيما امرأة خانت زوجها فى بيتها أو فراشه إلا أدخل الله عليها فى قبرها سبعين ألف حية وعقرب يلسعونها إلى يوم القيامة).

وقال عمرو بن العاص -رضى الله عنه-، سمعت النبى ﷺ يقول (أيما امرأة خانت زوجها فى فراشه إلا أدخلها الله النار، ويخرج من فمها القيح والدم والصديد) .

وقال أنس -رضى الله عنه- : سمعت رسول الله ﷺ يقول (أيما امرأة وقفت مع غير زوجها ويكون غير ذى محرم منها إلا أوقفها الله على شفير جهنم، ويكتب لها بكل كلمة ألف سيئة) .

وقال عبد الله بن عمر -رضى الله عنهما-: سمعت النبى ﷺ يقول : (أيما امرأة خرجت من بيت زوجها إلا لعنها كل رطب ويابس).

وقال طلحة بن عبيد الله -رضى الله عنه- : سمعت النبى ﷺ يقول (أيما امرأة قالت لزوجها ما رأيت منك خيرا قط إلا أيسها الله من رحمته).

وقال الزبير بن العوام -رضى الله عنه- : سمعت رسول الله ﷺ يقول (أيما امرأة شغلت بإذائة زوجها حتى يطلقها فعليها عذاب الله).

وقال سعد بن أبى وقاص -رضى الله عنه- : سمعت رسول الله ﷺ يقول (أيما امرأة كلفت زوجها فوق طاقته إلا عذبها الله مع اليهود والنصارى).
وقال سعيد بن المسيب قال رسول الله ﷺ : (أيما امرأة عبست فى وجه زوجها إلا جاءت يوم القيامة مسودة الوجه إلا أن تتوب وترجع).

وقال أبو عبيدة بن الجراح -رضى الله عنه- : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أيما امرأة أغضبت زوجها وهى ظالمة أو غضبت عليه، لم يقبل الله منها صرفا ولا عدلا).

وقال عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه- : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لعن الله المسوفات . قيل : وما المسوفات يارسول الله ؟ قال : التى يدعوها زوجها إلى الفراش فتسوف له تشتغل عنه حتى يغلبه النوم).

وقال أبو هريرة -رضى الله عنه- : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أيما امرأة نظرت فى وجه زوجها ولم تضحك فإنها لا ترى الجنة أبداً إلا أن تتوب وترجع ويرضى عنها زوجها).

وقال سلمان الفارسى -رضى الله عنه- : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أيما امرأة تتطيب وتتزين وتخرج من بيتها إلا خرجت فى غضب الله وسخطه حتى ترجع إلى بيتها) .

وقال بلال بن حمامة -رضى الله عنه-، سمعت رسول الله ﷺ يقول (أيما امرأة تصلى وتصوم بغير إذن زوجها إلا كانت صلاتها وصيامها لزوجها وعليها الإثم).

وقال أيضا : سمعت رسول الله ﷺ يقول (أيما امرأة أغضبت زوجها لا يقبل الله منها صلاة ولا صياما إلا أن تتوب وترجع)،

وقال أبو الدرداء -رضى الله عنه- : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أيما امرأة أفشت سر زوجها إلا فضحها الله يوم القيامة على رءوس الخلائق، وفضحها فى الدنيا قبل الآخرة).

وقال أبو سعيد الخدرى -رضى الله عنه-، سمعت رسول الله ﷺ يقول (أيما امرأة نزعت ثيابها فى غير بيت زوجها إلا كان وزر جميع الموتى عليها، ولا يقبل الله منها صرفا ولا عدلا) .

وقال العباس ابن عبد المطلب -رضى الله عنه- : سمعت رسول الله ﷺ يقول (اطلعت على النار فرأيت اكثر أهلها النساء، وما ذاك إلا من كثرة

عصيانهن لأزواجهن). وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من علامة رضا الله تعالى عن المرأة أن يرضى عنها زوجها).

الفائدة الخامسة : يعتبر فى كل من الزوجين أمور ، فما يعتبر فى الزوج من يكون كفؤا لها، لقوله ﷺ (النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته فلا يزوجها إلا ممن كان كفؤا لها) أى مماثلا أو مقاربا. والمعتبر فى الكفاءة عند الأئمة : الدين، والنسب، وتمام الخلقة، واليسار والحرفة الجليلة، وينبغى له أن ينوى بتزويجه اتباع السنة، وتكثير أمة النبى ﷺ، والقيام بحسن الرعاية على الزوجة وحفظ الدين ورجاء ولد صالح يدعو له، لقوله عليه الصلاة والسلام (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى).

ومما يعتبر فى الزوجة أن تكون خالية من موانع النكاح، ومن الزوج وعدته، وأن تكون عارفة بما انطوت عليه الشهادتان، وأن تكون ذات دين، لقوله ﷺ (تنكح المرأة لمالها وجمالها ونسبها ودينها، فعليك بذات الدين تربت يداك). وقوله ﷺ (من نكح المرأة لمالها وجمالها حرمه الله مالها وجمالها، ومن نكحها لدينها رزقه الله مالها وجمالها).

وقوله ﷺ (لا تنكح المرأة لجمالها، فلعل جمالها يزديها. ولا لمالها، فلعل مالها يطغيها)، وأن تكون طيبة الأخلاق لقوله ﷺ (استعينوا بالله من المنفرات) قيل : وما المنفرات يارسول الله ؟ قال : الإمام الجائر، يأخذ منك الحق ويمنعك الحق ، والجار السوء، عيناه تراك وقلبه يرعاك إن رأى خيرا سره وإن رأى شرا أظهره والمرأة السوء تشيب قبل المشيب) .

وأن لا تكون عقيما، لقوله ﷺ (تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم، ولا تنكحوا عجوزا ولا عاقرا، فإن ذرارى المسلمين تحت ظل العرش يحضنهم أبوهم إبراهيم خليل الله يستغفرون لآبائهم .

وأن تكون بكرا. لقوله ﷺ (عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواها، وأقبل أرحاما ، وأحسن أخلاقا) وأن تكون أجنبية ، لقوله ﷺ (لا تنكحوا القرابة فإن الولد يخلق ضاويا) أى نحيفا، وذلك لضعف الشهوة معها بخلاف الغريبة، وهذا فى انبعاث قوة الإحساس لشهوة قط. وأما من حيث العيش والهنا مع الغريبة أفضل لأن القريبة قل أن تخون زوجها وتحفظ وتصبر لإذايته، وتقنع بالقليل معه ولا تذمه، ولا تسمح فى ذمه، ولا تركن إلى غيره، وتأخذها غيرة القرابة عليه زيادة على غيرة الزوجية، وقل أن توجد هذه الخصال فى غير الغريبة وأن تكون جميلة الصورة، لأن ذلك أبلغ فى الألفة وفى هذا المدر كفاية والله ولى التوفيق والهداية. ثم قال الناظم رحمه الله :

(القبول فيما جاء فى السناء مهذب لمسعى على الولاء)

ذكر -رحمه الله- فى هذه الترجمة ما يطلب فى البناء : أى دخول الزوج بزوجته وما يتقى فيه، ما هو الأفضل، وما يطلب فى الوليمة، وما يجتنب وقت الدخول وآدابه، وكيفية الجماع وآدابه، وما يتعلق بذلك،

وأخبر -رحمه الله- أن البناء يستحب أن يكون ليلا لقوله ﷺ (زفوا عريسكم ليلا. وأطعموا ضحى) وأن الشهور فى ذلك كلها سواء. لكن يستحب شوال، خلافا لمن زعم من الجهال كراهية العقد والدخول فى المحرم وشوال. فعن عائشة رضى الله عنها قالت (تزوجنى رسول الله ﷺ فى شوال وبنى بى فى شوال، فأى نساء رسول الله ﷺ كانت أحظى عنده منى؟) وقالت -رضى الله عنها- تستحب أن تدخل نساءها فى شوال ، وكان ﷺ يستحب النكاح فى رمضان.

وأخبر -رحمه الله- أن البناء يتقى فى ثمانية أيام، يوم الأربعاء الأخر من أشهر الحديث (آخر أربعاء فى الشهر يوم نحس مستمر) ذكره فى الجامع

الصغير (ضعيف)، والثالث من كل شهر. والخامس من كل شهر، والثالث عشر من كل شهر، والسادس عشر من كل شهر، والحادى والعشرين من كل شهر والرابع والعشرين من كل شهر، والخامس والعشرين من كل شهر، فهذه الأيام الثمانية ينبغى للمرء أن يتوقاه فى الأمور المهمة كالنكاح والسفر وحفر الآبار وغرس الشجر ونحو ذلك، كما روى ذلك عن سيدنا على ابن أبى طالب -رضى الله وعنه-.

أسطورة عن حواء(١)

فماذا صنعت حواء بآدم فى الأرض بعدما هبطت إليها معه؟ الإجابة فى أسطورة هندية قديمة تقول : فى أول الأمر خلق الإله نواشترا الإنسان الأول فى سهولة ويسر، ولما هم أن يخلق الإنسانة الأولى فكر مليا : أيخلقها كما خلق زوجها ومما خلقه. أم يخلقها خلقا آخر؟ وانتهى تفكيره إلى أن يأخذ من الشمس ضياءها، ومن القمر نوره، ومن النار حرارتها، ومن الثلج برودته، ومن الحية نعومتها، ومن النعامة إهطاعها(٢).

ومن الظبى إجفالها(٣) ومن النمرة شراستها، ومن الطاووس زهوه، ومن الحمامة هديلها ومن الببغاء ثرثرته، ومن الكلب وفاءه، ومن صوت البلبل عذوبته، ومن غصن البان رشاقته، ومن الخيزران لدونته، ومن الهواء تقلبه، ومن النسيم رقته، ومن ورق الشجر هزته، ومن الزهر شذا عرفه، ومن السحاب الهتان دموعه، ومن العسل حلاوته، ومن الحنظل مرارته، ومن الماس صلابته، ومن الماء سلاسته، ومزج هذا الخليط المتناقض العجيب، وخلق منه المرأة ثم وهبها للرجل، ففرح بها حين شاهدها، واجتلى محاسنها، وأخذ بيدها، وسار بها إلى جنته.

(١) نساء الخليج - أحمد زيادة - مركز الراية للنشر والاعلام.

(٢) سرعتها . (٣) سرعتها بإنزعاج

ولم يمض على وجودها معه شهر وبعض شهر حتى أسرع إلى خالقه وناجاه بقوله :

إلهى : إن هذه المخلوقة التى وهبتها لى قد أحالت حياتى جحيما، والنعيم الذى كنت فيه مقيما قبل أن ألقاها شقاء، فهذه ثرثارة لا يكل لسانها من الكلام، وفوق ذلك فهى لا تفتأ تحتاج إلى أن تحاط بعناية دائمة ورعاية مستمرة، إذا رجعت من رحلة صيد متعبا فنمت أيقظتنى لأؤنسها، مدعية أنها مؤرقة، وإذا خاصمنى النوم وأرقت أسرعت إلى النوم وآذتنى بشخيرها وغطيطها، ولهذا كله فقد جئتك لأردها إليك، لأنى لا أطيق العيش معها، فحدجه الإله بعين فاحصة وقال له : «أجل.! هاتها وانصرف». وانصرف الرجل إلى وحدته باسما .

ولم يمض على ذلك غير شهر أو بعض شهر حتى جاء إلى ربه، ودعاه بقوله : «إلهى، قد رددت إليك هذه المخلوقة التى وهبتها لى، وأصبحت أشعر بالوحدة، ولم أكن أشعر بها قبل اجتماعى بها، وأصبحت حياتى بعد فراقها فارغة، لقد افتقدت أنسها، وحديثها الحلو الممتع، ودعابتها المرحة، وعبثها المسلى، وصوتها العذب الرخيم، ورقصاتها البديعة، وجميل وداعها فى الصباح عند غدوى بكرة للصيد، وحسن استقبالها لى عند رواحى إليها، وتمهيدها الفراش عندما تلمح أننى أجنح للنوم، فهلا رددتها إلى ثانية !، فأنعم الإله النظر فيه ثم قال له : «أجل خذها فهى لك».

وبعد ثلاثة أيام جاء الرجل إلى الإله، وعلامات الضيق والحرج والاضطرابات بادية على وجهه. وقال : «إلهى إنى لفى حيرة شديدة، فلقد حاولت أن أسبر غور هذه المخلوقة فلم أوفق» إنها سر مغلق، لم أستطع كشفه، فهلا أخذتها! فصاح فيه الإله قائلا: «اغرب عنى أيها المخلوق الجحود، لا أريد أن استمع إلى شكاياتك بعد اليوم. إنك لا تدرى ما تريد، وما لا تريد». فقال الرجل

متوسلا : إننى لا استطيع العيش معها! فقال له الإله :« وإنك لا تستطيع العيش بدونها » فتولى الرجل يائسا وهو كظيم.

ولا تقف الأسطورة عند ذلك بل إنها تكمل فتقول : ترددت المرأة قليلا بعد انطلاق الرجل إلى جنته، ثم تبعته، وهناك عاشت معه، صابرة على جفاء طبعه وصده، متجافية عن استطالته وفظاظة قلبه، متغابية عن إساءاته المتعمدة إليها متجاوزة عن تهوينه من شأنها، بسبب وبغير سبب، صبرت على هذا الحال شهرا كاملا، ولما نفذ معين صبرها، سارعت إلى ربها باكية شاكية وقالت له : ربى . إن هذا المخلوق الذى وهبتنى له، قد ضقت ذرعا بأنانيته، وصلفه وقسوته، إنه لم يحسن عشرتى إلا يوما واحدا، ثم بدأ يتنكر لى ، ويتنفر (يغضب) على، وعلى الرغم من سهرى على راحته، وتحرى مواضع رغباته، فإنه كان يعرض عنى إذا أقبلت عليه، ويقصينى إذا دنوت منه، ولا يصغى إلى إذا تحدثت إليه، وإذا أشرت عليه برأى خطأه، وإذا فعلت فعلا قبحه، وإذا هفوت هفوة أقام الدنيا وأقعدها، لقد صبرت وأغضيت جفونى علي القذى، وسحبت ذيلى على الأذي، وأقول : لعل وعسى، ولكنه لم يكفكف من إساءاته، بل أمعن فيها وتمادى .. إننى لا أريد العيش معه . فابتسم الإله نواشترا، وأشار بيده، فإذا الجنة التى كانا يسكنانها جنتان، بينهما سد عال سميك متين.

فسرى عن المرأة ما كانت تجده من الضيق والهم، وذهبت إلى جنتها ترقص وتغنى. ولم يمر على انفصالها عن الرجل غير سبعة أيام حتى جاءت إلى الإله تسعى، وقالت له ، وهى تكفكف الدمع: إلهى : إننى ندمت بزوجى وذريت عليه، فسردت على مسامعك مساوئه وعيوبه، وأغفلت محاسنه وفضائله، لقد ذكرت مُره، وأنسانى الشيطان أن أذكر حلوه، لقد كشفت لى الأيام القلائل التى حيل بينى وبينه فى أثنائها أنى لا أستطيع العيش بدونه، لقد ظللت طول هذه المدة خائفة أترقب، إذا تحرك غصن ذعرت، وإذا عوى ذئب نهضت الرعدة فى

مفاصلى وهرولت إلى كوخى، وأغلقت بابه، ولقد كنت من قبل أجوب الغابة أجمع الجذور والثمار، غير هيابة ولا وجلة، لعلمى أنه من ورائى، يمنعنى ويحمينى، كنت إذا دعوته هرع إلى ، وإذا استصرخته سارع إلى نجدتى ..لا . لا ! أنا لا أقوى على فراقه ! لقد افتقدته حين فقدته، لقد كان جارى وأمانى، ومعقلى الذى كنت به أعتصم فابتسم الإله، وأشار بيده إلى السور الحائل بين الجنتين، فزال، وأصبحنا جنة واحدة، ثم التفت إليها قائلا :

إذهبى إليه، هو لباس لك، وأنت لباس له، كل منكما يسعد صاحبه ويشقيه، ويتأبى عليه وهو راغب فيه، ويفزع إليه إذا حزبه أمر، ويستند عليه إذا أثقله هم، ويتخذ كل منكما الآخر ستارا يصد عنه خائنة الأعين، ومرآة يرى فيها حسناته وسيئاته، ومحاسنه وعيوبه.

ويلاحظ من الأسطورة أن شكوى الرجل كانت من الوحشة عند ابتعاد المرأة عنه، وأنه احتار فى فهمها، وأنها لغز استعصى عليه، كما يلاحظ من شكوى المرأة الضعف، والاحتياج للحماية والأمن. وربما يكون ذلك قريبا من الحقيقة، فإن الله خلق فى الرجل مميزات، وفى المرأة مميزات وجعل بينهما فروقا، وقد حاول العلماء والباحثون معرفة الفروق بين الرجل والمرأة وقسموها إلى فروق مادية، وفروق عقلية، ويمكن إجمال الفروق المادية فيما يلى :

أ- أن الأنثى عندما تولد يكون جسمها أكمل تكوينا، وأقوى من جسم الذكر عندما يولد، كما تكون أقل عرضة للإصابة بأمراض الطفولة فيه، وبالبحث عن السبب فى ذلك وجدوا أن الله تبارك وتعالى أمد جسم الأنثى بطبقة من الشحم تساعد على ملأ الفراغات العضلية وتعطى الاستدارة والشكل الجميل حول الركبة والذراعين لتكوين الجسم الجميل المتناسق الجذاب.

ب- أن الفتاة عندما يكتمل نموها تكون أقدر من الفتى المكتمل النمو على

العمل الذى يحتاج إلى مثابرة وصبر، ولكنها فى الوقت نفسه تكون أقل قدرة على العمل الشاق الذى يحتاج إلى قوة فى العضلات كحمل الأثقال.

جـ- أن مخ الذكر أكبر من مخ الأنثى بمقدار ١٢٪ في المتوسط، ومع ذلك فإن ذكاءها لا يقل عن ذكائه عادة، وعندما بحثوا عن السبب وجدوا أن حجم المخ يتناسب مع حجم الجسم، ولما كان جسم المرأة عادة أقل من جسم الرجل، كان مخها أصغر من مخه.

د- بإجراء البحوث على عضلات الرجل والمرأة ثبت أن وزن عضلات المرأة أقل من وزن عضلات الرجل، وأنها تقل فى قوتها عن عضلات الرجل بمقدار ٢٥٪ وأن عضلاتها تزداد بالرياضة بنسبة ٤٪ وأن عضلات الرجل تزداد بالرياضة بنسبة ٦٪، وأن عضلات المرأة تساوى ٢٤٪ من وزنها، ووزن عضلات الرجل يساوى ٤٠٪ من وزن جسمه.

هـ- تحتاج المرأة كمية من الأوكسجين أكثر مما يحتاجه الرجل لتأدية نفس العمل، وأن قلبها يدفع ويستقبل ٣٥ لتراً من الدم فى الدقيقة الواحدة، على حين أن قلب الرجل يدفع ويستقبل ٣٧ لتراً فى الدقيقة الواحدة.

و- المرأة بوجه عام أسمن من الرجل فجسم الرجل العادي يحتوى من الشحم على ١٤٪ من وزنه، على حين أن جسم المرأة العادية يحتوى على ٢٨٪ من وزنه شحما.

أما بالنسبة للفروق العقلية والنفسية، فقد أثبتت الأبحاث والدراسات والتجارب ما يلى :

أ- قال بعض علماء النفس : إن المرأة ينتابها القلق، وتتهيج أعصابها أكثر من الرجل، وأنها أكثر منه حساسية، ولهذا فإنها أقدر منه على تمييز الألوان، وأنها أصدق حدسا منه، وبالغ البعض فقال : إنها تسمع بأذن ثالثة، وترى بعين

ثالثة خلف الرأس، وقال بعضهم : إن لها حاسة سادسة ، إذ إن كثيرا ما تشعر الأم بأن حادثا وقع لأحد أبنائها، ويصدق حدسها.

ب- واثبتوا بالتجارب أيضا أن المرأة أكثر ثرثرة من الرجل وأجروا تجربة على عدد كلمات الرجل والمرأة فى مدة محددة، فكانت النتيجة أنه كلما تكلم الرجل أربع كلمات تتكلم المرأة خمسا. وبالبحث عن السبب وجدوا أن المرأة أسرع فى إبداء الرأى من الرجل، لأن الرجل لا يبدى رأيه قبل أن يفكر فى الأمر، ويفحصه، ويقلب فيه وجهات النظر، ويتبين الخطأ والصواب، ومع ذلك فإن المرأة أقدر على ضغط مشاعرها مع أنها أضعف من الرجل فى السيطرة على دموعها. واثبتوا أنها أسرع من الرجل إلى تقليد غيرها وأقل ثباتا على الرأى من الرجل.

جـ - أثبتت الدراسات النفسية أن المرأة أسبق من الرجل فى التعلق والحب، ولكنها أكثر منه حياء، لذا قيل عن النساء «يتمنعن وهن الراغبات».

د - ثبت أن المرأة أقل إقداما على الانتحار من الرجل، وأنها أكثر تأثرا بالثناء عليها، وقال بعض علماء النفس : إن المرأة تود من صميم قلبها أن تستمع إلى من يمدحها ويثنى عليها حتى ولو كانت تعلم أن ما يقوله فيها هو مجاملة أو كذبا.

هـ- أثبت العلماء أن الرجل أسرع من المرأة فى المساهمة في عمل الخير، وأنه أوسع خيالا وأكثر تحليقا فى السماء منها، ولعل هذا هو سبب كثرة الفلاسفة والشعراء والمفكرين من الرجال، وقلتهم بين النساء، ومع ذلك فإن المرأة خير من الرجل فى الأمور النظرية بينما هو أقدر منها فى الشئون العملية.

و - التجارب أثبتت أن المرأة أكثر تقديرا للواقع، وأحرص على المال من الرجل، وأنها تبتعد عن المغامرة، بعكس الرجل، لذا فإن الثورات السياسية والدينية والاجتماعية قام بها رجال، حتى مطالبة تحريرها قام بها رجال.

ز- المرأة متقلبة حادة العاطفة، سريعة الغضب، سريعة الرضا، ترق فتذوب حنانا، وتقسوا إلى حد الانتقام، فحنانها على أطفالها يجعلها ملاكا طاهرا، وقسوتها على أطفال ضرتها تحولها إلى شيطان رجيم، بعكس الرجل الذى يعتدل فى حبه ورضاه وغضبه، والذى يحنو على أبناء زوجته من رجل آخر، وينفق عليهم عن طيب خاطر.

كانت هذه نتائج دراسات علماء النفس وعلماء الاجتماع والأطباء وقد أدلت المرأة بدلوها فى هذا الميدان، ويمكن إضافة رأى اثنتين من الباحثات فى علم النفس حتى تكتمل الصورة برأى المرأة فى المرأة فالطبيبة وعالمة الاجتماع وأخصائية علم النفس الألمانية (استرفلار) ألفت كتابا وصفت فيه كل بنات جنسها بالغباء والقسوة، والاستبداد والظلم، فى الوقت الذى وصفت فيه الرجل بأنه طيب القلب، وأنه على الرغم من شجاعته وشهامته يخضع لزوجته، التى تستبد به، وتذله ذل السيد القاسى لعبده.

أما العالمة النفسية الفرنسية مرجريت كابور فقد أجرت دراسة مستفيضة عن بحث أوجه الخلاف بين الرجل والمرأة خلاصتها : «أن المرأة مشتتة الأفكار، ولهذا يستعصى عليها البحث عن بلد ما فى خريطة ما، ولا تستطيع أن تتذكر فريق كرة القدم المهزوم فى إحدى المباريات الموسمية، ولا تهتم بمعرفة رقم سيارة زوجها، ولكنها تستطيع أن تذكر تفاصيل الملابس التى كان يرتديها زوجها فى أول لقاء لهما قبل زواجهما، وقد يكون قد مر على ذلك عشرات السنين، كما تستطيع أن تحسب فى دقائق معدودة ثمن غداء أو عشاء عشرة ضيوف، وهى تقوم بكىّ ملابس زوجها، أو في أثناء قيامها بصنع كعكة، أو فى أثناء مساعدة ابنها فى مذاكرة دروسه!

على حين أن الرجل يستطيع أن يحذق ميكانيكية الطائرات النفاثة وتركيب أجزاء التليفزيون، ولكنه لا يعرف كيف يشبك المشبك أو الدبوس فى ملابس أحد

أطفاله، كما لا يستطيع إصلاح سوستة فستان زوجته، ولكنه يستطيع أن يذكر رقمه فى الجيش أثناء تجنيده، وقد يكون مضى على ذلك عشرات السنين، وأرقام الملفات التى يوزع عليها أوراق عمله المختلفة، ولكنه فى الوقت نفسه لا يذكر مقاس قمصانه أو جواربه أو أعمار أطفاله، أو تاريخ ميلاد زوجته!

وهى لا تستطيع أن تحل عقدة إلا بشق نفسها على حين يحلها هو فى سهولة ويسر، ولكنها فى الوقت نفسه تستطيع أن تلف شعرها حول «البيجودى» بطريقة معقدة لا يستطيعها الرجل!

والرجل يصل إلى قرارات حازمة فى الشئون المالية التى تتعلق بمستقبل أسرته فى بضع دقائق، ولكنه يلجأ إلى زوجته ليستشيرها فى لون ربطة العنق (الكرافتة) التى يلبسها على بدلته السوداء أو الزرقاء أو الحمراء وفى اختيار الهدية التى يقدمها لصديق له فى مناسبة من المناسبات!.

المرأة العربية فى الخليج

لم تحظ امرأة فى التاريخ بالتكريم والإعزاز والتقدير بمثل ما حظيت به المرأة فى الخليج العربى سواء فى جاهليتها أو إسلامها.

ففى الجاهلية كانت كفء الرجل وشريكته فى كل أموره، بل إنها كانت أعز عليه من حياته نفسها، يدفعها حماية لها وذودا عن عرضها، وكان يكفى أن يرى العربى زوجته أو أخته أو أمه أو إحدى بنات قبيلته تعرضت لموقف هوان أو جرح كرامة، حتى يستل سيفه، ويقتحم الموت. فإما قتل من تعرض لحريمه، أو دفع حياته ثمنا لعرضه.

ولذلك عندما كان يراها وهو يقاتل أو يسمع صوتها، حتى يتحول من موقف الضعف إلى القوة، ومن الهزيمة إلى النصر، ويتضاعف حماس الفارس وزمرة الفرسان لو شجعهن النساء، وأشعلوا نار الحمية فى قلوبهم.

خاصة إذا أنشدن الشعر الملتهب الذى يركز على الهمة، واستثارة العاطفة لدى الرجال، فعندما وقعت حرب البسوس بين بكر وتغلب كانت الغلبة لتغلب دائما، لكن عندما أرسل الحارث بن عباد ابنه بجيرا للمهلهل سيد تغلب ليقتله فداء لكليب أخو المهلهل. قتله المهلهل وقال بؤ بشسع نعل كليب. ثار الحارث وقال إن قتل الأحرار بالشسع غالى» وجهز جيشا ضخما وحشد النساء وراء الفرسان حتى لا يفر الرجال ويتركن أعراضهن، فكانت النساء تداوى جرحى القبيلة، وتنقذ الفرسان الجرحى، وتجهز على فرسان تغلب الجرحى. ولم يقتصر دور النساء على ذلك، بل تعداه إلى دور ترجيح النصر لبكر على تغلب، عندما اقتحمت ابنتا «الفند الزمانى» صفوف بكر وأخذتا تثيران الرجال بالشعر من قصيدة أولها :

وغـى وغـى وغـى وغـى	حـــر الحـــرار والتـظـــى
وملئـت منـــه الرُّبـــى	يا حبذا المحلقون بالضحى

وكانت بكر قد حلقت رءوسها لتعرف النساء فرسانها فتداويهن ويميزنهن من فرسان تغلب.

واندفعت خلفهما كرمة بنت ضلع أم مالك بن زيد، بطل بكر، فانشدت شعرا يحول الجبان الرعديد إلى فارس مغوار، ومن بين ما أنشدت :

نحـن بنـات طـــارق	نمشـى على النمـارق
مشى القطـى البارق	المسك فـى المفـارق
والـــدر فـى المخانـق	إن تقبلـــوا نعـانـــق
وإن تـدبـــروا نفـــارق	فـــراق غير وامـــق
عرسُ المـولى طـالــق	والعـار منـه لاحـــق

وكانت كلماتها صواريخ موجهة لقلوب الرجال أججت فيها الحماسة وأشعلت الشجاعة، وجعلتهم يطلبون الموت، حتى لا تطلق نساؤهم، ولا يلحقهم العار، فاقتحموا صفوف تغلب، وأعملوا فيهم السيوف، بحملة صادقة جسور، لم تهدأ حتى سقطت تغلب بين قتيل وأسير، بسبب المرأة التى شجعت الرجال، وذكرتهم بالعار الذى تجلبه الهزيمة.

ولم تكن حماية المرأة والموت دون عرضها قاصرة على بنات القبيلة بل إن العرب جميعهم قد يمتشقون الحسام ويريقون الدماء، ويقدمون آلاف الضحايا من أجل امرأة واحدة، والتاريخ يحفظ الكثير من ذلك، ومما حفظه التاريخ ما صنعه النعمان والعرب من ورائه ضد أعتى امبراطور يملك القوة والفرسان، ويأمر فيطاع وهو « أبرويز» ملك الفرس وسيد ملوك نصف الكرة الشرقى. فقد أرسل يطلب ابنة النعمان بن المنذر ملك الحيرة لتكون زوجة له، لكن النعمان كان يعتز بعروبته ويعتبرها أعظم وأعز من كسرى وملك كسرى، فضن بها عليه، وأرسل له الرد بالرفض، وهو يعلم أن موته فى هذا الرفض، لكن عرضه أغلى من حياته.

وما إن وصل الرد لكسرى حتى هاج وتوعد، وأرسل يطلب الملك النعمان للقائه.. فأيقن النعمان بالهلاك، فجمع ما يعتز به من سلاح، وحمله هو وأمواله وابنته، وترك كل ذلك أمانه عند « هانىء بن قبيصة الشيبانى» ، ثم ذهب إلى كسرى الذى أمر بقتله دهساً بأقدام الفيلة. ولم يشف ذلك غليله، فعاود طلب بنت الملك النعمان من ابن قبيصة فرفض طلبه، فجهز كسرى جيشا جراراً وجهه عبر الخليج لبلاد العرب .

وهنا ثارت الكرامة العربية للمرأة، واجتمعت جل قبائل العرب لتحمى بنت أحدهم وتصونها، والتقت جيوش كسرى بجيوش العرب فى موقعه «ذى قار» وأريقت دماء غزيرة من فرسان الجانبين، لكن فرسان العرب تذكروا العرض

وحمايته، فانقضوا كالصواعق على فرسان الفرس، وأعملوا فيهم السيوف ففروا هاربين والعرب يتبعونهم حتى عاصمة ملكهم المدائن.

بل إن الرجل العربى كان يقتل لو اشتم رائحة إهانة لحقت بحريمه، ولا يبالى بذلك ملكا أو سواه، وقد حدثنا التاريخ أن عمرو بن هند ملك العرب قال يوما لجلسائه : هل تعلمون أحداً تأنف أمه أن تخدم أمى ؟ فقالوا: نعم. ليلى بنت مهلهل، لأن أباها مهلهل بن ربيعة، وعمها كليب وائل أعزب العرب، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب، وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه، وليث كتيبتهم، فأرسل عمرو بن هند، لعمرو بن كلثوم يدعوه لزيارته، ويدعو أمه لزيارة أمه، فأقبل عمرو بن كلثوم فى جماعة من تغلب، ومعه أمه فى زمرة من نسائها، وأمر عمرو بن هند برواقه فضربه فيما بين الجزيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه مملكته فحضروا، ثم دخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند فى رواقه ودخلت ليلى وهند فى قبة واحدة.

وكان الملك عمرو بن هند قد أمر أمه أن تبعد عنها الخدم إذا دعا بالنقل، الذى يؤكل بعد الطعام، وتستخدم ليلى بدلا من الخدم، ففعلت، ولما نادى الملك قائلا : النقل، قالت أمه هند لليلى أم عمرو بن كلثوم : ناولينى هذا الطبق. فقالت ليلى : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت هند الطلب، والحت وأكثرت الإلحاح، فصاحت ليلى : واذلاه، يالتغلب، فسمعها ابنها عمرو. فقفز من مكانه كمن لدغته أفعى، وقال : لا ذل لتغلب بعد اليوم، ثم نظر إلى سيف معلق بالرواق، ليس هناك غيره، فأخذه وضرب به رأس عمرو بن هند فشقها نصفين، وغنم من حضر من رجال تغلب كل ما فى الرواق، وعادوا إلى ديارهم.

لكن ذلك لم يكف لغسل شرف ليلى أم عمرو من الإهانة التى لحقتها من طلب أم الملك مساعدتها وخدمتها، فقام ابنها الثانى مرة بن كلثوم بقتل ولدى النعمان حتى تنطفىء النار التى اشتعلت فى قلوبهم من مظنة إهانة لحقت بأمهما.

ولا تظن – عزيزى القارىء – أن بذل الرجل دمه وروحه لحماية المرأة من باب حفظ المالك لما يملك.. أبداً، فالعرب فى تلك المنطقة القبلية من الخليج فى الجاهلية كانوا يعاملون النساء على أنهم مثلهم يقفن معهم على قدم المساواة وأمثالهم تقول : «إن النساء شقائق الأقوام» أى الرجال.

وليس هذا الكلام شقشقه لسان، بل إن له أصلا وشاهدا ودليلا من الواقع، فقد كانت للمرأة كلمة مسموعة ومحترمة مثل الرجل تماما، فلئن كان الرجل يجير من يلجأ إليه، فإن المرأة فعلت نفس الشيء وأعطت أمامنا لرجل، فلم يستطع ملك العرب أن يتجرأ عليها أو يعتدى على من أجارته، فالتاريخ يحكى : أن مروان بن القرظ بن زنباع غزا بكر بن وائل، وانصرف عنهم.

فسارت بكر خلف جيشه، فهجم رجل منهم على مروان فأسره وهو لا يعرفه، وجاء آسره إلى أمه وهو يتيه فخرا، فقالت له : إنك لتختال بأسيرك كأنك جئت بمروان بن القرظ، فقال لها مروان : وما ترتجين من مروان ؟ قالت : عظم فدائه، قال : وكم ترتجين من فدائه ؟ قالت : مائة بعير، قال مروان : لك هذا على أن تسلمينى إلى «خماعة» بنت عوف بن محلم.

وكان مروان قد صنع معروفا فى «خماعة» ، فقالت : ومن يضمن لى المائة من الإبل ؟ فأخذ قضيبا من الخشب وقال لها : اذهبى به إلى خماعة، فأرسلته إلى خماعة فأعطتها المائة من الإبل، فسلمت مروان لعوف بن محلم، فقالت ابنته خماعة : إنى أجرته من كل مكروه.

وكان مروان قد أساء إساءة بالغة إلى طاغية الحيرة عمرو بن هند، فأقسم أن لا يعفو عنه حتى يضع يده فى يده – يعنى يملكه ويقتله – فلما علم عمرو بن هند بمكانه، أرسل إلى عوف ليأتيه به، فقال عوف : قد أجارته ابنتى، وليس إليه من سبيل، فقال عمرو بن هند : لقد أقسمت ألا أعفو عنه إلا أن يضع يده فى

يدى، فقال عوف : يضع يده فى يدك على أن تكون يدى بينهما، فرضخ عمرو بن هند الطاغية لرأى عوف، إجلالا لابنته التى أجارت مروان.

ولم يقف الأمر عند إجارة المرأة وحمايتها للرجل، وإنما تعداه إلى أن يلجأ الهارب الخائف إلى خباء المرأة، ويعقد طرف ردائه بحبل خيمتها فتحميه من طالبه وينجو من الموت، لأن لها حمى لا يقرب، وساحة آمنة لا تمس، من يلجأ إليها يأمن، ولو كان جيشا كاملا يطارده، ولهذا دليل ملموس، فقد كانت سبيعة بنت عبد شمس زوجة لمسعود بن مالك الثقفى، وحدث أن نشبت حرب الفجار بين قبيلتى قيس وكنانة، وكان قائد كنانة ابن أخيها حرب بن أمية، وقيادة قيس لزوجها الذى أقام لها خيمة خلف جيشه، فدخل عليها ذات مرة فوجدها تبكى. فسألها عن السبب، فقالت : أبكى لما عساه أن يصيب قومى وعلى رأسهم ابن أخى، فقال لها : من دخل خيمتك من كنانة فهو آمن، فأخذت توسع الخمية، وتوصل بها قطعا كثيرة حتى امتدت لتسع كنانة كلها، لو لحقت بهم الهزيمة.

لكن العكس هو الذى حدث فقد انهزم زوجها وتراجعت قواته فجاء إليها ابن أخيها المنتصر، وقال لها: من تمسك بأطناب خبائك فهو آمن، ومن دار حول خبائك فهو آمن، فلم يبق من قبيلة قيس المهزومة واحد إلا تمسك بخيمتها، أو دار حولها. ونجا من الموت فى ساحة امرأة عاشت فى الخليج أيام الجاهلية.

وإن كان هذا فى شأن منزلتها الكريمة وشخصيتها المبجلة التى يحترمها الجميع ويلوذون بها ويحتمون بحماها. فإنها أيضا كانت حصيفة راجحة العقل، تتصرف أفضل من الرجال، وتجبرهم على الإقدام على الفضائل وجميل الفعال، وفى قصة سيد العرب الحارث بن عوف المرى دليل واضح على حسن رأى المرأة، وقوة شخصيتها.

فقد قال الحارث لمن حوله : أترونني أخطب إلى أحد فيردنى ؟ قيل نعم : أوس بن حارثة الطائى يردك فقال الحارث لغلامه : هيا بنا إلى أوس فى داره،

فلما رآهم قال : مرحبا بك يا حارث، قال : وبك، قال أوس : ما جاء بك ؟ قال : جئت خاطبا، قال: لست هناك. يعنى لست مرغوبا، وخطبتك مرفوضة. فانصرف الحارث ولم يكلمه، ودخل أوس على امرأته غاضبا، فقالت : من الرجل الذى كلمك فصرفته مسرعا؟ قال : إنه سيد العرب الحارث بن عوف المرى، قالت : فما بالك لم تنزله بدارك وتكرمه ؟ قال : إنه استحمق . قالت : وكيف ؟ قال : جاءنى خاطبا! قالت : أفتريد أن تزوج بناتك ؟ قال : نعم قالت : فإذا لم تزوج سيد العرب فمن تزوجهن إذن ؟ قال : قد كان ذلك. قالت : فتدارك ما قد كان منك، قال : بماذا؟ قالت تلحقه فترده، قال : وكيف وقد فرط ما فرط إليه ؟ قالت: تقول له : «إنك لقيتنى مغضبا بأمر لم تُقدم منى فيه قولا، فلم يكن عندى من الجواب إلا ما سمعت، فانصرف ولك عندى كل ما أحببت فإنه سيفعل.

فسمع الرجل كلام امرأته، ونفذه حرفيا لأنه رأى أن رأيها أعظم وأرجح من رأيه. فركب جواده وطار خلفهما، فالتفت خارجة بن سنان فرأى أوس بن حارثة، فقال للحارث : هذا أوس فى أثرنا، قال وهو مغموم : وما تصنع به ؟ امض. فلما رآهما أوس ماضيان لا يقفان، نادى وقال : يا حارث : اربع علىّ ساعة. فوقفا. فكلمهما بما أوصته به امرأته، فرجع الحارث مسرورا.

وهنا سترى عزيزى القارئ -صفحة ناصعة من صفحات حرية المرأة واحترام رأيها، حتى لو كانت بنتا تكلم أباها- فقد دخل أوس منزله، وقال لزوجته: ادعى لى فلانة -ابنته الكبرى- فأتته، فقال لها يا بنية : هذا الحارث بن عوف من سادات العرب قد جاءنى طالبا خاطبا، وقد أردت أن أزوجك منه. فما تقولين؟ قالت: لا تفعل. قال: ولم؟ قالت لأننى امرأة فى وجهى ردة[1]، وفى خلقى بعض العهدة[2]، ولست بابنة عمه فيرعى رحمى، وليس بجارك فى البلد فيستحى منك، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى، فيكون علىّ من ذلك ما فيه. قال.

(١) قبح .   (٢) قبح .

قومى. بارك الله عليك. ادعى لى فلانة -ابنته الوسطى- فدعتها، فأخبرها بطلب الحارث، فأجابت بمثل جواب أختها وقالت: إنى خرقاء، وليس بيدى صناعة، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى، فيكون على من ذلك ما تعلم.

فقال قومى بارك الله عليك. ادعى لى «بهيسة» - ابنته الصغرى - فأتى بها، فقال لها ما قال لأختيها فقالت : أنت وذاك. قال : قد عرضت ذلك على أختيك فأبتاه - ولم يخبرها بما قالتا عن نفسيهما - فقالت لكننى والله الجميلة وجها، الصناع يدا، الرفيعة خلقا، الحسيبة أبا، فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير، فقال : بارك الله عليك.

ثم خرج إليهما فقال : قد زوجتك يا حارث «بهيسة» بنت أوس. قال : قبلت، ثم هيئت وأصلح من شأنها، وحملت إلى زوجها، وبلغ حيه، وكانت الحرب بين عبس وذبيان. قد أهلكت الأخضر واليابس، بسبب الرهان على الفرسين. داحس والغبراء أيهما يسبق الآخر.

فلما رأت بهيسة زوجها الحارث مرتديا ثياب العرس، قالت : «والله لقد ذكرت من الشرف مالا أراه فيك ! قال : كيف ؟ قالت : أتفرغ للنساء والعرب بقتل بعضها بعضا؟ قال : فيكون ماذا؟ قالت : اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم.

فخرج لتوه إلى صاحبه خارجة بن سنان، وقص عليه حديث امرأته، قال خارجة : والله إنى لأرى همة وعقلا، ولقد قالت قولا.

فخرج الرجلان فمشيا بين القوم بالصلح، واحتملا حمائل القوم، وديات قتلاهم، فكان ما تحملاه ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنين.. ولم يكن فعل أوس مع بناته بدعة، فقد كانت قاعدة فى هذه المنطقة المتحضرة من العالم قبل الإسلام، والذى أطلق على عصرها «العصر الجاهلى».

فقد كانت للمرأة حرية قبول الزوج أو رفضه، بل إنها كانت التى تختار الزوج، وتطلب أكثر من رجل لتختبره حتى تتزوج من ترضاه منهم، وقد حدث ذلك. من امرأة من كنانة من أشرف بيوتها. رأت أن قومها يتوقعون غارة من جيرانهم من القبائل. فقد خرجت تلك الحرة الشريفة – وجلست بين صواحبها، ثم دعت وليدة صغيرة وقالت لها : ادعى لى فلانا، فدعت لها رجلا من حيها– كنانه– فقالت له : إن نفسى تحدثنى أن خيلا تغير على الحى، فكيف أنت إن زوجتك نفسى ؟ قال : أفعل وأفعل وجعل يطيل وصفه نفسه، فقالت له : انصرف حتى أرى رأى.

ثم قالت لصواحبها : ليس عنده غناء، ادعى لى فلانا، فجاءها رجل آخر، فقالت له ما قالت لصاحبه الأول فأجابها بمثل إجابته، فصرفته، ثم قالت للوليدة : ادعى لى ربيعة بن مُكدم، فقالت له مثل ما قالت للرجلين قبله، فقال لها : إن أعجز العجز أن يصف الرجل نفسه، ولكنى إن لقيت أعذرت، يعنى أبذل كل جهدى – وحسب المرء غناء أن يعذر، فقالت له : قد زوجتك نفسى، فاحضر غدا مجلس الحى ليعلموا ذلك، فلما كان الغد تزوجها، وخرج من عندها، ولاقى الأعداد المغيرين وهزمهم.

وكما كان لامرأة الخليج قبل الإسلام حق اختيار الزوج واختباره، فإنها كانت تملك حق الطلاق، وذلك أمر معروف بالفعل أكثر من القول، فكان يكفيها أن تحول باب خيمتها، إن كان إلى الشرق تجعله إلى الغرب، وإن كان إلى الجنوب فإلى الشمال.

فإذا عاد الرجل ورأى باب الخباء محول، عرف أن زوجته طلقته فلا يدخل الخيمة، وإنما يرسل من يأخذ متعلقاته.

بل زاد الأمر أن بعض النساء قبل الإسلام كان أمرهن بأيديهن أى أن العصمة فى أيديهن، فإن كانت راضية عنه صنعت له طعاما إذا أصبح.

ومن أولئك النساء الذين ذكرهن أبو هلال في كتابه الأمثال : عمره بنت سعد، ومارية بنت الجعيد العبدية. وعاتكة بنت مرة السلمية وفاطمة بنت الخرشب الأنمارية، والسواد العنزية، وسلمى بنت عمرو النجارية، وهى أم عبدالمطلب بن هاشم جد النبى ﷺ .

وهذه المنزلة التى وصلت إليها امرأة الخليج قبل الإسلام تكاد تكون مثالية لم تصلها امرأة فى ذلك الزمان فى أى بقعة من بقاع الأرض، لولا ما شابها من حمق قلة من القبائل، فشابت اللبن بالتراب، وهذه الشوائب تمثلت فى بعض مثالب منها :

١- أن بعض النساء نزلن عن حق الطلاق لأزواجهن فبغى الأزواج وتجبروا، وأسرفوا فى ذلك، حتى أن الرجل ليموت فيقول وليه -وربما كان أخاه- : أنا أحق بامرأته فينقلها إلى داره، ثم إن شاء استبقاها زوجة له- وإن شاء زوجها وأخذ مهرها، وإن شاء عضلها - يعنى أخذ منها مبلغا من المال ليتركهاوشأنها.

٢- السبى : وهو أخذ نساء القبيلة المقهورة الحرائر الشريفات العفيفات ليكن جوارى وخادمات في بيوت القبيلة المنتصرة، وكان بعض كرام المنتصرين يعرفون للسبايا قدرهن فكان بعضهم يتزوج من سبيته يعنى - أسيرته - وينجب منها الأبناء الكرام نوى الشأن كما فعل الصمة بن عبدالله حين أسر ريحانة بنت معد يكرب، وأنجب منها دريد بن الصمة حكيم العرب وشاعرهم.

لكن الحرية التى تسرى فى دماء الشريفات الأسيرات كانت تدفعهن للخلاص من الأسر حتى لو بالموت، كما فعلت فاطمة بنت الخرشب حينما أسرها حمل بن بدر، فقد رمت بنفسها من الهودج منكسة فماتت.

بل إن بعضهن تلطف بهن آسرهن وتزوجهن وعاشرهن معاشرة غاية فى

الكرم سنين طويلة، وأنجب منهن - كن يتحين الفرصة للفكاك من الأسر، فقد أسر رجل من العرب امرأة فولدت له سبع بنين ثم قالت له : أزرنى أهلى ليذهب اسم السبى عنى، ففعل، فلما نزلت بقومها وتذاكروا مافى السبى من ذل وعار، قالت لزوجها: قد أبى القوم إلا أن ينتزعونى منك. فقال : لا أفارقك حتى تثنى على بما تعلمين، فقالت : العشية إذا اجتمع القوم فاجتمعوا وحضر الرجل وزوجته فقال :

نشدتك : هل خبرتنـى أو علمتنى   كريما إذا أسود الكراسيع أزهرا

فقالت : نعم . فقال :

نشدتك : هل خبرتنى أو علمتنى   صبورا إذا ما السن ولى وأدبرا

فقالت : نعم .

فانصرف نادما حزينا وهو يقول :

تبكـى علـى ليلـى بحـق بلادهــا   وأنـت عليـها بالملا كنـت أقـدرا

٣- وأد البنات : وهو دفن الفتاة الصغيرة حية في حفرة وإهالة التراب عليها، وهذه العادة كانت فى بطون قليلة من قبائل ربيعة وكندة، وتميم، وأفراد قلائل من مختلف القبائل. وكان من يئد البنات واحد من اثنين : رجل فقير العقل والمال، يخشى أن يؤدى الفقر إلى سوء أدب ابنته ويجعلها تفرط فى عرضها تحت وطأة الحاجة، وهذا الصنف محسوب على العرب عالة، والعرب من فعاله أبرياء، والثانى : من سادة القوم لكن الغيرة خبلت عقله، وجعلته يخاف من تداول الأيام ووقوع ابنته -عرضة- فى ذل الأسر.

لكن -بحمد الله- كان هؤلاء وأولئك. قلة، وإلا لما كانت هناك الأعداد الغفيرة والجيوش الجرارة من الرجال الشجعان، الذين أنجبهن بالطبع نساء وأمهات.

ومع ذلك فقد عاب بعض عقلاء العرب وسادتهم - قبل الإسلام - تلك العادة المرذولة وحاربوها، وحالوا دون وأد البنات، وبذلوا فى ذلك مالا كثيرا، وجهدا مشكورا.

ومن بين هؤلاء، صعصعة بن ناجية التميمى، فقد كان يتلمس من قرب موعد ولادتها، ويذهب إليها، ويطلب من زوجها أن يهب له حياة المولود إن كان بنتا، على أن يقدم له نظير ذلك بعيرا وناقتين عشراوين، فلما جاء الإسلام كان مجموع ما افتداه صعصعة أربعمائة وليدة.

ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل القرشى كان يقيم بين خيام القوم، فإذا رأى رجلا منهم يهم بوأد ابنته قال له لا تقتلها، وأنا أكفيك مئونتها، فيأخذها ويرعاها حتى تبلغ ثم يقول لأبيها: إن شئت رددتها لك، وإن شئت كفيتك مئونتها.

وسبب وأد البنات أن النعمان بن المنذر أغار على بنى تميم، لأنهم منعوا الإتاوة التى فرضها عليهم، فغلبهم ونهب إبلهم، وسبى نساءهم، وفيهن بنت لقيس بن عاصم المنقرى، فوفدت وفودهم على النعمان ضارعين أن يرد عليهم نساءهم، فجعل النعمان الخيار للنساء، فأيما امرأة اختارت زوجها ردت إليه، فكلهن اخترن أزواجهن إلا بنت قيس بن عاصم المنقرى فإنها اختارت سابيها. فنذر قيس أن يئد كل بنت تولد له، وقد جاء الإسلام فمنع كل ذلك.

ومع هذه المكانة السامية فإن المرأة لم تكن قعيدة بيتها دون عمل، بل لقد عملت وشاركت الرجل فى كل أعماله صغيرها وكبيرها حتى ولو كانت فى بحبوحة من العيش، وقد ضرب المثل بامرأة من قريش في العمل، لأنها كانت تجتلب الصفوف فتغزله، ثم تنقضه لئلا تضيع وقتها بدون عمل، فقال العرب لمن رزق الغنى، وحرم حسن التصرف : «خرقاء وجدت صوفا» وضرب الله بها مثلا فى القرآن فقال :

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [النحل].

لكن بعيدا عن تلك الثرية التى تبحث عن تضييع وقتها فى عمل. فإن المرأة فى الخليج قبل الإسلام عملت فى كل المجالات ومن هذه المجالات :

أ- علاج الجروح وشد العظام ، ووقف النزيف - وكان ذلك فى وقت المعارك. فكانت تتعلم مقارعة الأبطال وفنون القتال حتى تنفذ وسط المتقاتلين إلى الجرحى وتنقذهم.

ب- غزل أصواف الغنم وأوبار الجمال، وكانت الموسرات يعتبرن ذلك لهوا وتسلية، لذا ضرب بذلك المثل فقيل : « نعم لهو الحرة المغزل».

جـ- القيام بأعباء البيت من إعداد الطعام ورعاية الخيل، وعلاج الإبل من الجرب، وتربية الأولاد وتهيئة البيت للزوج.

د- العمل بالصناعة مثل «ردينة» صانعة الرماح فى البحرين، والتى ينسب إليها أجود الرماح الردينية ذات الشهرة الذائعة.

هـ- العمل بالكهانة والعرافة، وكان لهن صيت ذائع. وكانت قبائل العرب تحتكم إليهن وتخضع لكلامهن قال محمد بن طفر فى كتابه «خير البشر بخير البشر».

روى أن مرثد بن عبد كلال رجع من غزوة بغنائم عظيمة، فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤهم وخطباؤهم يهنئونه، فأعطاهم كثيرا وسعد بهم، وفى المساء نام فرأى رؤيا أفزعته، فلما قام من النوم نسيها لكن رعبها سكن نفسه، فانقلب سروره حزنا، فاحتجب عن الوفود حتى أسىء الظن به. فجمع الكهان

والكاهنات يسألهم عما به فلم يعرف أحدهم شيئا . فيئس من تعبير الرؤيا ، وحاول نسيانها ، ثم إنه بعد فترة خرج للصيد ، وانطلق في الصحراء بعيدا عن أصحابه. فرأى بيوتا عن بعد ، فقصد إليها يستظل من شدة الحر ، واتجه إلى بيت منفرد عن البيوت ، فخرجت إليه عجوز فقالت :

«انزل بالرحب والسعة ، والأمن والدعة ، والجفنة المدعدعة[1] ، والعلبة المترعة[2]» فنزل عن جواده ، ودخل البيت ، فلما أنس للظل نام ، فلم يستيقظ إلا قرب المغرب ، فجلس يمسح عينيه ، فإذا أمامه فتاة لم ير مثل جمالها . فقالت له : أبيت اللعن أيها الملك الهمام ، هل لك في الطعام ؟ فداخله الخوف لما عرفته ، وتصنع أنه لم يسمعها ، فقالت له «لا حذر ، فداك البشر ، فجدك الأكبر ، وحظنا بك الأوفر».

ثم قربت إليه قديداً وثريدا وحيثا وقامت تروح عليه حتى انتهى أكله ، ثم سقته لبنا صريفا وضريبا ، فشرب حتى ارتوى ، وهو يتأملها مقبلة ومدبرة ، فملأت عينه وقلبه فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : عفيراء ، فقال لها يا عفيراء : من الذي دعوت بالملك الهمام ؟ قالت : مرثد عظيم الشأن ، حاشر الكواهن والكهان ، لمعضلة بعد عنها الجان.

فقال : يا عفيراء أتعلمين تلك المعضلة؟ قالت : أجل أيها الملك . إنها رؤيا منام ، ليست بأضغاث أحلام. فقال : أصبت يا عفيراء. فما تلك الرؤيا؟ قالت : رأيت أعاصير زوابع ، بعضها لبعض تابع ، فيها لهب لامع ، ولها دخان ساطع ، يقفوها نهر متدافع ، وسمعت فيما أنت سامع ، دعاء ذي جرس صادع ، هلموا إلى المشارع ، فروى جارع ، وغرق كارع.

---

(١) المليئة .

(٢) إناء الحلب .

فقال الملك : أجل هذه رؤياى. فما تأويلها يا عفيراء ؟ قالت : الأعاصير الزوابع: ملوك تبابع، والنهر: علم واسع، والداعى : نبى شافع، والجارع: ولى تابع، والكارع : عدو منازع، فقال الملك : يا عفيراء أسلم هذا النبى أم حرب: فقالت : أقسم برافع السماء، ومنزل الماء من العلماء، إنه لمطل الدماء، ومنطق العقائل نطق الإماء، فقال الملك : إلام يدعو يا عفيراء؟ قالت : إلى صلاة وصيام، وصلة أرحام، وكسر أصنام، وتعطيل أزلام. واجتناب آثام، فقال الملك: إذا ذبح قومه فمن أعضاءه؟ قالت : أعضاءه غطاريف يمانون، طائرهم به ميمون، يغزيهم فيغزون، ويدمث بهم الحزون، وإلى نصره يعتزون، فأطرق الملك يفكر فى نفسه أن يخطبها، فقالت : أبيت اللعن أيها الملك. إن تابعى غيور، ولأمرى صبور، وناكحى مثبور، والكلف بى ثبور، فنهض الملك، وجال فى صهوة جواده وانطلق، ولما عاد إلى دياره، أرسل إليها مائة ناقة كوماء.

وقد كانت هناك أعمال كثيرة مثل إرضاع الأطفال، وجمع الكمأة وهى النبت الأبيض الحلو- من الأودية وبيعها، ودبغ الجلود، وتنميق الحصير، والذهاب للأسواق لبيع وشراء واستبدال التمر والعسل والسمن، وبيع العطور وأدوات الزينة وغيرها. لكن يطرح السؤال نفسه : هل عملت امرأة الخليج بالحكم، وبطريقة أوضح، هل حكمت المرأة الخليج ؟ والإجابة : نعم . وتلك قصة ذكرها القرآن الكريم عن بلقيس ملكة سبأ « اليمن».

من أقوال الحكماء

«آخر عمر الرجل خير من أوله. يثوب حلمه، وتثقل حصاته، وتحمد سريرته، وآخر عمر المرأة أشر من أوله يذهب جمالها، يذرب لسانها، ويعقم رحمها، ويسوء خلقها».

وقال حكيم آخر : «أضر الأشياء بالدين والعقل والجسم والمال الغرام

بالنساء. فإن النساء متى عرفن قلبك بالغرام أرغمن قلبك بالرغام - أذللنك - لا ينبغي للعاقل أن يمدح المرأة إلا بعد موتها».

وقال سيدنا على -رضى الله عنه- :

«لا تطلعوا النساء على حال، ولا تأمنوهن على مال، ولا تدعوهن يدبرن أمر العيال، فإنهم إن تركن وما يردن أفسدن المسالك وأوردن المهالك. وقد وجدناهن لاورع لهن عند شهواتهن، ولا مروءة لهن عند خلواتهن، يتهافتن على العصيان، ويتمادين فى الطغيان، ينكرن الكثير إذا منعن القليل، ينسين الخير ويذكرن الشر، صوالحهن غادرات. وطوالحهن فاجرات، وأما المعصومات فهن المعدومات. إذا ائتمن على شيئ ضاع. أو على سر شاع فاستعينوا بالله من شرارهن وكونوا على حذر من خيارهن».

وقال بعض الحكماء :

«من كانت لذته فى النساء وقع فى أعظم البلاء، ومن أراد أن يعيش عيش الرغد، ويحيا حياة بلا نكد فلا يشغل فكره بشهوة النساء، ولا يومىء إليهن بطرف ولايد».

وقال أخر: «كل أسير يفك إلا أسير النساء فإنه غير مفكوك، وكل ما لك يملك إلا مالك النساء فإنه مملوك».

أمثلة عربية :

* النساء ناقصات عقل ودين.
* ثلاثة تكدر صفو العيش : جار السوء .. والولد العاق.. والمرأة الخائنة.
* إنما الشؤم فى ثلاث : الفرس .. الدار.. المرأة.

* المرأة كالحرباء تتلون كيفما شاءت.
* ذل من أسند أمره إلى امرأة.
* اكسر للبنت ضلع يطلع لها اثنين.
* أعوذ بالله من ثلاث : عناد الرهبان .. وكيد النسوان .. وظلم السلطان.
* فى الشارع عروسة وفى البيت جاموسة.* تحت البراقع سم ناقع.
* عمر النساء ما تربى عجل ويحرث.
* لا تأمن للمرأة إن صلت ولا للخيل إن جلت ولا للشمس إن ولت.
* من أعطى سره لمراته، ياطول عذابه وشتاته.
* شورة الست إن صابت بخراب سنه وإن طاشت بخراب العمر كله.

ويبدو أن الذين هاجموا المرأة هم الذين لم يوفقوا فى التعامل معها، ولم يستطيعوا سبر أغوارهن، والوصول إلى منابع السعادة في قلوبهن. لذلك عبروا عن فشلهم فى صورة هجوم عليها.

ومع ذلك فكلهم يتهافتون عليها ويخطبون ودها.

وإلى جانب هؤلاء المهاجمين المحيطين، وجد رجال عرفوا قيمة النساء، وقدروهن حق قدرهن. وعلى رأس الجميع سيد البشرية وخاتم المرسلين. الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى. فقد أكثر سيدنا رسول الله ﷺ من التوصية بهن، والثناء عليهن.

يقول صلى الله عليه وسلم :

«البنات هن المشفقات المجهزات المباركات، من كانت له ابنة واحدة جعلها الله له سترا من النار، ومن كانت عنده ابنتان أدخله الله الجنة بهما، ومن كانت عنده ثلاث بنات، أو مثلهن من الأخوات، وضع عنه الجهاد والصدقة».

وقوله صلى الله عليه وسلم :

«ما أكرم النساء إلا كريم،، ولا أهانهن إلا لئيم» رواه ابن عساكر عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى عنه».

وقوله صلى الله عليه وسلم :

«الدنيا كلها متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة» رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائى عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

وقوله صلى الله عليه وسلم :

«عليكم باللطف والرفق بنسائكم . لا تلموهن، ولا تضيقوا عليهن، فإن الله يغضب للمرأة إذا ظلمت كما يغضب لليتيم».

وقوله صلى الله عليه وسلم :

«من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو - وضم أصابعه - أى معا» رواه مسلم عن أنس.

وقوله صلى الله عليه وسلم :

«إذا وُلدت الجارية بعث الله عز وجل إليها ملكا يزف البركة زفا يقول : ضعيفة خرجت من ضعيفة . القيم عليها معان إلى يوم القيامة، وإذا ولد الغلام بعث الله إليه ملكا من السماء فقبل بين عينيه، وقال : الله يقرئك».

وقوله صلى الله عليه وسلم :

«خير النساء التى تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فى نفسها ولا مالها بما يكره» رواه الإمام أحمد والنسائى والحاكم عن أبى هريرة.

وقوله صلى الله عليه وسلم:

«أربع خصال من سعادة المرء، أن تكون زوجته صالحة وأولاده أبراراً وخلطاؤه صالحين ومعيشته فى بلده». رواه بن عساكر والديلمى عن عبد الله بن الحكم عن أبيه عن جده.

وقوله صلى الله عليه وسلم:

«من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتق الله فى الشطر الباقى» - رواه الحاكم عن أنس.

وقوله صلى الله عليه وسلم:

«المرأة فى حملها إلى وضعها إلى فصالها كالمرابط فى سبيل الله، فإن ماتت فيما بين ذلك فلها أجر شهيد» - رواه الطبرانى عن عبد الله بن عمر.

وقوله صلى الله عليه وسلم:

«أما ترضى إحداكن إنها إذا كانت حاملا من زوجها وهو عنها راض أن لها مثل أجر الصائم القائم فى سبيل الله، فإذا أصابها الطلق لم يعلم أهل السماء والأرض ما أخفى لها من قرة أعين، فإذا وضعت لم يخرج من لبنها جرعة ولم يمص من ثديها مصة إلا كان لها بكل جرعة وبكل مصة حسنة، فإن أسهرها ليلة كان لها مثل أجر سبعين رقبة تعتقهم فى سبيل الله» - رواه الطبرانى وابن عساكر والحسن ابن سفيان عن سلامة حاضنة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ.

وقد اقتفى أثر سيدنا رسول الله ﷺ حكماء وأدباء وشعراء فهموا عنه قيمة المرأة. زهرة الحياة وريحانتها، فأثنوا عليها بما هى أهله، والعجيب أن

أغلب من مدح النساء رجال مسلمون. ويبدو أن المسلمين هم خير من فهم المرأة فسعد بها، وأسعدها.

قال بن العميد :

كانوا يكنون عن البنت الكبيرة بالكريمة، وعن البنت الصغيرة بالريحانة، وعن الأم بالحرة، وعن الأخت بالشقيقة وعن الزوجة بكبيرة البيت، أو بمن وراء الستار، وعن الزفاف بتأليف الشمل، واتصال الحبل والترك يعبرون عن الزوجة بالرفيقة، والعرب يكنون عنها بالحليلة والظعينة والقرينة، وقعيدة البيت، والريض، والجنة، والطلة، والكنة - بفتح الطاء والكاف - والعرس والسكن واللباس والأرار. وأهل مصر يخاطبون الزوجة ويعبرون عنها بالست فيقول الزوج لزوجته :

ياستى ، ويخبر عنها فيقول ستى قالت وستى فعلت.. قال الشاعر الأديب بهاء الدين زهير المصرى المتوفى سنة ٦٥٦هـ :

بروحى من أسميها ستى ... فتنظر لى النحاة بعين مقت

يرون بأننى قد قلت لحنا ... وكيف وإننى لزهير وقتى

وقال الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ فى كتابه، فجر البلاغة : التقيا مؤنثة والناس يخدمونها، والأرض مؤنث ومنها خلقت البرية، وفيها كثرت الذرية. والسماء مؤنثة وقد حليت بالكواكب، وزينت بالنجوم والثواقب، والنفس مؤنثة وهى قوام الأبدان ؟ وملاك الحيوان.

والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون؟ وفيها ينعم المرسلون.

وكتب الصاحب ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ مهنئا ببنت : أهلا وسهلا بعقيلة النساء وأم الأبناء، وجالبة الأصهار، والأولاد الأطهار، وتمثل بقول المتنبى المتوفى سنة ٣٥٤

ولو كان النساء كمثل هذى لفضلت النساء على الرجال

فما التأنيث لاسم الشمس عيبا ولا التذكير فخرا للهلال

وقال الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ فى إحدى مقاماته :

«القرينة الصالحة ترب بيتك، وتلبى صوتك، وتغض طرفك، وتطيب عرفك، وبها ترى قرة عينك، وريحانه أنفك، وفرحة قلبك، وخلد ذكرك».

وقال الحجاج بن يوسف الثقفى المتوفى سنة ٩٥ لأيوب بن القرية البليغ المتوفى سنة ٨٤:

ما تقول فى التزويج ؟ فقال : وجدت أسعد الناس فى الدنيا، وأقرهم عينا، وأطيبهم عيشا، وأبقاهم سرورا، وأرضاهم بالا، وأثبتهم شبابا. من رزقه الله زوجة مسلمة أمينة عفيفة حسنة لطيفة نيفة مطيعة إن غاب عنها كانت له حافظ، وقد ستر حلمها جهلها، وزين دينها عقلها، فزوجها ناعم، وجارها سالم، ومملوكها آمن وصبيها طاهر فتلك كالريحان والنخل لمن يجتنيها وكاللؤلؤة التى لم تثقب، والمسكة التى لم تفتق، قوامة، صوامة، ضاحكة بسامة، إن أيسرت شكرت، وإن أعسرت صبرت. فأفلح وأنتجح من رزقه الله مثل هذه».

وفى لسان العرب لابن منظور الأفريقى المتوفى سنة ٧١١:

«خير النساء الخفرة فى قومها، المتبذلة لزوجها .. يعنى التى لا تخالفه في قول ولا عمل» :

وقال مسلم بن عبد الله : المرة الصالحة خير للمرء من عينية ويديه.

وقال بعض العارفين : الزوجة قوت النفس، وسبب طهارة القلوب.

قال بعض العارفين: المرأة الصالحة أقر متاع الدنيا لعين المرء، ولا يمكن لشيء كسكونه لزوجته.

ويقال في تقسيم الحسن:

«إن الصباحة فى الوجه، والوضاءة فى البشرة، والجمال فى الأنف، والحسن فى الوجه، والحلاوة فى العينين، والملاحة فى الفم، والظرف فى اللسان، والرشاقة فى القد، واللياقة، بالباء الموحدة، فى الشمائل، والبراعة فى الجيد، والرقة فى الخصر، كما هو مذكور فى كتاب فقه اللغة للثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩هـ.

عبادة نساء

إن المرأة من ناحية العبادات لها شكل مختلف عن الرجل، ولو أخذنا عبادة كالصلاة مثلا، فإننا نجد أنها لا تسقط عن الرجل فى أى حال من الأحوال. فهى مفروضة عليه يؤديها فى كل الظروف. فى حال الأمن والخوف، وفى حال الصحة والمرض، فعليه أن يصلى قائما أو قاعدا أو مضجعا، أو مستلقيا على ظهره، أو حتى بتحريك عينيه، والحالة الوحيدة التى يسقط عنه فيها الصلاة هى الموت أو ذهاب عقله بالجنون، أما تغيب عقله بالسكر فإنه لا يسقط عنه الصلاة، بل يقضيها بعد أن يفيق، والمرأة تشترك معه فى هذا، لكن تكوين المرأة الجسمانى خلقه الله وفيه شئ ليس فى الرجل، هذا الشئ هو الحيض والنفاس، وهذه الحالة شاقة ثقيلة على المرأة. لذلك أسقط الله عنها الصلاة فيها، ولم يطالبها بالإعادة بعد الطهر من الحيض والنفاس، لكن عبادة أخرى كالصوم، والطواف حول الكعبة فى الحج يترفق الله بالنساء فيها، فيمنع المرأة من الطواف، لأن شرطه الطهر والوضوء، ويمنعها من الصيام، لأن شرطه الخلو من الحيض والنفاس بالنسبة للمرأة، لكن لأن الحج مفروض مرة واحدة فى العمر

للمستطيع والمستطيعة، فإن الإسلام أعطى المرأة فرصة إعادة الصيام، وإعادة الطواف بعد الطهر من الحيض أو النفاس، لعدم المشقة، أما الصلاة فإن إعادتها تكلف المرأة مشقة فى حالة الحيض لأنه يتكرر كل شهر.

وللمرأة شكل سلوكى فى الصلاة، فالفقهاء حددوا عورة المرأة فى الصلاة بأن جسدها كله عورة، ماعدا وجهها وكفيها، مستندين إلى حديث سيدنا رسول الله ﷺ لأسماء بنت أبى بكر: «إذا بلغت المرأة المحيض، فلا يظهر منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى الوجه والكفين».

وحدد الإسلام هيئة المرأة فى الصلاة بطريقة تختلف عن الرجل، فالرجل يجافى مرفقيه عن جنبيه، ويقل بطنه عن ركبتيه وفخذيه فى السجود.

أما المرأة فإنها تضم بعضها إلى بعض، وتلصق مرفقيها بجنبيها، وتلصق بطنها بركبتيها وفخذيها، لئلا يبدو من جسمها شىء وهى ساجدة. والرجل مطلوب منه حضور الجمعة والجماعات فى المسجد، أما المرأة فالإسلام حدد أولويات أماكن صلاتها فجعل صلاتها فى خدرها -أى حجرة نومها- أفضل من الصلاة فى جوف بيتها -أى الصالة والدهليز- وصلاتها فى جوف بيتها أفضل من صلاتها فى مسجدها.

وإذا كان النبى ﷺ قد أباح للمرأة الصلاة فى المسجد خلف الرجال تماما، لئلا يدخل رجل فتقع عينه على أجسادهن وهن راكعات أو ساجدات فإن هذا مشروط بأمن الفتنة، والسيدة عائشة -رضى الله عنها- قالت بعد التحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى «لو رأى النبى ﷺ ما فعلت النساء لمنعهن المسجد، كما منعت نساء بنى إسرائيل»، وقصه الصحابى الذى تزوج أسماء بنت عميس، وأراد أن يمنعها المسجد معروفة، فقد كمن لها فى الظلمة، وهى ذاهبة لصلاة الفجر، وضربها على مؤخرتها واختفى، فلما عادت إلى البيت قالت له : لن أذهب إلى المسجد !، فقال لها : لماذا ؟ قالت : لأن الزمن تغير .. على

أن هناك شىء فى علاقة المرأة بربها فى العبادة وهو : صيام لتطوع، فإنه لا يجوز لها أن تصوم تطوعا إلا بإذن زوجها إذا كان غير مسافر، فإن لم تستأذنه، وطلبها لنفسه أفطرت لتطيعه فى نفسها.

المرأة فى البيت

هى دائرة بيتها وزوجها. وهنا نجد أن الإسلام حدد إطارا لتصرفاتها سواء من حيث الحركة واتخاذ القرارات، والشكل الذى تبدو عليه، فهى لا تستطيع استقبال الضيوف من الرجال فى غيبة زوجها، ولا تأذن لأحد فى دخول بيت زوجها، حتى لو كان من أقاربها. إذا كان ذلك يغضب زوجها، ولا تسمع كلام أى إنسان فى زوجها، حتى لو كان أبوها أو أمها. ولا تتأبى عليه، ولا تخرج من البيت إلا بإذنه. والأحاديث النبوية الشريفة كثيرة فى هذا الأمر فالنبى ﷺ يقول : «والذى نفسى بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها. إذا دعا الرجل زوجته إلى فراشه فلم تأته، فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح».

وقال ﷺ : «لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تأذن فى بيت زوجها وهو كاره، ولا تخرج وهو كاره، ولا تطيع فيه أحدا، ولا تعتزل فراشه، ولا تضربه، فإن كان هو أظلم فلتأته حتى ترضيه، فإن قبل فبها ونعمت، وقبل الله عذرها، وأفلج حجتها، ولا إثم عليها، وإن هو لم يرض فقد أبلغت عند الله عذرها».

وقد روى الحاكم والطبرانى مجموعة أحاديث توضح وضع المرأة مع زوجها نجملها هنا . وهى : «إن من حق الزوج على زوجته إن سألها نفسها وهى على ظهر قتب (جمل) أن لا تمنعه نفسها، ومن حق الزوج على الزوجة أن لا تصوم تطوعا إلا بإذنه، فإن فعلت جاعت وعطشت، ولا يقبل منها، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن فعلت لعنتها ملائكة السماء، وملائكة الأرض، وملائكة

الرحمة، وملائكة العذاب حتى ترجع. لا ترفع صلاة امرأة باتت وزوجها عليها ساخط، لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها. لو كان من قدمه إلى مفرق رأسه قرحة تنبجس، ثم استقبلته فلحسته ما أدت حقه».

والمرأة فى عصمة زوجها مطالبة بإرضائه وعمل كل شىء يسره، لأنها بعد الزواج لا يوجد أحد فى الكون له حق عليها أعظم من زوجها. فعليها التفانى فى إسعاده، وإدخال السرور على نفسه بأن تبدو دائما جميلة فى نظره، لينة فى الحديث معه. هاشة باشة مقبلة عليه، وتحفظه فى عرضها وماله أثناء غيابه، فعن عائشة -رضى الله عنها- قالت . سألت رسول الله ﷺ : «أى الناس أعظم حقا على المرأة ؟ قال زوجها. قلت: فأى الناس أعم حقا على الرجل؟ قال : أمه». وقد أجمل الإمام الغزالى حقوق الزوج على الزوجة فى كتابه «إحياء علوم الدين» فقال :

أن تكون قاعدة فى قعر بيتها لازمة لمنزلها، لا يكثر صعودها وإطلاعها، قليلة الكلام لجيرانها، لا تدخل عليهم إلا فى حال يوجب الدخول، تحفظ بعلها فى غيبته، وتطلب مسرته فى جميع أمورها. ولا تخونه فى نفسها وماله، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه فإن خرجت بإذنه فمختفية فى هيئة رثة تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق، محترزة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها، لا تتعرف على صديق بعلها فى حاجاتها، وإذا استأذن صديق لبعلها على الباب وليس البعل حاضرا لم تستفهم، ولم تعاوده فى الكلام. غيورة على نفسها وبعلها، وتكون قانعة من زوجها بما رزقه الله، وتقدم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها، متنظفة فى نفسها، مستعدة فى الأحوال كلها للتمتع بها إن شاء .. مشفقة على أولادها، حافظة للستر عليهم، قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الزوج

المرأة فى المجتمع

المجتمع يبدأ من الجيران وأهل الحى، ثم البلدة ثم الإقليم، ثم القطر، فأما الجيران، فإن لهم حقا يؤديه رب البيت الرجل بأن لا يؤذى جاره، فالذى يؤذى جاره يفقد الإيمان، ولا يكتفى بمنع الأذى عنه، وإنما لابد من السؤال عليه والإطمئنان على أحواله ومشاركته الفرح والحزن، والإطمئنان عليه، وإذا اشترى فاكهة لأولاده، فعليه أن يعطى منها لأولاد الجيران، فإن لم يفعل يمنع ولده من الخروج بها، لئلا يغيظ ابن الجيران، ويهدى إلى جيرانه من الطعام والشراب كلما تيسرت الأمور، فقد كان ﷺ يوصى بتكثير الشوربة عند طبخ اللحم حتى يهدى للجيران منها، والمرأة شريكة الرجل فى إكرام الجيران، لكن على مستوى النساء، فإن أرادت الإهداء للجيران، فلتهد لجارتها المرأة، لأن النبى ﷺ حدد ذلك، حينما قال : «لا تحقرن جارة أن تهدى لجارتها ولو فرش شاة (الأكارع)» ويكون ذلك فى السر حتى يقبله الله لأن صدقة السر تطفىء غضب الرب، وتظل فاعلها تحت ظل الله يوم لا ظل إلا ظله. هذه أول درجات العلاقة بالمجتمع.

غرام سجاح التميمية الكذابة

وكما شهدت منطقة جنوب الخليج حكم امرأة قبل الإسلام، ودان لها الرجال بالطاعة والامتثال، فقد شهدت منطقة مجاورة لها هى مضارب قبائل تغلب وتميم حكم امرأة بعد الإسلام، وإن كانت تلك المرأة شريرة وكاذبة ومخادعة، إلا أنها استطاعت أن تسيطر على أخطر قبائل العرب وتتآمر عليهم، ويحملون السلاح بأمرها، وتوجههم حيث تشاء، الكل يمتثل لأمرها، ويتوجه حيث تشير.. هذه المرأة هى سجاح التميمية الكاذبة التى ادعت النبوة، واستولت على عقول وقلوب أقوى قبائل العرب. ونحن بعرضنا لها نقول : إن المرأة حكمت الخليج مرة قبل الإسلام، ومرة فى وجود الإسلام، وسجاح هى بنت الحارث بن سويد التميمى، وقد عاشت حياتها بين ظهرانى خئولتها من بنى تغلب.

* وكانوا يدينون بالنصرانية .. ويتمسكون بها .. فتابعتهم سجاح علي دينهم، واستطاعت باخلاصها للنصرانية أن تتبحر فى علومها وتتفقه وأن تكون ذات مكانة عالية مرموقة بين الناس، لتدينها واستمساكها بلب المسيحية. حتى لقد حذقت - على حد قول البعض - أسرارها وكان لها بين القوم مكانة مرموقة. حتى لطالما كانت مقصد الكثيرات والكثيرين، يفدون إليها يسألونها توضيح ما يختلط عليهم من أمور دينهم ودنياهم

* وكانت سجاح هذه بعيدة كل البعد عن معترك التنازع الدينى أيا كان هذا التنازع والصراع . بعيدة كل البعد عن التشاحن والفتن، راضية بإيمانها .. قريرة العين بدينها فلم تطمع يوما ولم يدر بخلدها أن تكون شيئا له قيمته فى بنى تغلب، الذين كانت تعيش بينهم، وإن كانت تحس أنها لتدينها وزهدها وعفتها أثيرة لديهم، محبوبة بينهم .. عالية المكانة عندهم.

* والأمر الذى لا شك فيه . أنها قبل أن يغلبها الغرور ويداخل الشيطان رأسها الأحمق بتصوراته قد سمعت بدعوة الإسلام .. وعرفت الكثير عن أطوار النزاع التى مرت بها دعوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .. ولكنها لم تتابعها، وإن ظلت تهفو إلى سماع الأنباء التى كانت تردد فى أنحاء الجزيرة عن ذيوعها وانتشارها وتعاظم أمرها.

* وظلت سجاح فى خئولتها من بنى تغلب، بعيدة عن أهلها وعشيرتها من تميم حتى انتقل سيدنا رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى. وإذا بها تحدث شيطانها مرة.. ثم تنصت إلى حديث ذلك الشيطان مرات ومرات، وهو يسول لها أن تغامر هى الأخرى، وأن تستغل مكانتها فى تغلب، وحب الناس لها وإيمانهم بتدينها، فتعلن فى هدوء ودون جلبة أنها قد تنبأت، وأنها هى الأخرى قد راح الوحى السماوى يأتيها من السماء..

* ولما كانت سجاح على جانب كبير من الدهاء والفطنة، فوق مقدرتها على صوغ الحديث فى بلاغة محببة إلى النفوس لمشابهة حديثها لسجع الكهان وأحاديثهم، فقد جرؤت وخرجت على شريعة الصمت التى طالما أرادتها لنفسها .. وحطمت جدار التباعد الذى كان يفصلها بعض الشئ عن الناس .. ثم أشاعت الشائعة الماكرة، وراح شياطينها من بعدها يرددون أكذوبة الكذابة التى ادعت أنها أصبحت نبية ذات مكانة عظيمة القدرة جليلة الشأن، رفيعة المقام.

* ووجدت دعوة الكذابة «سجاح» صداها فى نفوس العديد من تغلب ولعلهم وجدوا فى هذه الدعوة ما قد يحقق بعض طموحهم، ويرفع من مكانة قبيلتهم إلي الذرا، ويجعل لها من المكانة والتعاظم ما قد وصلت إليه قريش فكان أن تابعوا سجاح .. وصدقوا إدعاءها التنبؤ، والتفوا حولها يظاهرونها ويؤيدونها ويشجعونها على الخروج بادعائها الكاذب، من حيزه المحدود إلي منطلق أشد سعة، يعظم فيه أمر سجاح.. ويعظم معها شأن من ظاهروها من الطامعين.

* وظلت العاصفة تتسع رقعتها.. وراحت أنواؤها الهوج .. وزعازعها العاتية تضطرم وتنطلق معربدة هنا وهناك، وراحت جموع الكذابة سجاح تتقدم وتتقدم وقد انتوت الشر، وهان فى عينيها أمر الفتنة، وتصورت أن الدنيا عما قليل ستدين لها بالطاعة، فراحت تحث المسير وتدفع فتنتها إلى الأمام لتضم الراغبين فى الكفر والساعين إلى الضلال لينضموا إلى صفوفها، يجاهدوا من أجل إعلاء باطلها، حتى اقتربت من ربوع تميم.

* وتلاقى العاصى والكذابة .. تلاقى مالك بن نويرة وسجاح بنت الحارث بن سويد، وما أسرع ما تفاهما .. بل كيف كان لمثليهما أن يختلفا على أمر، وكلاهما غارق فى الضلالة، لا يحب شيئا أكثر من حبه فى أن ينضم سائر العصاة إلى صفوفه، لتقوى بهم الفتنة، ويعم أمر التمرد وترتفع راية الكذب والكذابين.

* كانت سجاح من الفطنة والذكاء بحيث راسلت مالكا قبل أن تقدم على تميم، ليعلم بوفودها إليه .. وترى رأيه فى هذا القدوم .. فإذا كان يحبه ويرضاه .. رحب بها وكان فى انتظارها مع قومه .. وإن كان يكره ذلك الأمر حذرها، وراسلها بدوره ليمنعها من التقدم نحو بلاده، ولكن مالكا سرعان ما حقق ظن سجاح فيه، فلم يعارض ولم يتكلم. بل رحب بقدومها، فأسرع يستقبلها، ويعلن تأييده لحركتها، ولم يقف تأييد مالك بن نويرة لكذابة تغلب عند هذا الحد .. بل لقد بالغ فى هذا التأييد، فكانت النتيجة أن جعلها تعلو على أحياء بنى تميم ويتعاظم أمرها فيهم.

* وكانت سجاح من الفطنة بحيث كرهت أن يقف مالك بن نويرة هذا الموقف دون أن ترد له جميل تأييده لها بأعظم مما كان يتصور، وإذا بها تتمادى فى دهائها فتعلن على رءوس الأشهاد، وأمام أشراف قومها وأهلها من تميم، أنها ليست أكثر من متنبئة تنطق باسم دعوة لها خطرها، وأنها لا تسعى إلى جاه أو سلطان، وأنها إن حققت الجاه والسلطان فعلا - مع تطور الحوادث وتبدل الأمور - فإن الأمور ستكون ولا شك، لتميم، .. فتميم هى الرجال، وهم العون، وهم الغطاريف البهاليل أصحاب المكانة العالية، وهم أجدر الناس جميعا بأن يكونوا ملوك الأرض وحكامها، وأصحاب الأمر بين الناس أجمعين.

* خدعة بارعة عرفت سجاح كيف تسوقها.. فكانت نتيجتها أن تزايد التفاف تميم حول، رأيتها وتضاعف تابعوها فكان أن راسلت بنى مالك بن حنظلة تدعوهم إلى التسليم والرضا والاعتراف بمكانتها وما وصلت إليه، وأنها نبية صادقة متنبئة لا تخطئ، ووصل رسلها إلى القوم من بنى مالك بن حنظلة، فكره أشرافهم الأمر، وعز عليهم أن تجرؤ سجاح على ذلك، وحاروا ولم يدروا بماذا يجيبونها، وقد عرفوا أنها قد أصبحت فى منعة ممن التفوا حولها، بحيث يصعب على القوم مجادلتها والوقوف فى وجه تقدمها، فكان أن ترك أولئك الأشراف ديارهم، وعلى رأسهم عطارد بن حاجب، لاجئين إلى بنى العنبر.

* وتجرأت سجاح فى النهاية مع حلفائها - على مهاجمة أحياء عديدة من العرب راحت فى بلاغتها السجعية تهون من شأنها، وتحط من قيمتها، وتجعلها تبدو كأنها لا شيء على الإطلاق، واستمع حلفاؤها إليها. وقد راحت فى نبرة الواثقة تقول حاثة على مهاجمة قبيلة الرباب :

«أعدوا الركاب، واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب». وظلت تسجع وتتكلم .. وتسوق غوامض الكلم وغريب الألفاظ حتى وقر حديثها فى نفوس القوم، وأثر فيهم تأثيراً كان له فعله وتحريضه، فما أسرع ما استجابوا لها، وما أسرع ما دارت الرحى على الرباب».

* ولم تكد سجاح تفرغ من الرباب، حتى سارت بجموعها وحلفائها تريد أن تصل إلى أرض اليمامة، ولما كانت خطة سجاح قد نجحت إلى حد بعيد فى خديعة مالك بن نويرة، والتفاهم معه، وجره إلى حماها، ووقوفه إلى جانبها، ومظاهرته لها وتأييدها بالمال والرجال والسلاح.. فإنها رأت أن تفعل بمسيلمة مثل ما فعلت بمالك بن نويرة، أفلا تكون بهذا قد سيطرت على الأحداث فى شبه الجزيرة، واستولت على منطقة الخليج، وأصبحت وحدها صاحبة الكلمة والمكانة ومن يرجع إليها قبل غيرها فى شتى الأمور، وهذا يحقق لها ولا شك طموحا كانت تبغيه كى تصل إلى تحقيق أحلامها لا فى السيادة على تغلب وحدها، ولا على بنى تميم.. بل على الجزيرة العربية كلها، حتى تصبح وحدها سيدة الرجال وسيدة الأنام.

ومرة أخرى راح الجمع الزاحف خلف سجاح ينصت إلى سجعها الممقوت، وقد ارتفع صوتها تقول محرضة إياهم على المغامرة الكبرى التى كانت تبغيها.

ويا معشر تميم .. اقصدوا اليمامة، فاضربوا منها كل هامة، وأضرموا فيها ناراً ملهامة حتى تتركوها سوداء كالحمامة .».

* وكلمات الكذابة ولا شك، كانت تصور مدى أحقادها، وتعكس صورة مشاعرها التى كان يضطرم بها قلبها الظامئ؛ لا إلى المجد فحسب بل إلى التدمير والخراب وإثارة الذعر، والحكم على الآمنين من الناس بأن يعيشوا حياة التشرد والبؤس، بعد أن تحرق ديارهم وتنهب خيراتها، ويعلو شأن المرأة اللعينة ذات القلب الأسود التى نطقت فى تحريضها على القتال بما لم يجسر الطغاة على قوله وهو الأمر بالإحراق !!

وتحركت الجموع الزاحفة التى كانت نفوسها تضطرم بشتى الأهواء وراحت سجاح تنظر إلى ذلك الخليط المحتشد من الطامعين. وتحركت الجموع الزاحفة لتصل إلى اليمامة، وقد هانت فى عيونهم المغامرة وصغرت التضحية .. وسمع مسيلمة الكذاب بالأمر، وهاله أن تخرج إليه زميلة كذابة على غراره، تحاول أن تزعزع مكانته وتثل عرشه الذى أقامه على أباطيله وأكاذيبه، وراح يصغى إلى عيونه، وقد راحوا يصفون له ذلك. البحر الزاخر من البشر ممن كانوا يتقدمون بأمر سجاح إلى حصون اليمامة.

* وضاق مسيلمة الكذاب بالأنباء .. وخشى أن تتسع عليه جبهة القتال وأن يجد نفسه بين عدوين كل منهما خطير مرهوب الجانب شديد البأس.. جند الله وعلى رأسهم خالد بن الوليد، ثم سجاح المتنبئة الكذابة التى جاءت هى الأخرى لتحاول ضربه فى قلب حصنه لتقضى عليه .. وأسرع مسيلمة ينفذ خطة بارعة .. قدم لها بأن بعث رسله بالهدايا يستقبلون كذابة تغلب قبل أن تفد إليه .. ومع الهدايا كان رجاؤه المرسل إليها يطلب الأمان له حين يفد عليها ليستقبلها، ويصفى حسابه المعلق بينه وبينها

* وحلت اللحظة الحاسمة .. واجتمع الكذابان الأشران، وجلست سجاح فى مكان الكبرياء الذى تصورت أنها وصلت إليه وظلت صامتة، وكأنما تريد أن تسمع هى من ضيفها لا أن يسمع هو منها، فقد كان هو الذى طلب اللقاء وهو الذى أحب أن يجلس فى حضرتها معلنا خضوعه.

* واستطاعت عينا الداهية الماكر أن تقرأ خبيئة نفس سجاح فأخفى ابتسامته ثم لاذ بالصمت طويلا، وقد رفع إليها وجهه كمن يسألها الإذن له بأن يتكلم أمامها.. أمام المتنبئة العظيمة التى كان يحوطها الجلال الوهمى إلا فى مخيلة الكذاب، الذي أحب أن يوقعها فى حبائل مكره وشباك خديعته.

* وتكلم كذاب اليمامة مسيلمة، فلمس الوتر الحساس من نفس سجاح إذ بدأها بالخضوع منه هو ومن معه من الناس وكيف أن قريشا استبدت بالأمر، وهذا سر خروجه عليها وثورته على أشرافها الذين لم يكونوا عادلين حين أحبوا أن يكون لهم وحدهم الجاه والسلطان والكبرياء، واذابه يقول لها :

«لنا نصف الأرض، وكان لقريش نصفها لو عدلت .. وقد رد الله عليك النصف الذى ردت قريش ».

* وبالرغم من أن هذا الملق الظاهرى قد أسعد نفس الكذابة سجاح . إلا أنها كرهت من مسيلمة أن يتجاسر فيعلن لها تنازله عن نصف الدنيا التى رفضتها قريش، وفى هذا ما يعنى أن الرجل كان يتمسك بالنصف الذى احتفظ به فى يديه.

* وإذا بها .. ترفض عرضه : فهو يهب مالا يملك وأن عليه إذا أصر على أن يهبها ذلك النصف الوهمى أن يواجه فوارس سوف تنطلق إلى بلاده، فتدمرها وتسلبه العزة والمنعة والجاه.

* كانت سجاح قوية فى ردها الذى ما توقعه الداهية الماكر مسيلمة حتى لقد كاد يفقد تصوراته، وتضيع منه سعة حيلته وإذا به يقف جامدا يفكر ويفكر، وهو لا يدرى ماذا كان بوسعه أن يقول، ولا كيف يرد على سجاح تحديها الرهيب له، ثم إذا به يدور فى مكر ودهاء حول النقطة الأولى التى بدأ منها .. حول الأكذوبة التى خدع بها الناس .. وإذا به يقول لها كلاما ما أفلح فى أن

يجعلها تتصوره لونا من ألوان الوحى الذى كان يدعى أنه يهبط عليه .. وإذا به يقول :

«سمع الله لمن سمع، وأطعمه بالخير إذ طمع .. ولا زال فى كل ما سر نفسه يجتمع، رآكم ربكم فحياكم، ومن وحشة خلاكم، ويوم دينه أنجاكم، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار، لا أشقيا ولا فجار، يقومون الليل، ويصمون النهار، لربكم الكبار، رب الغيوم والأمطار.. ..».

وفعلت الأكذوبة فعلها.. واستطاعت الكلمات المنمقة الكاذبة أن تحدث فى نفس سجاح تأثيرا كبيرا.. وأسعدها وملأ بالزهو نفسها الشريرة أن يقول مسيلمة فيها هذا القول .. الصادر عن وحى وإلهام كما أحب لها طموحها أن تتصور .. وراقها إلى حد بعيد أن تصدر إليها تحية مباركة من ذلكم المعبود الذى يدين له مسيلمة بالطاعة .. وإذا بها تنبسط مع الكذاب الداهية الذى استطاع أن يحول، إنتباهها إليه، وأن ينفذ فى فطنة وذكاء إلى غرضه الذى كان يبغيه وهو الاستحواذ الكامل .. لا على سلطان سجاح ونفوذها وعلى قومها بل على سجاح نفسها !!

* وطال الحديث بين الكذابة والكذاب، وإذا بها فى النهاية وقد ظهر كل منهما على حقيقته - فراح مسيلمة يرى سجاح بعين الرجل فى الوقت الذى رأت فيه سجاح مسيلمة بعين المرأة، وما يكاد يحدثها بأمر المشاركة الأبدية التى أحب أن يعقدها معها عن طريق الزواج بها حتى قبلت الأمر بسرعة غير متوقعة.

* وعند هذا الحد من الإخفاق وضعت سجاح نهاية أكاذيبها.. وقد رضيت أن تدخل فى عصمة الكذاب، وبدخولها هذا تنازلت عن مكانتها بل عن ادعائها النبوة.. وقد أسعدها أن تدخل بيت الرجل وأن تصبح فى عداد حريمه، وراحت تساومه ثمن هذا التنازل وذلك الرضا .. وطالبته بأن يدفع لها نصف غلات

اليمامة. وفوق هذا يدفع لها مقدما نصف ما تغله اليمامة عن العام الذى قد حل بعد .. فوافقها على ذلك، وكان ماكرا فى موافقته، ووعدها بأنه سيعطيهاماطلبت. وأنه ليس عليها إلا أن تثق بصدق قوله وتعود من حيث أتت، وتترك من تثق به من رجالها ليحمل إليها المال الذى تريد، فوافقته على ذلك، وبهذا انتهى أمر الصراع بين الكذابين.

وعادت سجاح فى النهاية إلى قومها الذين أقبلوا عليها يسألونها أن توضح لهم ما كان من أمر لقائها مع كذاب اليمامة .. فلم تخف عليهم شيئا، وكانت جريئة فى اعترافها بأنها وجدت فى مسيلمة مالم تجده فى غيره ومن أجل هذا ارتضته زوجا وشريكا لها فى كل مجد وسلطان.

* وفى الوقت الذى كانت فيه سجاح تقفل مع الجموع عائدة إلى ديارها كان خالد بن الوليد يسير إلى اليمامة على رأس فوارس المسلمين وجند الله البواسل، وقد راعها أن يحدث ذلك.. ووقفت فى موقف المترددة التى لم تكن تدرى أى طريق تسلك، وفى أى وجهة تسير هل تكر راجعة لتقف إلى جانب مسيلمة؟ أم تستمر فى طريق عودتها إلى بلادها مؤثرة السلامة على النضال، وكانت سجاح من الذكاء بحيث رأت أن البعد عن ميدان الصراع الذى بدأ أواره يتعالى ويشتد هو التعقل والحكمة، فبقيت حيث أرادت لنفسها أن تبقي، وجعلت تتابع أنباء المعركة الضارية التى لم يستمر بها الأمر طويلا إذ تحطمت مقاومة الكذب ومن معه أمام قوة ضربات خالد وفوارس الله، الذين كانوا يحاربون تحت رايته .. وقتل مسيلمة وقتل من قبله مالك بن نويرة ولم يبق على قيد الحياة غير سجاح.

* لقد شاء الله تعالى أن تعلو كلمته فى بلاد العرب وإلى الأبد.. وأن يعظم دينه .. وأن تتبدد أحلام الطامعين والكذابين .. فعادت الجزيرة إلى سابق عهدها بالإسلام.. وبقيت سجاح فى معتزلها وقد راحت قصة حياتها تبدو أمام عينيها

فى صورة واقعية ما تصورت أن تدهمها بمثل تلك القسوة .. وأحست سجاح بالأسى يغمرها .. وبالخوف يتملك نفسها .. لا لأنها جرؤت على الكذب فحسب، وادعت النبوة بعد ذلك، ولكن لأنها لم تستغل ذكاءها هذا فى عمل نافع ترضى به الله، ويرضى عنها الناس .. وراحت تسائل نفسها : كيف هرعت إلي ظلمة الضلال تحتمى بها دون أن يكون لهذه الظلمة وجود .. وكيف تباطأت حتى الآن عن الدخول فى دين الله القيم مع الآلاف التى آمنت به ودخلت فيه.

* إن سجاح اليوم وبعد أن كان من شأنها ما كان، لتحس الندم وتستشعر الرغبة فى التوبة، ثم إذا بها تهرع إلى ظل من لا ظل إلا ظله يوم الدين فتسأله أن يتوب عليها وأن يقبلها بين عباده الصالحين، لأن قلبها قد عرف الله واهتدى بنوره .. وامتلأ بنورانية الإسلام فشهدت أنها كانت كاذبة .. وأنه لا إله إلا الله، وأن سيدنا محمداً رسول الله ﷺ .

* لقد عرفت سجاح فى النهاية طريقها الصحيح الذى كان من الواجب عليها أن تتبعه منذ بداية الأمر، ولقد اهتدت إلى هذه الحقيقة يوم عرفت أن الله يغفر الذنوب لمن يشاء، وأنه يسعد بعودة التائبين إليه وقد ألقوا عنهم ثقل أوزارهم، وعترفوا أمام جلاله بالخطايا وعاهدوه على ألا يعودوا إليها أبداً.

وعاشت سجاح التميمية خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى .. وماتت فى أيام معاوية وطويت بموتها صفحة من صفحات حياة امرأة تعشقت الجاه والمظهر، وخدعها الشيطان فصدقت أكاذيبه ثم ما لبث أن تخلصت من شروره، واهتدت إلى الله سبحانه وتعالى.

غرام غزالة وشبيب

هذه امرأة من نساء الخليج قادت جيشا، وانضوى تحت لوائها فرسان شجعان ائتمروا بأمرها، وحملوا السلاح خلفها، تهاجم بهم ظلم بنى أمية وتقاتل أشرس ولاتهم الحجاج بن يوسف الثقفى، وتقسم لتدخلن الكوفة، وتصلين فى مسجدها ركعتين تقرأ فيهما سورة البقرة وآل عمران، وقد برت بقسمها، وزادت أن خطبت على منبر الكوفة، ووقفت على التل المواجه لقصر الحجاج وسبته وتحدته أن يخرج إليها فخاف، واعتصم بقصره المحصن..

وقد فاجأته مرة وهو يقود جيشا من أربعة آلاف مقاتل، ولم يكن معها سوى أربعين رجلا، فهجمت عليه به، وفرقت جموعهم وخاف الحجاج واضطرب وانسحب من مواجهتها. فمن تكون هذه ؟. إنها غزالة الحرورية التى ولدت فى الموصل، ونشأت على التصوف والفصاحة والبيان حتى أن الجاحظ ذكرها ضمن فصحاء وفصيحات العرب، وذكرها الزركلى فى أعلام العرب وقال عنها ابن خلكان فى «وفيات الأعيان» إنها كانت من الشجاعة الفروسية بالموضع العظيم، ونقل المقريزى أن زوجها شبيب استخلفها لشجاعتها، فدخلت الكوفة، وقامت خطيبة، وقاتلت ضد الحجاج شهرا كاملا، وسجل الشاعر أيمن بن خميم موقفها وشجاعتها فى قصيدة منها :

أقامت غزالة سوق الضراب لأهل العراقين شهراً قميطا

أى شهرا كاملا. روعت خلاله البصرة والكوفة، وأذلت جند الحجاج. فكيف اتصلت بشبيب وتزوجته، وقاتلت إلى جانبه حينا، ووحدها حينا آخر؟

* لقد كانت فى بداية أمرها عابدة فصيحة متصوفة، ولم يحدث الانقلاب فى حياتها إلا عندما رأتها جهيزة أم شبيب بن يزيد الشيبانى أحد أبطال الخوارج الثائرين على ظلم الدولة الأموية، وكانت جهيزة شجاعة تشهد الحروب.

فوصفت لها ابنها، وقالت : «والله إنه ليكون صاحب هذا الأمر لو أراد» وكانت غزالة عاقلة فقالت : إذا جعلنى على رجاله وأشرت عليه فى أمرهم». وكان ذلك منها إشارة إلى شيئين : إلى رغبتها فى أن يعقد عليها شبيب الخارجى، وإلى رغبتها فى أن تخرج معه. وعندما زفت إليه وأراد الأهلون أن يقيموا المأدب صاحت لننتظر مائدة الله ! وكانت إذا ذاك قد جعلت الخروج مساويا لإنكار الظلم ودعوة محدودة إلى التحرر. فلما سمعت بصالح بن مسرح التميمى فى أرض الموصل والجزيرة يدعو إلى الخروج، قالت لجهيزة أزفت يا أم ساعة الجهاد فقالت : إنها كذلك والله !

* وكتب شبيب إلى صالح يقول : «إنك كنت تريد الخروج فإن كان ذلك من شأنك اليوم. فأنت شيخ المسلمين ولن نعدل بك أحداً» فكتب إليه صالح : «لم يمنعنى من الخروج إلا انتظارك فأقبل إلينا، فانك من لا يستغنى عن رأيه».

* فلما قرأت غزالة كتاب صالح قالت : «إن الله يدعوك إلى خير عباده، فهلم يا أبا الضحاك وأنا معك». ودعا شبيب نفرا من خلصائه فيهم أخوه مصاد بن يزيد بن نعيم الشيبانى .. وكذلك أمه، وقصد الجميع إلى «دارا». حيث صالح وأعلنوا الخروج، وشرعوا يحاربون عمال الدولة الأموية واختار الحجاج بن يوسف الثقفى أمير البصرة أشجع قواده : الحارث بن عميرة، وجند له ثلاثة آلاف من أهل الكوفة، وبعث بهم للقاء الخوارج فقتل صالح وتولى شبيب القيادة بدلا منه. ومنذ توليه والنصر حليفه وكان إذا أرجف الناس بوصوله إلى بلد ما هرب من به من جند الحجاج.

ولقد كان لابد أن يأتى دور الكوفة ونذرت غزالة إذ ذاك إن هى دخلت البصرة، أن تصلى فى مسجدها الجامع وتصعد منبره لتخطب، وراحت تحث شبيبا فاتجه صوب المدينة، ولكن الحجاج كان قد سبقه إليها، ولم يعبأ شبيب ووجد من غزالة رغبة فى مواصلة ضرب الحجاج داخل ذلك المعقل الحصين،

فاقتحم أسوار المدينة ووصل بجنده إلى قصر الإمارة، وضربه بعمود كان فى يده ثم علا مصطبة قباله وهو ينشد هاجيا الحجاج :

عبد دعى من ثمود أصله   لا بل يقـال أبيـهم بقـدم

* وهنا ارتفع صوت غزالة ، جامعة فيه كل رصيد المرأة العربية من قوة وفتوة وإجلال وتسلط : إلى أنا يا مسلق الأجفان !

* وكان الحجاج أخفش قميئاً، غير أنه كان يملك قلباً جريئاً، ومع ذلك فقد رأى أن من الحكمة أن يبتعد عن غزالة. ففضلا عما قد يعرضه لقاؤه لها من السخرية - ونصره عليها مشكوك فيه لوقوف زوجها معها- فإنه لم يكن من الغباء بحيث يقارعها حجة بحجة ويباريها فى مجال قديم، هو يعلم قبل غيره أنها تجيد الكر فيه.

* آثر الحجاج أن ينزوى فى القصر فتهيأت الفرصة لغزالة أن تفعل ما تريد فدخلت المسجد الجامع مع شبيب بجبة طيالسية فوقها نقط من أثر مطر وهدر بصوته فى المصلين، فارتجت أرجاء المسجد له، ثم أعطى الزمام لغزالة وخرج، فأدت الصلاة فأطالت ما شاءت حتى أنها قرأت فى صلاتها سورتى «البقرة» و «آل عمران»، وصعدت المنبر وخطبت، ثم خرجت تخترق صفوف أعدائها ولم ينلها أى مكروه.

* ومن المؤكد أن الحجاج قد صعقه كل ما جرى - وهو الأمير العاتى - فجمع أشهر قواد الدولة كزائدة بن قدامة، الثقفى، وزحر بن قيس، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وزياد ابن عمرو العتكى.. وهنا وجد شبيب بعد شهر من احتلاله الكوفة أن من الخير التقهقر إلى القادسية ومنها وثب على هؤلاء الفرسان واحدا أثر واحد فمزقهم جميعاً.

* وكتب الحجاج إلى عبد الملك يستنجده. فأمده بجيوش من الشام وطلب من الحجاج أن يولى عتاب بن ورقاء الرياحى قيادة هذه الجيوش.

* ولما سمع شبيب بذلك أرسل أخاه «مصاد» إلي المدائن ووقف هو مع ستمائة فارس أمام جيش الدولة الكبير، وتمكن من أن يجد من أتباعه العون، ولكن العون الأكبر كان يجده من غزالة حينا، وأمه جهيزة حينا آخر.

وبعد أن أعيت الحجاج الحيل، وجعلته غزالة حبيس قصره يرتعد منها فرقا. استعان بجيوش الخلافة الضخمة، ودخل فى معركة رهيبة مع غزالة وزوجها، فأبدت ، من ضروب الشجاعة ما فرق الفرسان المهاجمين، ولما لم تجد المواجهة. لجأت قوات الحجاج إلى الحيلة والغدر فاغتالوها من خلفها، فسقطت كما يسقط الفرسان الشجعان.

جارية يزيد بن عبد الملك

كانت حبابة من أجمل نساء زمانها اشتراها يزيد قبل أن يتولي الخلافة بأربعة آلاف دينار وأحبها حباً شديداً وهام بها وأهمل أمور الحكم فبلغ ذلك أخاه سليمان بن عبد الملك الخليفة آنذاك فحجر عليه وصادر منه حبابة وباعها واستمر يزيد مقهوراً إلى أن تولى أمر الخلافة .

واتفق يوماً أن قالت له زوجته : هل بقى في نفسك شيء من الدنيا؟

قال : نعم ..

قالت : وما هو؟

قال : حبابة ..

فأرسلت زوجته واشترت حبابة من غير علمه وزينتها وطيبتها وأجلستها من وراء الستار وهو لا يعلم وقالت له : هل بقى فى نفسك شيء من الدنيا؟

فقال يزيد : ما قلت لك بقى حبابة ؟

فقالت : ها أنت وحبابة. وأمرتها بالخروج فخرجت عليه فرحب بها وقربها إليه. وخرجت زوجته من عنده. فكان ما كان ثم غلبت على عقل يزيد، وترك سياسة المملكة. ولم ينتفع بالخلافة وقد شغف بحبها فقال يوماً :

الناس يقولون لم يصف الدهر لأحد من الملوك يوماً واحداً. وانى أريد أن أكذبهم فاقبل على لذاته واختلى مع حبابة يوماً بعدما أحضر آنية المدام والطعام فبينما هو فى صفو العيش وهو يلاعب حبابة . إذ تناولت حبابة حبة رمان وهى تضحك فشرقت بها وماتت من وقتها فطاش عقل يزيد واختل واعتل وتركها عنده أياماً لم يدفنها حتى جافت وهو يقبلها ويلاعبها ويلعب بها.

فاجتمع بنو أمية وعنفوه وهو لا يزداد إلا عشقاً. ثم دفنها فهاجت بلابله ونبشها بعد أيام وقد تفصلت مفاصلها ثم دفنها. ولم يعش بعدها سوى خمسة عشر يوماً.

سعاد

مغنية كوفية عرضت على الوليد بن يزيد الخليفة الأموى فقال لها : أى شئ تحسنين ؟

فقالت : أنا مغنية ..

فقال لها غنينى ..

فغنت تقول :

لولا الذى حملت من حبكم	لكان فى إظهاره مخرج
أو مذهب فى الأرض ذو فسحة	أجل ومن حجت له منحج
لكان سبانى منكم شادن	مريب ذو غنة أدعج
أغر ممكور هضيم الحشى	قد ضاق عنه الحجل والدملج

فطرب يزيد طرباً شديداً وقال : يا غلام اسقني.

فسقاه عشرين قدحاً وهو يستعيدها ثم قال لها : لمن هذا الشعر؟

قالت : للحرث بن خالد.

قال: وممن أخذته ؟

قالت : من حنين..

قال : وأين لقيته ؟

قالت : ربيت بالعراق وكان أهلي يجيئون به فيطارحني.

فدعا صاحبه فقال : اذهب فابتعها بما بلغت ولا تراجعني في ثمنا.

ففعل ولم تزل عنده حظية.

ماردة

من محظيات هارون الرشيد كانت ذات حسن وجمال وألمت بالشعر والأدب وكانت قد ملكت قلبه وأحبها حباً عظيماً.

يروى أنها غضبت منه يوماً فأمر جعفر البرمكي وزيره العباس بن الأحنف الشاعر أن يعمل في ذلك شعراً فأنشد يقول :

راجـع أحبتـك الذين هـجـر　　تهم أن المتيـم قلمـا يتجنـب

إن التجنى أن تطـاول منكما　　دب السلـولـه فعـز المطلـب

ولما غنى هذا الشعر إبراهيم الموصلي للرشيد بادر إلى ماردة فترضاها فسألت ماردة عن السبب في ذلك ؟

فقيل لها. فأمر لكل من العباس وإبراهيم بعشرة آلاف.

وسألت الرشيد أن يكافئهما فأمر لهما بأربعين ألف درهم.

وخلفها الرشيد بالرقة فلما قدم إلى بغداد اشتاق إليها فكتب لها يقول :

سلام على النازح المغترب ... تحية صب به مكتئب

غزال مراتعه بالبليح ... إلى دير زكى فقصر الخشب

أيا من أعان على نفسه ... بتخليفة طائعاً من أحب

سأستر والستر من شيمتى ... هوى من أحب بمن لا أحب

فلما ورد كتابه إليها أمرت أبا حفض الشطرنجى الشاعر فأجاب الرشيد بقوله :

أتانى كتابك يا سيدى ... وفيه من العجائب كل العجب

أتزعم أنك لى عاشق ... وأنك بى مستهام وصب

فلو كان هذا كذا لم تكن ... لتتركنى نهزة للكرب

وأنت ببغداد ترعى بها ... نبات اللذاذة مع من تحب

فيا من جفانى ولم أجفه ... ويا من شجانى بما فى الكتب

كتابك قد زادنى صبوة ... وأسعر قلبى بحر اللهب

فهبنى نعم قد كتمت الهوى ... فكيف بكتمان دمع سرب

ولولا اتقاؤك يا سيدى ... لوافتك فى الناجيات النجب

فلما قرأ الرشيد كتابها. أنفذ خادماً على البريد حتى أحضرها إلى بغداد وأمر المغنين فغنوا فى شعره.

هيلانة

كانت من محظيات الرشيد وحين ماتت حزن عليها حزناً شديدا حتى امتنع عن الأكل والشرب. فدخل عليه بعض الندماء وجعل يسليه عنها وهو لا يزداد إلا غماً.

فقال له يا أمير المؤمنين : وما قدر هذه الجارية حتى تحزن عليها هذا الحزن العظيم والنساء كلهن إماؤك؟

فقال : ويحك. إننى قد أصبت ببلية لم يصب بها أحد. ما أحببت أحداً إلا ومات.

وأنشد الرشيد فيها :

أف للدنيــا وللزينـــة فيهــا والأثـــاث

إذ حثى الترب على هيلانة فى الحفرة حادث

متيم الهشامية

جارية مغنية نشأت بالبصرة وأخذت الغناء عن إسحاق بن إبراهيم الموصلى وعن طبقتهما من المغنين. اشتراها على بن هشام بعشرين ألف درهم فحظيت عنده حظوة عظيمة وقدمها على جواريه.

ويروى أن المأمون الخليفة كان يبعث إليها فتجيئه فتغنيه. وكان المعتصم يأتى بها فى مجالسه ويمازحها. وحين خرج إلى سامراء أرسل إليها فجاءت إليه وأقطعها داراً فكانت تستأذنه الدخول إلى بغداد لتزور ولدها وترجع.

وفى مجلس ضمها إبراهيم بن المهدى والمعتصم غنت تقول :

لزينـت طيــف تقتريني طوارقـــه

هدوءاً إذا النجم أرجحنت لواحقه

ولما قتل على بن هشام مرت متيم على قصره هى مستخفية فلما رأت بابه مغلقا وقد علاه التراب وطرحت فى أفنيته المزابل وقفت عليه وتمثلت قائلة:

يا منـزلاً لـم تبـل أطلالـه   حاشـا لأطلالـك أن تبلـى

لـم أبـك أطـلالـك لكننـي   بكيـت عيـش فيـك إذ ولـى

قد كان لى فيك هـوى مـرة   غيبـة التـراب ومـامـلا

فصرت أبكى جاهداً فقده   عندى ادكارى حيثما حلا

فالعيش أولى ما بكاه الفتى   لابـد للمحـزون أن يسلـى

ثم بكت حتى سقطت من قامتها .

قبيحة

هى جارية فائقة الجمال سماها المتوكل «قبيحة لفرط حسنها وجمالها وسميت بهذا الإسم كما يسمى العبد الأسود كافوراً والأمة السوداء فضة.

وقد أنجبت قبيحة للمتوكل ولده المعتز الذى تولى أمر الخلافة بعد مقتله وكان الأتراك بزعامة ابن وصيف قد هيمنوا على المعتز لصغر سنه وتغلبوا عليه وخلعوه ثم قتلوه عام ٢٥٥ هـ.

واختفت أمه قبيحة ثم ظهرت بعد ذلك فبلغ ابن وصيف ظهورها فقبض عليها وصادر منها ألف ألف دينار ونفائس أخرى ثم نفاها إلى مكة.

وأقامت هناك تدعو على ابن وصيف بصوت عالٍ وتقول :

هتك سترى وقتل ولدى وأخذ مالى وغربنى عن بلدى وركب الفاحشة منى.. وفى ذلك يقول الشاعر :

جزى ابن وصيف مولاه بشر   ولكن هكذا صفة الوصيـف

ولم تمض سنة حتى قتل ابن وصيف على يد الأمير موسى بن بغا التركى واستولى على ماله.

وتوفيت قبيحة فى مكة وقيل عادت إلي بغداد وتوفيت فى خلافة المعتمد على الله أحمد بن المتوكل.

محبوبة المتوكل العباسى

يروى المسعودى : لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله. أهدى إليه الناس على أقدارهم وأهدى إليه ابن طاهر هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف. وفى الهدية جارية يقال لها محبوبة كانت لرجل من أهل الطائف قد أدبها وثقفها وعلمها من صنوف العلم. وكانت تقول الشعر وتلحنه وتغنى به على العود. وكانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس. فحسن موقعها عند المتوكل وحلت من قلبه محلاً جليلاً لم يكن أحد يعدلها عنده.

قال على بن الجهم : فدخلت عليه يوماً للمنادمة. فلما استقر بى المجلس قام فدخل بعض المقاصير ثم خرج وهو يضحك. فقال لى : ويلك يا على دخلت فرأيت قينة قد كتب فى خدها بالمسك جعفرا فما رأيت أحسن منه. فقال فيه شيئاً ..

فقلت : يا سيدى وحدى أو أنا ومحبوبة ؟

قال : لا . بل أنت ومحبوبة.

قال : فدعت بدواة وقرطاس. فسبقتنى إلي القول. ثم أخذت العود فترنمت ثم خففت عليه حتى صاغت له لحناً وتضاحكت منه ملياً ثم قالت : يا أمير المؤمنين تأذن لى؟

فأذن لها ..

فغنت :

وكاتبه فى الخد بالمسك جعفرا   بنفس محط المسك من حيث أثرا
لئن أودعت خطا من المسك خدها   لقد أودعت قلبى من الوجد أسطرا
فيامن لمملوك يظل مليكه   مطيعاً له فيما أسر وأجهرا
ويامن لعينى من رأى مثل جعفر   سقى الله صوب المستهلات جعفرا

قال على : وتبدلت خواطرى حتى كأنى ما أحسن حزماً من الشعر.

قال : فقال لى المتوكل : ويلك يا على .. ما أمرتك به؟

فقلت : يا سيدى أقلنى. فوالله لقد غرب عن ذهنى. فلم يزل يضرب به على رأسى ويعيرنى به إلى أن مات.

قال على : ودخلت عليه أيضا لأنادمه فقال لى : ويلك على. علمت أنى غاضبت محبوبة وأمرتها بلزوم مقصورتها. ونهيت الحشم عن الدخول إليها. وأنفت من كلامها؟

فقلت : يا سيدى. إن كنت غاضبتها اليوم فصالحها غداً. ويديم الله سرور أمير المؤمنين. ويمد فى عمره.

قال : فاطرق ملياً. ثم قال للندماء : انصرفوا.

وأمر برفع الشراب فرفع.. فلما كان من غد دخلت إليه فقال: ويلك يا على. إنى رأيت البارحة فى النوم أنى قد صالحتها.

فقالت جارية يقال لها شاطر كانت تقف أمامه : والله لقد سمعت الساعة فى مقصورتها هينمة لا أدرى ما هى ..

فقال لى : قم ويلك حتى ننظر ما هى.

فقام حافياً وقمت أتبعه حتى قربنا من مقصورتها. فإذا هى تخفق عوداً وتترنم بشىء كأنها تصوغ لحناً. ثم رفعت عقيرتها وتغنت :

أدور فى القصر ولا أرى أحـدا   أشكـو إليـه ولا يكلمنـى
حـتى كأنـى أتيـت معصيـة   ليـس لهـا توبـة تخلصنى
فمـن شفيـع لنـا إلـى ملـك   قد زارنى فى الكرى وصالحنى
حتى إذا ما الصبـاح عادلنـا   عاد إلى هجـره وصـار منى

قال : فصفق المتوكل طرباً فصفقت معه. فدخل إليها فلم تزل تقبل رجل المتوكل وتمرغ خديها على التراب حتى أخذ بيدها. ورجعنا وهى ثالثتنا.

قال على : فلما قتل المتوكل ضمت هى وكثير من الوصائف إلي بغا الكبير. فدخلت عليه يوماً للمنادمة. فأمر بهتك الستارة. وأمر بالقينات فأقبلن يرفلن في الحلى والحلل وأقبلت محبوبة حاسرة من الحلى والحلل عليها بياض. فجلست مطرقة منكسة.

فقال لها وصيف : غنى.

قال : فاعتلت عليه.

فقال : أقسمت عليك . وأمر بالعود فوضع فى حجرها. فلما لم تجد بدا من القول تركت العود فى حجرها . ثم غنت عليه غناءاً مرتجلاً.

أى عيش يلـذ لى لا أرى فيـه جعفـرا

ملـك قـد رأيتـه فـى نجيـع معفـرا

كل من كان ذا خبال وسقم فقـد بـرا

غير محبوبة التى لو ترى الموت يشترى

لاشترتــه بمـا حوتــه يداهـــا لتقبـــرا

قال: فغضــب عليهـا وأمـــر بسجـنهـــا

فسجنـــت : وكـان آخـــر العـهـد بهـــا .

جارية أبو عثمان

ذكر أبو عثمان سعيد بن محمد الصغير. قال : كان المنتصر فى أيام إمارته وجهنى إلى مصر فى بعض أموره للسلطان. فعشقت جارية كانت لبعض النخاسين عرضت للبيع محسنه فى الصنعة. مقبولة فى الخلقة. قائمة على الوزن من المحاسن والكمال. فساومت مولاها فأبى أن يبيعها إلا بألف دينار. ولم يكن ثمنها معى. فأزعجنى السفر وقد علقها قلبى. فاخذنى المقيم المقعد من حبها وندمت على ما فاتنى من شرائها.

فلما قدمت وفرغت مما وجهنى إليه وأديت إليه ما علمت جمد أثرى فيه وسألنى عن حاجتى وخبرى. فأخبرته بمكان الجارية وكلفى بها . فأعرض عنى. وجعل لا يزداد إلا حدة. وقلبى لا يزداد إلا كلفا. وصبرى لا يزدادإلا ضعفا. وسليت نفسي عنها بغيرها . فكانى أعزيتها ولم تتسل عنها .

وجعل المنتصر كلما دخلت إليه وخرجت من عنده يذكرها ويهيج شوقى إليها وتحيلت إليه بندمائه وأهل الأنس به وخاص ممن يحظى من جواريه وأمهات أولاده وجدته أم الخليفة أن يشتريها لى. وهو لا يجيبنى إلى ذلك. ويعيرنى بقلة الصبر.

وكان قد أمر أحمد بن الخصيب أن يكتب إلى عامل مصر فى ابتياعها وحملها إليه من حيث لا أعلم. فحملت إليه وصارت عنده. فنظر إليها وسمع منها . فعذرنى فيها ودفعها إلى قيمة جواريه فأصلحت من شأنها .

فلما كان يوماً من الأيام استجلسنى وأمرها أن تخرج إلى الستارة. فلما سمعت غناءها عرفتها وكرهت أنى أعلمه أنى قد عرفتها. حتى ظهر فى ما كتمت. وغلب على صبرى.

فقال : مالك يا سعيد؟

قلت : خيرا أيها الأمير.

قال: فاقترح عليها صوتا كنت قد أعلمته أنى سمعته منها. وأنى استحسنته من غنائها فغنته.

فقال : أتعرف هذا الصوت ؟

قلت : أى والله أيها الأمير. وكنت أطمع فى صاحبته. فأما الآن فقد يئست منها . وكنت كالقاتل نفسه بيده. وكالجالب الحتف إلى حياته.

فقال : والله يا سعيد ما اشتريتها إلا لك. ويعلم الله أنى ما رأيت لها وجهاً إلا ساعة دخلت عليها وقد استراحت من ألم السفر. وخرجت من شحوبة التبذل. فهى لك.

فدعوت له بما أمكننى من الدعاء وشكره عنى من حضره من الجلساء. وأمر بها فهيئت وحملت إلى. فردت إلى حياتى بعد أن أشرفت علي الهلكة ولا أحد عندى أحظى منها ولا ولد أحب إلى من ولدها .

شغب جارية المعتضد

كان يقال لها القهرمانة وكانت جميلة الأطراف حسنة الأوصاف. أحبها المعتضد وشغف بها وتوفى عنها سنة ٢٨٩هـ. فأقامت عند ولدها المقتدر بالله جعفر .

وولى الخلافة المكتفى بالله على بن المعتضد أخو المقتدر لأبيه وتوفى سنة ٢٩٥هـ. وولى الخلافة المقتدر وعمره ثلاثة عشر عاما فتولت أمه القهرمانة أمر مملكته.

وكان المقتدر مولعاً بالنساء شغوفاً بهن حتى أنه أنفق عليهن جميع ما عنده من الجواهر والنفائس.

وكثر الضرر وعم الناس فى البحر والبر وغارت الروم علي الثغور وخرجت الاسكندرية عن ملكه. فهبت القهرمانة وطالبت ولدها أن يجلس للمظالم ووهبت وأعطت وأنعمت على أرباب الدولة وذلك سنة ٣٠٥هـ.

واستمر المقتدر فى الخلافة إلى أن خرج عليه مؤنس الخادم حاجبه ودخل معه فى حرب انتهت بفوز مؤنس وانكسار المقتدر وقتله وصلبه عارياً بعد أن قطعت رأسه ثم صادر مؤنس أموال المقتدر وقبض على القهرمانة.

وتولى الخلافة القاهر محمد أخو المقتدر لأبيه فقام بتعذيب القهرمانة وعلقها من رجلها منكسة حتى كان يجرى بولها على وجهها وصادر أموالها وماتت سنة ٣٢٠هـ وقتل القاهر مؤنس الخادم ثم قبض المماليك من أنصار مؤنس وغيره على القاهر وخلعوه واتلفوا عينه ثم أطلقوه يسأل الناس الصدقة فى الطرقات وذلك فى سنة ٣٢١هـ.

شاريـــة

مغنية بصرية اشترتها امرأة من بنى هاشم فأدبتها وعلمتها الغناء ثم اشتراها إبراهيم بن المهدى فأخذت أكثر الغناء منه.

وغنت بحضرة المعتمد العباسى يوماً بشعر مولاها إبراهيم بن المهدى ولحنه:

يا طـول علــة قلبى المعتــاد   ألف الكرام وصحبة الأمجاد

فقال المعتمد : أحسنت .

فقالت : هذا غنائى وأنا عارية . فكيف لو كنت رؤيت كاسية؟

فأمر لها بألف ثوب من جميع الثياب. فحمل ذلك إليها.

ثم اشتراها المعتصم بخمسة آلاف وخمسمائة دينار فكانت فى ملكه حتى مات. وكان قد أعطى فيها سبعين ألف دينار فامتنع عن بيعها.

وأصبحت شارية زعيمة الغناء بعد وفاة المعتصم حتى آخر خلافة الواثق الذى كان يسميها ستى.

سلامة الزرقاء

مغنية بارزة فى عالم الغناء فى وقتها اشتراها محمد بن سليمان والى الحجاز آنذاك بمائة ألف درهم.

قال فيها الشاعر محمد بن الأشعث :

أمسـى لسلامـة الزرقـاء فـى كبـدى

صـدع مقيم طـوال الدهـر والأبـد

لا يستطيـع صنـاع القـوم يشعبـه

وكيف يشعب صدع الحب فى كبدى

ولما ولى عثمان بن حيان المرى المدينة اجتمع أشراف المدينة إليه من قريش والأنصار وطالبوه بتحريم الغناء والرثاء فمنعه.

وتدخل البعض وأحضرت سلامة إلى عثمان وغنت بين يديه :

سددن خصاص الخيم لما دخلنه   بكل لبـان واضـح وجبـين

فقال لها عثمان : والله ما مثلك يخرج من المدينة.

فقيل له : إذن يقول الناس أذن لسلامة فى المقام ومنع غيرها.

فقال : قد أذنت لهم جيمعاً.

مكنونـــة

مغنية مدنية معاصرة للمهدى العباس. كانت جميلة حسنة الصدر والبطن وكان البعض يمازحها. اشتريت للمهدى فى حياة أبيه المنصور بمائة ألف درهم فغلبت عليه حتى غارت منها الخيزران زوجة المهدى.

وهبـــة

جارية تعلق بها ابن أبى عينة الشاعر العباسى المعاصر للمنصور وقال فيها :

يا وهب لم يبق لى شىء أسر به   إلا الجلوس فتسقينى وأسقيك

ثم عدل عن التعلق بها إلى جارية أخرى تسمى دنيا ذكرهما فى شعر يقول :

أرسلت وهبة لما رأتنى   بعد سقم من هواها مفيقا

أتغيرت كأن لم تكن لى   قبل أن تعرف دنيا صديقا

قد لعمرى كان ذاك ولكن   قطعت دنيا عليك الطريقا

دقاق المغنية

مغنية شهيرة كانت جميلة الوجه. تعلمت الغناء عن كبار المغنين فى العصر العباسى فأتقنته وذاع صيتها فيه.

اتصلت بعائلة هارون الرشيد وكانت على صلة وثيقة بحمدون ابنته وانقطعت لها. وينقل عنها أنها كانت مشهورة بالظرف والمجون والفتوة.

داحة المغنية

جارية مغنية كانت لآل الفضل بن الربيع وزير هارون الرشيد. اتقنت الغناء ونقلته إلى كثير من المغنين.

خمــار

مغنية قندهارية - هندية - اشتراها عبد الله بن الربيع من آل يحيى بن معاذ بمائتى ألف درهم. أخذت الغناء عن إبراهيم الموصلي.

خلــوب

مغنية كانت جارية فى عائلة هارون الرشيد.

يروى عنها أنها دخلت على هارون وعنده أخوة المنصور وهما شربان. ومعها كأسان مملؤتان وجاريتان ومن ورائها خادم يتبعها حاملاً عود فغنتهما قائمة تقول :

حياكمـا اللــه خليليـا	إن ميتا كنـت وإن حيـا
إن قلتما خيراً مخير لكم	أو قلتمـا غيـاً فـلا غيـاً

خوبى العوادة

جارية مغنية برعت فى ضرب العود. اشتراها بكتمر الساقى فى عهد الناصر قلاوون بعشرة آلاف دينار مصرية ولما مات بكتمر وبلغها موته كسرت عودها ثم باعها الناصر لبشتاك بستة آلاف دينار. ولم تحظ عنده .. توفيت عام ٧٤٠هـ.

خزامى

جارية مغنية وشاعرة من مغنيات العصر العباسي كانت نديمة - صاحبة - عبد الله بن المعتز. اعتزلته فترة فكتب إليها يقول :

رأيتك قد أظهرت زهداً وتوبة   فقد سمجت من بعد توبتك الخمر

فأهديت ورداً كي يذكر عيشة   لمن لم يمنعنا ببهجتها الدهر

خداع

مغنية كان يهواها محمد بن أمية من شعراء وكتاب الدولة العباسية فبيعت خداع واشتراها بعض ولد المهدي العباسي. فحجبت عنه وانقطع ما كان بينهما إلا مكاتبة أو مراسلة وأنشد يقول فيها :

خطرات الهوى بذكر خداع   هجن شوقي لا دارسات الطلول

حجبت أن ترى فلست أرها   وأرى أهلها بكل سبيل

إذا جاءها الرسول رآها   ليت عيني مكان عين الرسول

قد أتاك الرسول ينعت ما بي   فاسمعي منه ما يقول وقولي

الحولاء

مغنية أحسنت الغناء وبرعت فيه. غنت لسيدها ابن جامع هزجاً- شعراً- في عشيقة سوداء صاحب له يقول :

أشبهك المسك وأشبهته   قائمة في لونه قاعدة

لا شك إذ لونكما واحد   أنكما من طينة واحدة

حمرونة

مغنية أندلسية تقدمت فى صناعة الغناء. اشتهرت وذاع صيتها وأخذ عنها الكثير من المغنيين.

منفعــة

مغنية ذات حسن وجمال كانت لزرياب المغنى فادبها وعلمها أحسن أغانيه شبت وغنت بين يدى الأمير عبد الرحمن بن الحكم مرة وتسقيه أخرى. فلما فطنت لإعجابه بها أبدت له دلائل الرغبة فأبى إلا التستر فغنته بهذه الأبيات :

يا من يغطى هـواه	من ذا يغطى النهـارا
قد كنت أملك قلبى	حتى علقـت فطـارا
ياويلنـــا أتـــراه	لى كان أو مستعـارا
يا بـأبـى قريـــش	خلعت فيـه العـذارا

فلما انكشف لزرياب أمرها أهداها إليه فحظيت عنده.

خليدة المكية

مغنية كانت لابن شماس. تعلمت الغناء من رموز الغناء في عصرها ابن سريج ومالك ومعبد وبرعت فيه.

ويروى أن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان أرسل إلى خليدة أبا عون مولاه يخطبها فقال لها : أرسلنى إليك مولاى وهو ممن تعلمين من رسول الله ﷺ .

قالت : اسمع نسبى . إن أبى بيع فعاش عبداً فى رجليه قيد وفى عنقه سلسلة. وولدتنى أمى وماتت وهى أبقة – أى هاربة من سيدها– وأنا من تعلم

فإن أراد صاحبك نكاحاً مباحاً أو زنا صراحاً فهلم إليه فنحن له.

فقال : إنه لا يدخل الحرام.

فقالت : ولا ينبغى أن يستحيا من الحلال، فأما نكاح السر فلا والله لا فعلته ولا كنت عاراً على القيان.

فأتى أبو عون فأخبره..

فقال : ويلك . أتزوجها معلنا وعندى بنت طلحة بن عبيد الله لا. ولكن ارجع إليها فقل لها تختلف إلى – تأتيه سراً– أردد بصرى فيها لعلى أسلو.

فرجع أبو عون فأبلغها الرسالة.

فضحكت وقالت : أما هذا فنعم ولسنا نمنعه منه.

شجرة الدر

جارية تركية الأصل كانت ملك الصالح أيوب آخر ملوك بنى أيوب. ملكها فى أيام والده وتزوجها وصحبته ببلاد المشرق ثم قدمت معه إلى مصر. وكان لها غالب الأمر والتدبير فى أمر الحكم فى أيام زوجها ثم فى مرضه.

وكانت ذات جمال فائق وحسن رأى وتدبير ودهاء. ولما مات الصالح كتمت خبر موته وجمعت الأمراء وأرباب السلطان وأخذت منهم العهد والميثاق بتولية ولده توارنشاه ثم دبرت قتله عام ٦٤٨هـ. وتولت أمور السلطنة.

وكان الأمير عز الدين أيبك مدبر مملكتها وخطب لها على منابر مصر بعد الدعاء للخليفة العباسى فى بغداد المستنصر بالله الذى أرسل ينكر أمر توليتها ويهددهم ولما بلغ ذلك شجرة الدر خلعت نفسها من السلطنة بعد أن حكمت نحو ثلاثة شهور.

وتم تولية عز الدين أيبك مكانها وتزوج بها، فكان أول من تولى من سلاطين المماليك، ثم دبرت شجرة الدر لقتله فيما بعد، فأخرجت من دار السلطنة وحبست ثم قتلت على يد جواريها فى ربيع الآخر من عام ٦٤٨هـ، وقبل عام ٦٥٥هـ ودفنت فى التربة التى كانت قد بنتها لنفسها بقرب مشهد السيدة نفيسة.

ويروى أن شجرة الدر لما أيقنت أنها منقتولة جمعت جواهرها النفيسة وسحقتها بالهاون لئلا يأخذها خصومها.

حدق القهرمانة

جارية أصبح لها مكانة كبيرة ونفوذ فى عصر السلطان المملوكى.

وكان يعمل برأيها فى الأعراس السلطانية والمهمات الجلية التى تعمل فى الأعياد والمواسم وترتيب الحرم السلطانى وتربية أولاد السلطان.

وأصبحت على قدر واسع من الثراء ثم صودرت أموالها ثم ردت لها أموالها فيما بعد.

خاتون

جارية من ربات النفوذ والسلطان كانت محظية على بك الكبير وشيد لها داراً عظيمة على بركة الأزبكية، ولما مات على بك الكبير تزوجها مراد بك وحين قدم الفرنسيون مصر أكرموها وخصصوا لها راتباً مع تمتعها بالنفوذ والسلطان فكانت شفاعتها مقبولة لديهم.

وكانت كثيرة الإحسان للفقراء والمساكين توفيت فى سنة ١٢٢١ هـ ودفنت بجوار الإمام الشافعى بالقاهرة.

زيـــدان

من الجوارى ذات النفوذ فى الدولة العباسية وكان كبار رجال الدولة يتقربون إليها ملتمسين منها الجاه والقوة.

ست نسيم

كانت من أرباب النفوذ والسلطان فى الدولة العباسية. استحضرها الخليفة الناصر فى أواخر أيامه لما ضعف بصره وكثر سهوه، وكانت تكتب خطاً قريباً من خطه فجعلها بين يديه تكتب الأجوبة الرسمية للدولة. ثم تزايد المرض بالناصر حتى عدم بصره فصارت ست نسيم تكتب الأجوبة بما تراه.

وحدث أن كشف الأمر وزير الدولة المؤيد فتوقف عن العمل. ودعمت ست نسيم سلطانها بقتل الحكيم صاعد بن توما الذى يعالج الناصر والذى أوشى بها.

مسكـة

جارية نشأت فى دار الملك الناصر محمد بن قلاوون وأصبحت من أرباب النفوذ والسلطان فى عصره وطال عمرها واشتهرت بالبر والإحسان.

وكانت ممسكة قد بنت جامعاً بالقاهرة منقوش عليه اسمها سنة ٧٤٦هـ.

فى النساء و صفاتهن(١)

يقول المؤلف : ونحن قائلون بعون الله تعالى وتوفيقه فى النساء وصفاتهن، وما يحمد ويذم من عشرتهن، إذ كان كله مقصوراً على الحليلة الصالحة والزوجة الموافقة، والبلاء كله موكل بالقرينة السوء، التى لا تسكن النفس إلى كريم عشرتها، ولا تقر العين برؤيتها.

(١) العقد الفريد ـ لابن عبد ربه .

قال الأصمعي : حدثني ابن أبي الزناد عن عروة بن الزبير قال : مارفع أحد نفسه بعد الإيمان بالله بمثل منكح صدق، ولا وضع أحد نفسه بعد الكفر بالله بمثل منكح سوء ! ثم قال : لعن الله فلانة ألفت بني فلان بيضا طوالا، فقلبتهم سوداً قصاراً.

وفي حكمة سليمان بن داود عليهما السلام : المرأة العاقلة تبني بيتها، والسفيهة تهدمه.

وقال : الجمال كاذب، والحسن مخلف، وإنما تستحق المدح المرأة الموافقة.

قولهم في المناكح :

الرسول ﷺ وأم هانئ

وعن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- أنه قال : يارسول الله، لو تزوجت أم هانئ بنت أبي طالب، فقد جعل الله لها قرابة، فتكون صهراً أيضا! فخطبها رسول الله ﷺ، فقالت : والله إنه أحب إلي من سمعي وبصري ولكن حقه عظيم، وأنا مؤتمة، فإن قمت بحقه خفت أن أضيع أيتامي، وإن قمت بأمرهم قصرت عن حقه! فقال النبي ﷺ : خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناها على ولد في صغره، وأرعاها على بعل في ذات يده، ولو علمت أن مريم ابنة عمران ركبت جملا لاستثنيتها.

زواج الرسول ﷺ من حفصة :

ولما توفيت رقية بنت رسول الله ﷺ عن عثمان بن عفان، عرض عليه عمر ابنته حفصة، فسكت عنه عثمان. وقد كان بلغه أن رسول الله ﷺ يريد أن يزوجه ابنته الأخرى- فشكا عمر إلى رسول الله ﷺ سكوت عثمان عنه، فقال له سيزوج الله ابنتك خيرا من عثمان، ويزوج عثمان خيراً من ابنتك ! فتزوج رسول الله ﷺ حفصة وتزوج عثمان ابنته

خطبته ﷺ لخديجة :

ولما خطب رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد بن عبد العزى، ذكرت ذلك لورقة بن نوفل، وهو ابن عمها. فقال : هو الفحل لا يقدع أنفه، تزوجيه.

زواج بلال وأخيه :

وخرج بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ مع أخيه، إلى قوم من بني ليث، يخطب إليهم لنفسه ولأخيه، فقال : أنا بلال وهذا أخي، كنا ضالين فهدانا الله، وكنا عبدين فأعتقنا الله، وكنا فقيرين فأغنانا الله، فإن تزوجونا فالحمد لله، وإن تردونا فالمستعان الله ! قالوا : نعم وكرامة! فزوجوهما.

زواج عثمان من نائلة :

قالت تماضر امرأة عبد الرحمن بن عوف لعثمان بن عفان: هل لك في ابنة عم لي، بكر جميلة، ممتلئة الخلق، أسيلة الخد، أصيلة الرأى، تتزوجه ؟ قال : نعم. فذكرت له نائلة بنت الفرافصة الكلبية، فتزوجها وهي نصرانية، فتحنفت وحملت إليه من بلاد كلب. فلما دخلت عليه قال لها: لعلك تكرهين ما ترين من شيبي؟ قالت : والله يا أمير المؤمنين، إني من نسوة أحب أزواجهن إليهن الكهل! قال : إني قد جُزت الكهول، وأنا شيخ ! قالت : أذهبت شبابك مع رسول الله ﷺ في خير ما ذهبت فيه الأعمار! قال: أتقومين إلينا أم نقوم إليك ؟ قالت : ما قطعت إليك أرض السماوة وأريد أن أنثني إلى عرض البيت ! وقامت إليه : فقال: لها: انزعي ثيابك. فنزعتها، فقال : حلي مرطك. قالت : أنت وذاك.

قال أبو الحسن : فلم تزل نائلة عند عثمان حتى قتل ، فلما دُخل إليه وقته بيدها ، فجذمت أناملها ، فأرسل إليها معاوية بعد ذلك يخطبها ، فأرسلت إليه : ما ترجو من امرأة جذماء!

وقيل : إنها قالت لما قتل عثمان : إنى رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب، وقد خشيت أن يبلى حزن عثمان من قلبى ! فدعت بفهر فهتمت[1] فاها، وقالت : والله لا قعد أحد منى مقعد عثمان أبداً !

شريح والشعبى فى نساء تميم :

وعن الهيثم بن عدى الطائى قال : حدثنا مجالد عن الشعبى قال : قال لى شريح: يا شعبى، عليك بنساء بنى تميم، فإنى رأيت لهن عقولا. قال : وما رأيت من عقولهن ؟ قال : أقبلت من جنازة ظهراً، فمررت بدورهم فإذا أنا بعجوز على باب دار، وإلى جنبها جارية كأحسن ما رأيت من الجوارى، فعدلت فاستسقيت ومابى عطش، فقالت : أى الشراب أحب إليك ؟ فقلت : ما تيسر. قالت : ويحك يا جارية ! ائتيه بلبن، فإنى أظن الرجل غريبا! قلت : من هذه الجارية ؟ قالت : هذه زينب بنة جرير، إحدي نساء حنظلة. قلت : فارغة هى أم مشغولة ؟ قالت : بل فارغة. قلت : زوجنيها. قالت : إن كنت لها كفئا. ولم تقل كفوا، وهى لغة تميم. فمضيت إلى المنزل فذهبت لأقيل، فامتنعت من القائلة، فلما صليت الظهر أخذت بأيدى إخوانى من القراء الأشراف: علقمة، والأسود، والمسيب، وموسي بن عرفطة، ومضيت أريد عمها، فاستقبل فقال : يا أبا أمية، ما حاجتك ؟ قلت : زينب بنت أخيك. قال : ما بها رغبة عنك ! فأنكحنيها. فلما صارت فى حبالى ندمت، وقلت : أى شيء صنعت بنساء بنى تميم؟ وذكرت غلظ قلوبهن، فقلت : أطلقها ! ثم قلت : لا، ولكن أضمها إلىّ، فإن رأيت ما أحب وإلا كان ذلك.

فلو رأيتنى يا شعبى وقد أقبل نساؤهم يهدينها حتى أدخلت علىّ، فقلت : إن من السنة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم فيصلى ركعتين فيسأل الله من خيرها ويعوذ به من شرها. فصليت وسلمت، فإذا هى من خلفى تصلى

---

[1] كسرت أسنانها بحجر.

بصلاتى. فلما قضيت صلاتى أتتنى جواريها، فأخذن ثيابى وألبسننى ملحفة قد صبغت فى عكر العصفر.

فلما خلا البيت دنوت منها فمددت يدى إلى ناحيتها، فقالت : على رسلك أبا أمية ! كما أنت ! ثم قالت : الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأصلى على محمد وآله، إنى امرأة غريبة لا علم لى بأخلاقك، فبين لى ما تحب فآتيه، وما تكره فأزدجر عنه.. وقالت : إنه قد كان لك فى قومك منكح، وفى قومى مثل ذلك، ولكن إذا قضى الله أمراً كان، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله به:

﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) ﴾ [البقرة].

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولك.

قال : فأحوجتنى والله يا شعبى إلى الخطبة فى ذلك الموضع، فقلت :

الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأصلى على النبى وآله وأسلم، وبعد، فإنك قد قلت كلاما إن تثبتى عليه يكن ذلك حظك، وإن تدعيه يكن حجة عليك، أحب كذا وأكره كذا، ونحن جميع فلا تفرقى، وما رأيت من حسنة فانشريها، وما رأيت من سيئة فاستريها.

وقالت شيئا لم أذكره : كيف محبتك لزيارة الأهل ؟ قلت : ما أحب أن يملنى أصهارى ! قالت : فمن تحب من جيرانك أن يدخل دارك آذن لهم، ومن تكرهه أكرهه؟ قلت : بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء.

قال : فبت يا شعبى بأنعم ليلة، ومكثت معى حولا لا أرى إلا ما أحب.

فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء، فإذا بعجوز تأمر وتنهى في الدار! فقلت : من هذه ؟ قالوا: فلانة ختنك (حماتك). فسرى عنى ما كنت أجد. فلما جلست، أقبلت العجوز فقالت : السلام عليك أبا أمية. قلت : وعليك السلام، من أنت ؟ قالت : أنا فلانة ختنك. قلت : قربك الله. قالت : كيف رأيت زوجتك ؟ قلت خير زوجة. فقالت لى : أبا أمية، إن المرأة لا تكون أسوأ منها فى حالتين : إذا ولدت غلاما، أو حظيت عند زوجها، فإن رابك ريب (شك) فعليك بالسوط، فوالله ما جاز الرجال فى بيوتهم شرا من المرأة المدللة. قلت : أما والله لقد أدبت فأحسنت الأدب، ورضت فأحسنت الرياضة قالت : تحب أن يزورك ختانك ؟ قلت متى شاءوا قال: فكانت تأتينى فى رأس كل حول توصينى تلك الوصية.

فمكثت معى عشرين سنة لم أعتب عليها فى شىء، إلا مرة واحدة، وكنت لها الظالم: أخذ المؤذن فى الإقامة بعدما صليت ركعتى الفجر، وكنت إمام الحى، فإذا بعقرب تدب : فأخذت الإناء فأكفأته عليها، ثم قلت : يا زينب، لا تتحركى حتى أتى ! فلو شهدتنى يا شعبى وقد صليت ورجعت فإذا أنا بالعقرب قد ضربتها، فدعوت بالسكت والملح، فجعلت أمغث أصبعها وأقرأ عليها بالحمد والمعو ذتين. وكان لى جار من كندة يفزع امرأته ويضربها، فقلت فى ذلك :

كنتـم زعمتـم أنهـا ظلمتكـم	كذبتم وبيت اللـه بل تظلمونهـا
فإن لا تعدوا أمها من نسائكم	فـإن أباهـا والـد لن يشينهـا
وإن لهـا أعمـام صدق وإخـوة	وشيخـا إذا شئتـم تأيـم دونهـا

قالت النوار : فإذن لا نشاء.

أخت أبى سفيان :

وعن العتبى قال خطب قريبة ابنة حرب أخت أبى سفيان بن حرب، أربعة عشر رجلا من أهل بدر، فأبتهم وتزوجت عقيل بن أبى طالب. قالت : إن

عقلا كان مع الأحبة يوم قتلوا، وإن هؤلاء كانوا عليهم ! ولاحته يوما فقالت : يا عقيل، أين أخوالى ؟ أين أعمامى ؟ كأن أعناقهم أباريق الفضة! قال لها: إذا دخلت النار فخذى على يسارك.

الحسن ورجل يزوج ابنته :

وقال رجل للحسن : إن لى بنية، فمن ترى أن أزوجها؟ قال زوجها ممن يتقى الله فإن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها.

عبد الملك وعمر بن عبد العزيز :

وقال عبد الملك بن مروان ، لعمر بن عبد العزيز: قد زوجك أمير المؤمنين ابنته فاطمة، فقال عمر : وصلك الله يا أمير المؤمنين، فقد كفيت المسألة، وأجزلت فى العطية.

وقيل للحسن : فلان خطب إلينا فلانة . قال : أهو موسر من عقل ودين ؟ قالوا: نعم. قال : فزوجوه.

وقال رجل لحيوة بن شريح : إنى أريد أن أتزوج. فماذا ترى ؟ قال : كم المهر ؟ قال : مائة. قال : فلا تفعل، تزوج بعشرة وأبق تسعين، فإن وافقتك ربحت التسعين، وإن لم توافقك تزوجت عشرا، فلابد فى عشر نسوة من واحدة توافقك.

مكثر ومقل فى زواج :

وعن الأصمعى قال : أخبرنى رجل من بنى العنبر عن رجل من أصحابه وكان مُقلا، فخطب إليه مُكثر من مال مُقل من عقل، فشاور فيه رجلا يقال له أبو يزيد، فقال : لا تفعل، ولا تزوج إلا عاقلا دينا فإنه إن لم يكرمها لم يظلمها. ثم شاور رجلا آخر يقال له أبو العلاء، فقال له : زوجة، فإن ماله لها وحمقه على نفسه. فزوجه، فرأى منه ما يكره فى نفسه وابنته، وأنشده فقال :

ألهفى إذ عصيت أبا يزيد ولهفى إذا أطعت أبا العلاء
وكانت هفوة من غير ريح وكانت زلقـة من غير مـاء

زواج معبد بن خالد :

المفضل بن محمد الضبى قال : أخبرنى مسعر بن كدام عن معبد بن خالد الجدلى قال : خطبت امرأة من بنى أسد فى زمن زياد. وكان النساء يجلسن لخطابهن – قال :

فجئت لأنظر إليها، وكان بينى وبينها رواق: فدعت بجفنة عظيمة من الثريد مكللة باللحم. فأتت على آخرها وألقت العظام نقية. ثم دعت بشن عظيم مملوءة لبنا، فشربته حتى أكفأته على وجهه، وقالت : يا جارية ارفعى السجف، فإذا هى جالسة على جلد أسد. وإذا شابة جميلة، فقالت : يا عبد الله، أنا أسدة ، من بنى أسد، وعلى جلد أسد، وهذا طعامى وشرابى، فعلام ترى ؟ فإن أحببت أن تتقدم فتقدم، وإن أحببت أن تتأخر فتأخر! فقلت : أستخير الله فى أمرى وأنظر! قال فخرجت ولم أعد !

جارية لأمية وراغب فى زواجها :

قال : وحدثنا بعض أصحابنا أن جارية لأمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد ذات ظرف وجمال، مرت برجل من بنى سعد، وكان شجاعا فارسا، فلما رآها قال : طوبى لمن كانت له امرأة مثلك ! ثم إنه أتبعها رسولا يسألها: ألها زوج ؟ ويذكره لها، فقالت للرسول : ما حرفته ؟ فأبلغه الرسول قولها: فقال : ارجع إليها فقال لها :

وسائلة ما حرفتى ؟ قلت : حرفتى مقارعـة الأبطـال فى كل شـارق
إذا عرضت لى الخيل يوما رأيتنى أمام رعيل الخيل أحمى حقائقى

وأصبر نفسي حين لا حر صابر   على ألم البيض الرقاق البوارق

فأنشدها الرسول ما قال ، فقالت له : ارجع إليه وقل له : أنت أسد فاطلب لنفسك لبؤة، فلست من نسائك! وأنشدت هذه الأبيات :

ألا إنما أبغي جوادا بماله   كريما محياه قلل الصدائق

فتى همه مذ كان خود كريمة   يعانقها بالليل فوق النمارق

ويشربها صرفا كميتا مدامة   نداماه فيها كل خرق موافق

رجل بين زوجتين :

يحيى بن عبد العزيز عن محمد بن الحكم عن الشافعي قال : تزوج رجل امرأة حديثة على امرأة له قديمة، فكانت جارية الحديثة تمر على باب القديمة فتقول :

وما يستوى الرجلان رجل صحيحة

ورجل رمى فيها الزمان فشلت

ثم تعود فتقول :

وما يستوى الثوبان ثوب به البلى

وثوب بأيدى البائعين جديد

فمرت جارية القديمة على الحديثة فأنشدت :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما القلب إلا للحبيب الأول

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى

وحنينه أبدا لأول منزل

المغيرة وغلام حارثى :

وعن الشعبى قال : سمعت المغيرة بن شعبة يقول : ما غلبنى أحد قط إلا غلام من بنى الحارث بن كعب، وذلك أنى خطبت امرأة من بنى الحارث، وعندى شاب منهم، فاصغى إلى فقال : أيها الأمير، لا خير لك فيها ! قلت : يا بن أخى ومالها ؟ قال : إنى رأيت رجلا يقبلها! قال : فبرئت منها، فبلغنى أن الفتى تزوجها، قلت : ألم تخبرنى أنك رأيك رجلا يقبلها؟ قال : بلى رأيت أباها يقبلها

صفات النساء وأخلاقهن :

قال أبو عمرو بن العلاء : أعلم الناس بالنساء عبدة بن الطبيب حيث يقول:

فإن تسألونى بالنساء فإننى ... عليم بأدواء النساء طبيب

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له فى ودهن نصيب

يردن ثراء المال حيث علمنه ... وشرخ الشباب عندهن عجيب

للحجاج فى نسوته :

الشيبانى عن عوانة قال : ذُكر النساء عند الحجاج، فقال عندى أربع نسوة : هند بنت المهلب، وهند بنت أسماء بن خارجة، وأم الجلاس بنت عبد الرحمن بن أسيد، وأمة الرحمن بنت جرير بن عبد الله ابجلى. فأما ليلتى عند هند بنت المهلب فليلة فتى بين فتيان، يلعب ويلعبون، وأما ليلتى عند هند بنت أسماء فليلة ملك بين الملوك، وأما ليلتى عند أم الجلاس فليلة أعرابى مع أعراب فى حديثهم وأشعارهم. وأما ليلتى عند أمة الرحمن بنت جرير فليلة عالم بين العلماءوالفقهاء.

أبو الحر المخنث :

وعن العتبى قال : حدثنى رجل من أهل المدينة قال : كان بالمدينة مخنث يدل على النساء، يقال له أبو الحر، وكان منقطعا إلىّ، فد لنى على غير ما امرأة أتزوجها ، فلم أرض عن واحدة منهن، فاستقصرته يوما، فقال : والله يامولاى لأدلنك على امرأة لم تر مثلها قط، فإن لم ترها كما وصفت فأحلق لحيتى ! فدلنى على امرأة ، فتزوجتها، فلما زفت إلى وجدتها أكثر مما وصف، فلما كان فى السحر إذا إنسان يدق الباب، فقلت : من هذا؟ قال : أبو الحر، وهذا الحجام معه. فقلت : قد وفر الله لحيتك أبا الحر، الأمر كما قلت !

معاوية وابن صوحان :

وقال معاوية لصعصعة بن صوحان: أى النساء أشهى إليك ؟ قال : المواتية لك فيما تهوى قال : فأيهن أبغض ؟ قال : أبعدهن مما ترضى . قال : هذا النقد العاجل. فقال صعصعة : بالميزان العادل.

وقال صعصعة لمعاوية : يا أمير المؤمنين، كيف ننسبك إلى العقل وقد غلب عليك نصف إنسان ! يريد غلبة امرأته فاختة بنت قرظة عليه. فقال معاوية : إنهن يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام!

الحجاج وابن القرية :

وكتب الحجاك إلى أيوب بن القرية : أن اخطب على عبد الملك بن الحجاج امرأة جميلة من بعيد، مليحة من قريب، شريفة فى قومها ذليلة فى نفسها، مواتية لبعلها، فكتب إليه :

قد أصبتها لولا عظم ثدييها. فكتب إليه : لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم ثدياها، فتدفىء الضجيع، وتروى الرضيع.

أبو العباس وابن صفوان :

وقال أبو العباس أمير المؤمنين لخالد بن صفوان : يا خالد، إن الناس أكثروا فى النساء ، فأيهن أعجب إليك ؟

قال : أعجبهن يا أمير المؤمنين التى ليست بالضرع الصغير، ولا الفا.. الكبيرة، وحسبك من جمالها أن تكون فخمة من بعيد، مليحة من قريب، أعلاها قضيب، وأسفلها كثيب، كانت فى نعمة ثم أصابتها فاقة، فأترفها الغنى وأدبها الفقر.

ابن صفوان وامرأة :

ونظر خالد بن صفوان إلى جماعة فى المسجد بالبصرة، فقال ما هذه الجماعة ؟ قالوا: على امرأة تدل على النساء، فأتاها فقال لها : ابغنى امرأة. قالت : صفها لى. قال : أريدها بكرا كثيب، أو ثيبا كبكر، حلوة من قريب، فخمة من بعيد، كانت فى نعمة فأصابتها فاقة، فمعها أدب النعمة وذل الحاجة، فإذا اجتمعنا كنا أهد دنيا، وإذا افترقنا كنا أهل آخرة. قالت : لقد أصبتها لك. قال : وأين هى ؟ قالت : فى الرفيق الأعلى من الجنة فاعمل لها !

لأعرابى فى النساء :

وسئل أعرابى فى النساء، وكان ذا تجربة وعلم بهن ! فقال : أفضل النساء أطولهن إذا قامت، وأعظمهن إذا قعدت ، وأصدقهن إذا قالت، التى إذا غضبت حلمت، وإذا ضحكت تبسمت، وإذا صنعت شيئا جودت، التى تطيع زوجها، وتلزم بيتها، العزيزة فى قومها، الذليلة فى نفسها، الودود والولود، وكل أمرها محمود.

غطفانى وعبد الملك :

وقال عبد الملك بن مروان لرجل من غطفان : صف لى أحسن النساء. فقال : خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين، ردماء[1] الكعبين، مملوءة الساقين، جماء الركبتين، لفاء الفخذين، مقرمدة الرفغين، ناعمة الأليتين، منيفة المأكمتين[2]، فعمة العضدين، فخمة الذراعين، رخصة الكفين، ناهدة الثديين، حمراء الخدين، كحلاء العينين، زجاء الحاجبين، لمياء الشفتين، بلجاء الجبين، شماء العرنين[3]، شنباء الثغر، حالكة الشعر، غيداء العنق، عيناء العينين، مكسرة البطن، ناتئة الركب. فقال : ويحك ! وأنى توجد هذه ؟ قال : تجدها فى خالص العرب، أو فى خالص الفرس.

وقال رجل لخاطب : ابغنى امرأة لا تؤنس جاراً، ولا توهن داراً، ولا تثقب ناراً.

يريد : لا تدخل علي الجيران، ولا يدخل عليها الجيران، ولا تغرى بينهم بالشر. وفى نحو هذا يقول الشاعر :

من الأوانس مثل الشمس لم يرها   فى ساحة الدار لا بعل ولا جار

وقال الأعشى :

لم تمش ميلا ولم تركب على حمل   ولا ترى الشمس إلا دونها الكلل

وقال آخر :

ابغنى امرأة بيضاء مديدة، فرعاء جعدة، تقوم فلا يصيب قميصها منها إلا مشاشة منكبيها، وحلمتى ثدييها، ورانفتى أليتيها.

---

(١) ردماء : عطوفة .   (٢) المأكمة : الأرداف .

(٣) العرنين : ما صلب من عظم الأنف حيث يكون الشمم.

وقال الشاعر :

أبت الروادف والثدى لقمصهـا مس البطون وأن تمس ظهـورا

وإذا الرياح مع العشى تناوحت نبهـن حاسـدة وهجـن غيـورا

من أخبار عائشة بنت طلحة :

ونظر أبو هريرة إلى عائشة بنت طلحة ، فقال : سبحان الله! ما أحسن ما غذاك أهلك ! والله ما رأيت وجها أحسن منك، إلا وجه معاوية على منبر رسول الله ﷺ .

وكان معاوية من أحسن الناس وجها.

ونظر ابن أبى ذئب إلى عائشة بنت طلحة تطوف بالبيت، فقال لها : من أنت : فقالت :

من اللاء لم يحججن يبغين حسبة ولكن ليقـتلـن البـرىء المغفـلا

فقال لها : صان الله ذاك الوجه عن النار! فقيل له : أفتنتك أبا عبد الله؟ قال : لا، ولكن الحسن مرحوم.

صفة المرأة السوء :

قال النبى ﷺ : «إياكم وخضراء الدمن». يريد الجارية الحسناء فى المنبت السو.

وفى حكمة داود : «المرأة السوء مثل شرك الصياد، لا ينجو منها إلا من رضى الله عنه».

الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء قال : قال عمر بن الخطاب : النساء ثلاثة : هينة عفيفة مسلمة، تعين أهلها على العيش ولا تعين العيش على أهلها.

وأخرى وعاء للولد وثالثة غُل قمل يلقيه الله فى عنق من يشاء من عباده.

وقيل لأعرابى عالم بالنساء : صف لنا شر النساء . قال شرهن النحيفة الجسم القليلة اللحم. الطويلة السقم، المحياض الممراض الصفراء، المشئومة العسراء، السليطة الذفراء، السريعة الوثبة، كأن لسانها حربة، تضحك. من غير عجب، وتقول الكذب، وتدعو على زوجها بالحرب، أنف فى السماء، واست فى الماء.

وقال : آخر عمر الرجل خير من أوله، يثوب حلمه، وتثقل حصاته، وتحمد سريرته، وتكمل تجاربه، وآخر عمر المرأة شر من أوله، يذهب جمالها، ويذرب لسانها، وتعقم رحمها ، ويسوء خلقها .

علامة الحب والبغض :

ويقال : إن المرأة إذا كانت مبغضة لزوجها، فعلامة ذلك أن تكون عند قربه منها مرتدة الطرف عنه، كأنها تنظر إلى إنسان غيره، وإذا كانت مُحبة له، لا تقلع عن النظر إليه.

صفة الحسن :

عن أبى الحسن المدائنى قال : الحسن أحمر، وقد تضرب فيه الصفرة مع طول المكث فى الكن والتضمخ بالطيب، كما تضرب بيضة الأدحى واللؤلؤة المكنونة، وقد شبه الله عز وجل فى كتابه فقال :

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الصافات].

وقال الشاعر :

كأن بيض نعام فى ملاحفها   إذا اجتلاهن قيظ ليله ومد

ومن قولهم فى الجارية :

جميلة من بعيد، مليحة من قريب، فالجميلة التى تأخذ بصرك جملة على بعد، فإذا دنت لم تكن كذلك، والمليحة التى كلما كررت فيها بصرك زادتك حُسنا.

وقال بعضهم : الجميلة السمينة، من الجميل، وهو الشحم، والمليحة أيضا من الملحة، وهو البياض، والصبيحة مثل ذلك، يشبهونها بالصبح فى بياضه.

المنجبات من النساء :

قالت العرب : بنات العم أصبر، والغرائب أنجب.

والعرب تقول : اغتربوا لا تضووا: أى انكحوا فى الغرائب، فإن القرائب يضوين البنين. أى يضعفن الأولاد بسبب ضعف الشهوة بين الأقارب.

باب الطلاق :

محمد بن الغار قال : حدثنى عبد الرحمن بن محمد بن أخى الأصمعى قال : سمعت عمى يقول : توصلت بالملح، وأدركت بالغريب.

الحسن وعائشة بنت طلحة :

وقال الحسن بن على بن حسين لامرأته عائشة بن طلحة : أمرك بيدك ! فقالت : قد كان عشرين سنة بيدك. فأحسنت حفظه، فلم أضيعه إذ صار بيدى ساعة واحدة، وقد صرفته إليك ! فأعجبه ذلك منها وأمسكها.

وقيل لابن عباس : ما تقول في رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء ؟ فقال : يكفيه من ذلك عدد كواكب الجوزاء !

وقيل لأعرابى : هل لك فى النكاح ؟ قال : لو قدرت أن أطلق نفسى لطلقتها.

من طلق امرأته ثم تبعتها نفسه :

الوليد وزوجته سعدي :

وطلق الوليد بن يزيد امرأته سُعدي، فلما تزوجت اشتد ذلك عليه، وندم على ما كان منه، فدخل عليه أشعب، فقال له : أبلغ سعدى عنى رسالة، ولك منى خمسة آلاف درهم ! فقال : عجلها! فأمر له بها، فلما قبضها قال : هات رسالتك : فأنشده :

أسعدى ما إليك لنا سبيل ولا حتى القيامة من تلاق ؟

بلى ، ولعل دهرا أن يؤاتى بموت من حليلك أو فراق

فأتاها فاستأذن، فدخل عليها . فقالتْ له : ما بدا لك فى زيارتنا يا أشعب؟ فقال : يا سيدتى، أرسلنى إليك الوليد برسالة. وأنشدها الشعر، فقالت لجواريها: خذن هذا الخبيث ! فقال : يا سيدتى ، إنه جعل لى خمسة آلاف درهم ! قالت : والله لأعاقبنك أو لتبلغن إليه ما أقول لك . قال : سيدتى، اجعلى لى شيئاً، قالت: لك بساطى هذا. قال قومى عنه ! فقامت عنه وألقاه على ظهره، وقال : هاتى رسالتك. فقالت أنشده :

أتبكى على سُعدى وأنت تركتها

فقد ذهبت سُعدى فما أنت صانع

فلما بلغه وأنشده الشعر، سُقط ى يده وأخذته كظمة، ثم سرى عنه، فقال: اختر واحدة من ثلاث : إما أن نقتلك، وإما أن نطرحك من هذا القصر، وإما أن نلقيك إلى هذه السباع ! فتحير أشعب وأطرق حينا،

ثم رفع رأسه فقال : يا سيدى، ما كنت لتعذب عينين نظرتا إلى سُعدى! فتبسم وخلى سبيله.

كثير وعزة :

ودخلت عزة صاحبة كثير على أم البنين زوج عبد الملك بن مروان، فقالت لها : أخبريني عن قول كثير :

قضى كل ذى دين فوفى غريمه

وعزة ممطـول معنى غريمهـا

ما هذا الدين الذى طلبك به ؟ قالت : وعدته بقبلة فتحرجت منها . قالت : أنجزيها وعلى إثمها . وقيل أنها تابت من هذه الكلمة وندمت وبكت وصدقت[1].

وقع بين رجل وامرأته شر، فجعل يحيل عليها بالجماع، فقالت : فعل الله بك ! كلما وقع بيننا شيء جئتنى بشفيع لا أقدر على رده.

فى النكاح :

وقالوا : من قل جماعه فهو أصح بدنا وأطول عمرا ويعتبرون ذلك بذكر الحيوان، وذلك أنه ليس فى الحيوان أطول عمرا من البغل، ولا أقصر عمراً من العصافير، وهى أكثر سفادا . والله أعلم.

---

(١) العجب أن ابن عبد ربه لم يذكر توبة أم البنين من هذه الكلمة .

مبعث الشهوة

الشهوة شيء من طبيعة الإنسان ... ميز بها ... منحها الله إياها لتسير مركبة حياته ... إلى جانب منحه له العقل ونور المعرفة ... ومنع عن الحيوان العقل ... وأعطاه الشهوة ... ومنع الشهوة عن الملائكة.

والمطلوب من بنى البشر ﷺ أن ينظموا شهواتهم بحيث لا تطغى على أخلاقهم فيقعوا فى المحذور ... وتنظيم الشهوة أى وضعها فى مكانها المناسب ... ولمعرفة ذلك لابد من معرفة العوامل التى تساعد على تهييج الشهوة. فتطغى حينئذ على خلقه.

جعل الله سبحانه للإنسان قلبا.. وإنما سمى قلبا لأنه يتقلب بتقليب الله عز وجل إياه، لأنه بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل، يقلبه بمشيئاته فيه، وسمى فؤاداً لأنه غشاء لتلك البضعة الباطنة ، ومنه يقال : هذا خبر فئيد .. وجعل له على هذا الفؤاد عينين وأذنين، وباباً فى الصدر .. وجعل إلى جانبه بضعة أخرى سماها كبداً، وجعلها مجمع عروق هذا الجسد كله، ومنه ينقسم ما يخرج من المعدة من قوة الطعام الذى طحنته المعدة .. حتى صار دماً طريا، فجرى فى جميع العروق، وألصق بأسفله بضعة أخرى، فسماها طحالا، وإلى جانب الأخرى سماها رئة.. ومسكن النفس فيها، ومنها تتنفس النفس لحياتها التى فيها، فتخرج الأنفاس إلى الفم والمنخرين، ثم وضع بين القلب والرئة وعاء رقيقا، فيه ريح هفافة تجرى فى العروق مجرى الدم ، وأصل تلك الريح من باب النار، مخلوقة من نار جهنم، فتسود كما أسودت جهنم، بل هى نار مضيئة حفت النار بها، موضوع فى هذه النار الفرح والزينة، وسماها شهوة.

ويتكلم الحكيم الترمذى عن أصل الشهوة ومبعثها فيقول فى [أسرار مجاهدة النفس] : وأنما سميت شهوة لاهتشاش النفس إليها يقال : اهتشت

واشتهت، الاهتشاش فى الظهر، والاشتهاء فى الباطن، وكلهما فى الحروف عددهما سواء، إلا أنه قدم الهاء هاهنا وأخر هناك ليكون فرقا بين النوعين.

فالنفس إذا هبت تلك الريح من ذلك الوعاء لعارض ذكر شيء أحست النفس بذلك، فالتهبت بذلك، فالتهبت نار الحرارة بتلك الريح، والنفس مسكنها فى الرئة، ثم هى متفشية فى جميع الجسد، والروح مسكنه فى الرأس إلى أصل الأذنين، ومعقلها فى الوتين، وهى متفشية فى جميع الجسد، والروح فيه حياة، والنفس فيها حياة، فهما يعملان فى جميع الجسد لحياتيهما، حتى تتحرك الجوارح فى جميع الجسد فى الظاهر والباطن بالحياتين اللتين وضعتا فيهما، والروح نور فيه روح الحياة، والنفس ريح كدرة جنسها أرضية، وفيها روح الحياة.

ووضع الرحمة فى الكبد، والرأفة فى الطحال، والمكر فى الكليتين، وعلم الأشياء فى الصدر، وجعل مستقر الذهن فى الصدر، ثم هو متفش فى البدن كله، والذهن يقبل العلم جملة، وقرينه الحفظ، وجعل فى ناصيته الفهم، وجعل له طريقا إلى عين الفؤاد ، فالحفظ مستودع العلم، فإذا احتاج الفؤاد إلى شيء ولحظ إلى الحفظ، فأبرز الحفظ له علم ذلك الشيء المستودع الذى قد تعلمه.

وجعل ماء الذرية فى صلبه، فمنه ماء أخذ عليه الميثاق يوم أخرجهم من الظهور، فعرضهم على آدم عليه السلام، ومنه ما لم يؤخذ عليه الميثاق، وجعل مجراه من صلبه إلى نفسه.

ووضع الفرح فى قلبه، وجعل مجراه إلى صلبه، لتتأذى حرارة ذلك الفرح إلى الصلب، فتذيب ماء الصلب، فبقوة هذا الفرح يخرج ذلك الماء، يتدفق به، وإنما صار دفقا لقوة الفرح به، وهبوب رياحها، وضيق المخرج.. فإذا افتقر الإنسان الفرح عجز عن الدفق. فهذا لعامة الآدميين.

ثم خص المؤمنين بنور العقل مسكنه فى الدماغ، وجعل له بابا من دماغه إلى صدره، ليشرق شعاعه بين عينى الفؤاد، ليدبر الفؤاد بذلك النور الأمور، فيميز بين الأمور ما حسن منها وما قبح، ووضع نور التوحيد فى باطن هذه البضعة، وهى القلب، وفيه نور الحياة فحيى القلب بالله تبارك وتعالى، وفتح عينى الفؤاد، فأشرق نور التوحيد إلى الصدر من باب القلب، فأبصر عينا الفؤاد بنور الحياة التى فيها نور التوحيد، فوحد الله عز وجل «فيصيرها شعباً شعباً، فصارت معرفة حين انشعبت، فهذا عمل العقل فى الصدر».

الفرق بين الشهوة والهوى :

الهوى : تعلق النفوس بالشهوات .. وميلها إلى الراحات .. فعلى قدر الشهوات يتمكن منها الضعف، فيستولى عليها الهوى.

فيمكننا أن نقول إذن : أن الشهوة حال من أحوال النفس .. والهوى مقام من مقاماتها المرذولة، فالشهوة عارضة، فإذا استمكن صارت هوى، والهوى ملكة ثابتة، وسلوك راسخ يجمع شهوة أو شهوات كثيرة يصعب الإقلاع عنها، بعكس الشهوة العارضة.

أصل الهوى :

يتحدث الترمذى الحكيم عن أصل الهوى فيقول : «الهوى أصله من نفس النار، فإذا خرج ذلك النفس من النار، احتمل من ذلك المحفوف من الشهوات بباب النار فيها الزينة والأفراح، فأورد على النفس.

فإذا نالت النفس ذلك الفرح والزينة هاجت بما فيها من الفرح والزينة الموضوعة إلى جانبها فى ذلك الوعاء، وهى ريح حارة، قد بث فى العروق، فامتلأت العروق منها فى أسرع من الطرفة، والعروق مشتملة على جميع

الجسد، من القرن إلى القدم. فإذا دبت فى العروق، ولذت النفس دبيبها وانفشاشها فى الجسد .. وامتلأت النفس لذة، وهشت إلى ذلك الشىء، فتلك شهوتها ولذتها، فإذا تمكنت النفس بتلك الشهوة واللذة من جميع الجسد فصارت تلك الشهوة نهمة على القلب، والنهمة غلبة الشهوة وغليانها، فإذا أغلت الشهوة غلبت على القلب، فيصير القلب منهوماً، وهو أن تقهر القلب حتى تمتهنه، فتستعمله بذلك. فيصير سلطان الهوى والشهوة مع النفس ومسكنها فى البطن».

والمؤمن إذا أذنب فإنما يعصى بالشهوة والنهمة، وهو كاره للفسوق والعصيان، ومع الكراهية يفسق ويعصى بغفلة، ولا يقصد الفسق والعصيان كما قصد ابليس، فتلك الكراهية موجودة فيه، والشهوة غالبة عليه، والكراهية من أجل التوحيد الذى فيه، إلا أن القلب مقهور بما فيه ، والعقل منكمن، والصدر ممتلىء من دخان تلك الشهوة،

والنفس بما أوردت قاهرة للقلب، لأن العقل قد غاب، والمعرفة قد انفردت، والذهن قد تبدد، والحفظ مع العقل منكمن فى الدماغ، والنفس قد قامت على ذنبها. بما وجدت من القوة فى تلك الشهوة، والعدو يزين ويرجى ويمنى المغفرة، ويدل على التوبة، حتى يجرئه قلبا ويشجعه

ولذا أمر العبد بالمجاهدة .. والنظر إلى حال نفسه .. والبحث عن عيوبه.. ومحاولة التخلص منها .. وكبح هوى النفس.

آفات الشبع :

- قال ﷺ: «المؤمن يأكل فى معى واحد، والمنافق يأكل فى سبعة أمعاء».

أى يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته، وذكر المعى كناية عن الشهوة، لأن الشهوة هى التى تقبل الطعام وتأخذه كما يأخذ المعى، وليس المعنى زيادة عدد معى المنافق على معى المؤمن.

– وعن ابن عمر قال : تجشأ رجل فى مجلس رسول الله ﷺ ، فقال له : «اقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً فى الدنيا».

– وقال عمر –رضى الله عنه– : اياكم والبطنة فإنها ثقل فى الحياة فتن فى الممات.

وقال لقمان لابنه : «يا بنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة».

– وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه «أى شىء تخافين أن تجوعى لا تخافى ذلك أنت أهون على الله من ذلك إنما يجوع محمد ﷺ وأصحابه وكان كهمس يقول : الهى اجعتنى وأعريتنى وفى ظلم الليالى بل مصباح أجلستنى فبأى وسيلة بلغتنى ما بلغتنى؟

– وكان عبد الله القشيرى يطوى نيفاً وعشرين يوما لا ياكل، وكان يكفيه لطعامه فى السنة درهم، وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه حتى قال : لا يوافى القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام اقتداء بالنبى ﷺ فى أكله.. وقال: «لم ير الأكياس شيئا أنفع من الجوع للدين والدنيا» وقال «لا أعلم شيئاً أضر على طلاب الآخرة من الأكل، وقال : «وضعت الحكمة والعلم فى الجوع .. ووضعت المعصية والجهل فى الشبع .. وقال : ما عبد الله بشىء أفضل من مخالفة الهوى فى ترك الحلال.

وقد جاء فى الحديث «ثلث للطعام فمن زاد عليه فإنما ياكل من حسناته» وسئل عن الزيادة فقال : « لا يجد الزيادة حتى يكون الترك أحب إليه من الاكل ويكون إذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلهما ليلتين فإذا كان ذلك وجد الزيادة.

وسئل حكيم : بأى شىء أقيد نفسى قال : قيدها بالجوع والعطش وذللها

باخمال الذكر، وترك العزة وصغرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة واكرها بترك زى القراء عن ظاهرها وانج من آفاتها بدوان سوء الظن بها وأصحبها بخلاف هواها.

وفى الأثر «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر فى ذلك».

وقد عد العلماء عشر فوائد للجوع :

الفائدة الأولى :

صفاء القلب وايقاد القريحة، وانفاذ البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة ويعمى القلب ويكثر البخار فى الدماغ شبه السكر حتى يحتوى على معادن الفكر فيثقل القلب بسببه عن الجريان فى الأفكار وعن سرعة الإدراك بل الصبى إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطىء الفهم والإدراك.

وقال الشبلى : ما جعت يوما إلا رأيت فى قلبى باباً مفتوحاً من الحكمة والعبرة ما رأيته قط وليس يخفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق والشبع يمنع منه والجوع يفتح بابه والمعرفة باب من أبواب الجنة فبأحرى أن تكون ملازمة الجوع، قرعاً لباب الجنة.. ولهذا قال لقمان لابنه : يا بنى إذا متلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة .. وقال أبو يزيد البسطامى «الجوع سحاب فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة».

الفائدة الثانية :

رقة القلب وصفاؤه الذى به يتهيأت لإدراك لذة المثابرة والتأثر بالذكر فكم من ذكر يجرى على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كان بينه وبينه حجاب من قسوة القلب وقد يرق فى بعض الأحوال فيعظم

تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة حتى كان بينه وبينه حجابا من قسوة القلب ، وقد يرق فى بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه.

الفائدة الثالثة :

الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر الذى هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى فلا تنكسر النفس ولا تذل بشىء كما تذل بالجوع فعنده تسكن لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذلها إذا ضعفت منها وضاقت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء فى أن يكون دائما مشاهداً نفسه بعين الذل والعجز وموالاة العز والقدرة والقهر فليكن دائما جائعا مضطرا إلى مولاه مشاهدا للإضطرار بالذوق ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبى ﷺ قال : «لا بل أجوع يوما وأشبع يوماً فإذا جعت صبرت وتضرعت وإذا شبعت شكرت».

والبطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع، والذل والإنسكار باب من أبواب الجنة وأصله الجوع.. ومن أغلق باباً من أبواب النار .. فقد فتح باباً من أبواب الجنة بالضرورة لأنهما متقابلان كالمشرق والمغرب .. فالقرب من أحدهما بعد عن الآخر.

الفائدة الرابعة :

أن لا ينسى بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل البلاء، فإن الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع.. والعبد الفطن لا يشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة فيذكر من عطشه عطش الخلق فى عرصات القيامة ومن جوعه جوع أهل النار حتى أنهم ليجوعون فيطعمون الضريع والزقوم ويسقون الغساق والمهل فلا ينبغى أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها فإنه هو الذى يهيج الخوف

فمن لم يكن فى ذلة ولا علة ولا قلة ولا بلاء نسى عذاب الآخرة ولم يتمثل فى نفسه ولم يغلب على قلبه فينبغى أن يكون العبد فى مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء وأولى ما يقاسيه من البلاء الجوع فإن فيه فوائد جمة سوى تذكر عذاب الآخرة.. وهذا أحد الأسباب الذى اقتضى اختصاص البلاء بالأنبياء والأولياء والأمثل فالأمثل، ولذلك قيل ليوسف عليه السلام لم تجوع وفى يدك خزائن الأرض فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والإطعام والشفقة على خلق الله عز وجل والشبعان فى غفلة عن ألم الجائع.

الفائدة الخامسة :

وهى من أكبر الفوائد: كسر شهوات المعاصى كلها والإستيلاء على النفس الأمارة بالسوء فإن منشأ المعاصى كلها بالشهوات والقوى ومادة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة فتقبلها بضعف كل شهوة وقوة وإنما السعادة كلها فى أن يملك الرجل نفسه والشقاوة فى أن تملكه نفسه وكما أنك لا تملك الدابة الجموح إلا بضعف الجوع فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت .. فكذلك النفس كما قيل لبعض ما بالك مع كبرك لا تتعهد بدنك وقد انهمد فقال لأنه سريع المرح فاحش الأشر، فأخاف أن يجمح بى فيورطنى فلان أحمله علي الشدائد أحب إلى من أن يحملنى على الفواحش.

قال ذو النون : « ما شبعت قط إلا عصيت أو هممت بمعصية ».

وقالت عائشة رضى الله عنها : «أول بدعة حدثت بعد رسول الله ﷺ الشبع». أن القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا وهذه ليسة فائدة واحدة بل هى خزائن الفوائد ولذلك قيل « الجوع خزائن من خزائن الله تعالى » وأقل ما يندفع بالجوع شهوة الفرج وشهوة الكلام. فإن الجائع لا

يتحرك عليه شهوة فضول الكلام فيتخلص به من آفات اللسان كالغيبة والفحش والكذب والنميمة وغيرها فيمنعه الجوع من كل ذلك وإذا شبع افتقر إلى فاكهة فتتفكه لا محالة بأعراض الناس ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائدألسنتهم.

وأما شهوة الفرج :

فلا تخفى غائلتها والجوع يكفى شرها؟ وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه، وإن منعته التقوى فلا يملك عينه .. فالعين تزنى كما أن الفرج يزنى .. فإن ملك عينه بغض الطرف فلا يملك فكره فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة وما يتشوش به مناجاته وربما عرض له ذلك فى أثناء الصلاة وأنما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثالا .. وإلا فجميع معاصى الأعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع.

قال حكيم : «كل مريد صبر على السياسة فيصبر على الخبز البحت سنة لا يخلط شيئا من الشهوات ويأكل فى نصف بطنه رفع الله عنه مؤنة النساء».

الفائدة السادسة :

دفع النوم ودوام السهر، فإن من شبع شرب شربا كثيراً، ومن كثر شربه كثر نومه ولأجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام : معاشر المريدين : لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتخسروا كثيراً وأجمع رأى سبعين صديقا على أن كثرة النوم من كثرة الشرب وفى كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد، وبلادة الطبع، وقساوة القلب والعمر أنفس الجواهر، وهو رأس مال العبد فيه يتجر والنوم موت فتكثيره ينقص العمر ثم فضيلة التهجد لا تخفى وفى النوم فواتها ومهما غلب النوم فإن تهجد لم يجد حلاوة العبادة، ثم المتغرب إذا نام على الشبع احتلم ويمنعه ذلك أيضا من التهجد ويحوجه إلى الغسل.

الفائدة السابعة :

تيسير المواظبة على العبادة فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل وربما يحتاج إلى زمان فى شراء الطعام وطبخه ثم يحتاج إلى غسل اليد.. ثم يكثر تردداه إلى بيت الماء لكثرة شربه، والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى المناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه.

الفائدة الثامنة :

يستفيد من قلة الأكل صحة البدن، ودفع الأمراض فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الأخلاط فى المعدة والعروق ثم المرض يمنع من العبادات ويؤمن القلب ويمنع من الذكر والفكر وينغص العيش ويحوج إلى الدواء والطبيب وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يخلو الإنسان منها بعد التعب عن أنواع من المعاصى واقتحام الشهوات وفى الجوع ما يمنع ذلك كله.

حكى أن الرشيد جمع أربعة أطباء : هندى ورومى وعراقى وسوادى وقال ليصف كل واحد منكم الدواء الذى لا داء فيه .. فقال الهندى : الدواء الذى لا داء فيه عندى هو الأهليج الأسود، وقال العراقى هو حب الرشاد الأبيض ، وقال الرومى هو عندى الماء الحار، وقال السوادى وكان أعلمهم : الأهليج يعفص المعدة وهذا داء، وحب الرشاد يزلق المعدة وهذا داء والماء الحار يرخى المعدة وهذا داء قالوا فما عندك ، فقال الدواء الذى لا داء معه عندى أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه ، وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه فقالوا : صدقت.

وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبى ﷺ : «ثلث للشراب وثلث للنفس» فتعجب منه وقال ما سمعت كلاما فى قلة الطعام أحكم من هذا وأنه لكلام حكيم.

الفائدة التاسعة :

خفة المؤنة فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير والذى تعود الشبع صار بطنه غريما ملازما له آخذاً بمخنقه فى كل يوم فيقول ماذا ناكل اليوم فيحتاج إلى أن يدخل المداخل فيكتسب من الحرام فيعصى أو من الحلال فيذل وربما يحتاج إلى أن يمد أعين الطمع إلى الناس وهو غاية الذل .. والمؤمن خفيف المؤنة.

قال بعض الحكماء : أنى لأخفى عامة حوائجى بالترك فيكون ذلك أروح لقلبى.

وقال آخر : إذا أردت أن استقرض من غيرى لشهوة أو زيادة استقرضت من نفسى فتركت الشهوة فهى خير غريم لى .

وبالجملة : سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا، وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج وسبب شهوة الفرج شهوة البطن، ومن تقليل الأكل ما يحسم هذه الأحوال كلها وهى أبواب النار، وفى حسمها فتح أبواب الجنة.

فمن قنع برغيف فى كل يوم قنع فى سائر الشهوات أيضا وصار حراً، واستغنى عن الناس واستراح من التعب وتخلى لعبادة الله عز وجل وتجار الآخرة فيكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإنما تلهيهم لاشتغالهم عنها بالقيامة وأما المحتاج فتلهيه لا محالة.

الفائدة العاشرة :

أن يتمكن من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين فيكون يوم القيامة فى ظل صدقته .. كما ورد فى الخبر فما يأكله كان خزائنه الكنيف وما يتصدق به كان خزائنه فضل الله تعالى فليس للعبد من

ماله إلا ما تصدق فأبقى أو أكل فأفنى أو لبس فأبلى فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع.

وكان الحسن رحمه الله إذا تلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب].

قال عرضها على السموات السبع الطباق، والطرائق التى زينها بالنجوم وحملة العرش العظيم فقال لها سبحانه وتعالى : هل تحملين الأمانة بما فيها قالت وما فيها ؟ قال : ان أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت فقالت لا، ثم عرضها كذلك على الأرض فأبت ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصلاب الصعاب فقال لها هل تحملين الأمانة بما فيها قالت وما فيها ؟ فذكر الجزاء والعقوبة، فقالت لا، ثم عرضها على الإنسان فحملها أنه كان ظلوماً لنفسه جهولا بأمر ربه فقد رأيناهم والله اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلاما فماذا صنعوا فيها وسعوا بها دورهم وضيقوا بها قبورهم وأهزلوا دينهم وأتعبوا أنفسهم بالغدو والرواح إلى باب السلطان يتعرضون للبلاء من الله عافية.

يقول أحدهم : تبيعنى أرض كذا وكذا وأزيدك كذا يتكىء على شماله ويأكل من غير ماله حديثه سخرة وماله حرام حتى إذا أخذته الكظة ونزلت به البطنة قال : يا غلام ائتنى بشىء أهضم به طعامى يالكع اطعامك تهضم وإنما دينك تهضم .. أين الفقراء .. أين الأرملة.. أين المسكين أين اليتيم الذين أمرك الله تعالى بهم.

فهذه إشارة إلى هذه الفائدة وهو صرف فاضل الطعام إلى الفقير ليدخر به الأجر فذلك خير له من أن يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه.

ونظر رسول الله ﷺ إلى رجل سمين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه

وقال: «لو كان هذا فى غير هذا لكان خيراً لك». لو قدمته لآخرتك وآثرت به غيرك.

فهذه عشر فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تتناهى فوائدها .. فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة .. ولأجل هذا قال بعض السلف :

«الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد والشبع مفتاح الدنيا؟ وباب الرغبة ».

والعجيب : أن العلم الحديث أثبت خطر كثرة الطعام على بدن الإنسان بغض النظر عن تأثيره البالغ على أخلاقياته والتزامه العام.

وأكثر الأكولين .. متخلفى العقل .. ناقصى المنطق .. بلهاء الطبع .. لا يعبأون بالصحيح مع علمهم بمكانته.

ومكانة الإنسان .. وعلو قدره .. تقضى أن يترفع عما يضر بصحته.. لا يؤثر على سلوكه .. فالنهم والشبع من شيم الحيوان .. وفى تقليل الطعام صفاء للنفس.. وارتياح للروح .. لذا فإنه عندما تملىء المعدة تنام الفكرة وتخرس الحكمة .. وتعقد الأعضاء عن العبادة.

مسألة :

تقليل الطعام له آفات جانبية تفوق أحيانا آفة كثرة الطعام .. فلماذا أمر المسلمون بها ..؟

الإجابة : تتخلص فى أن المؤمن الصادق .. ينظر إلى نفسه من حين لآخر .. يبحث عن آفاته وآلامه.. فإذا وجد هذه الآفة وضعها نصب عينه ولم يتركها هكذا.. وقد قال العلماء كثيراً فى هذه المسألة وبينوا الآفات الناتجة عن تقليل الطعام وهما أعظم من أكل الشهوات.

إحداهما :

أن لا تقدر النفس على ترك بعض الشهوات فتشتهيها ولكن لا يريد أن يعرف بأنه يشتهيها فيخفى الشهوة ويأكل فى الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة وهذا هو الشرك الخفى بل حق العبد إذا ابتلى بالشهوات وحبها أن يظهرها فإن هذا صدق الحال .. وهو يدل عن فوات المجاهدات بالأعمال فإن إخفاء النقص وإظهار ضده من الكمال هو نقصانان متضاعفان، والكذب مع الإخفاء كذبان فيكون مستحقا لمقتين ولا يرضى منه إلا بتوبتين صادقتين ولذلك شدد أمر المنافقين.

فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (١٤٥) ﴾ [النساء].

لأن الكافر كفر وأظهر وهذا كفر وستر فكان ستره لكفره آخر لأنه استخف بنظر الله سبحانه وتعالى إلى قلبه وعظم نظر المخلوقين فمحا الكفر عن ظاهره والعارفون يدخلون بالشهوات بل بالمعاصى ولا يبتلون بالرياء والغش والإخفاء بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله تعالى ويظهر من نفسه الشهوة اسقاطا لمنزلته من قلوب الخلق.

فنهاية الزهد «الزهد فى الزهد باظهار ضده .. وهذا عمل الصديقين فإنه جمع بين صدقين كما أن الأول جمع بين كذبين وهذا قد حمل على النفسين ثقلين وجرعها كأس الصبر مرتين، مرة بشربه ومرة برميه فلا جرم أولئك يوفون أجرهم مرتين بما صبروا وهذا يضاهى طريقة من يعطى جهرا فيأخذ ويرد سراً ليكسر نفسه بالذب جهراً وبالفقر سراً فمن فاته هذا فلا ينبغى أن يفوته إظهار شهوته ونقصانه والصدق فيه.. ولا ينبغى أن يضره قول الشيطان أنك إذا أظهرت اقتدى بك غيرك فاستره إصلاحا لغيرك فإنه لو قصد إصلاح غيره لكان اصلاح نفسه أهم عليه من غيره فهذا إنما يقصد الرياء المجرد ويروجه

الشيطان عليه فى معرض اصلاح غيره فلذلك ثقل عليه ظهور ذلك منه وإن علم أن من اطلع عليه ليس يقتدى به فى الفعل أو لا ينزجر باعتقاده أنه تارك الشهوات.

الآفـة الثانية :

أن لا يقدر على ترك الشهوات لكنه يفرح أن يعرف به فيشتهر بالتعفف عن الشهوات فقد خالف شهوة ضعيفة وهى شهوة الأكل وأضاع شهوة وهى شر منها وهى شهوة الجاه وتلك هى الشهوة الخفية .. فمهما أحس بذلك من نفسه فكسر هذه الشهوة آكد من كسر شهوة الطعام فلياكل فهو أولى به.

قال أبو جعفر الصادق : «إذا قدمت إلى شهوة نظرت إلى نفسى فإن هى أظهرت شهوتها أضعتها منها، وكان ذلك أفضل من منعها وأن أخفت شهوتها وأظهرت العزوف عنها عاقبتها بالترك ولم أنلها منها شيئا. وهذا طريق فى عقوبة النفس على هذه الشهوة الخفية.

وبالجملة من ترك شهوة الطعام .. ووقع فى شهوة الرياء كان كمن هرب من عقرب وفزع إلى حية لأن شهوة الرياء أضر كثيرا من شهوة الطعام».

شهوة الفرج

شهوة الفرج :

جعل الله هذه الشهوة للإنسان لحفظ النوع البشرى .. ولإعطائه متعة ككثير من اللذات التى أعطاها إياه.

ولكن يطمع الإنسان فى المزيد .. أحيانا .. أو لا يستطيع الزواج .. فيطلق عنان شهوته فتضيع فيما حرمه الله.

إلا أن الدافع الحقيقى – فى رأى – نزعته الشريرة .. فإن نفسه بذاتها بدون هذه النزعة تميل إلى الشهوة الحلال .. وتبغض الحرام .. ولكن هذه النزعة.. تتطلع إلى الحرام .. حتى ولو كان متزوجا.

ووجود الشر عند الإنسان طبيعة من طبيعته .. وسمة من صفاته لأنه مخلوق لا يخلو من النقص الذى تنزه عند الخالق جل شأنه.

فوجود الشر فى العالم عامة لا يناقض صفة الكمال الإلهى، ولا صفة القدرة الإلهية، بل هو ولا ريب أقرب إلى التصور من تلك الفروض التى يتخيلها المنكرون والمرددون ولا يذهبون معها خطوة فى طريق الفهم وراء الخيال العقيم.

وقد يختلف مدلول القدرة الإلهية ومدلول النعمة الإلهية بعض الاختلاف فى هذا الاعتبار، فمدلول القدرة الإلهية يستلزم خلق هذا العالم الموجود، ولكن مدلول النعمة الإلهية يسمح لبعض المتشائمين أن يحسبوا أن ترك المخلوقات فى ساحة العدم أرحم بها من إخراجها إلى ساحة الوجود.

وليس الشر إذن مشكلة كونية ومشكلة عقلية إذا أردنا بالمشكلة أنها شىء متناقض محض على الفهم والإدراك، ولكنه فى حقيقته مشكلة الهوى الإنسانى الذى يرفض الألم ويتمنى أن يكون شعوره غالبٌ على طبائع الأمور.

وإذا كانت فى هذا الوجود حكمته التى تطابق معه كل حالة من حالاته فلابد من حكمة فيه تطابق طبيعة ذلك الشعور، ولا نعلم من حكمة تطابق طبيعة ذلك الشعور غير الدين.

ولذا فإن على العاقل .. أن يضع نصب عينيه طلبات هواه ونفسه .. وتطلعات شهوته ورغبته .. وأن يضع المنهج – منهج الدين – أمامه.. فلا يحيد عليه.. وبهذا ينجو من غضب الله.

وقد سلطت هذه الشهوة على الإنسان لفائدتين :

إحداها :

أن يدرك لذته فيقيس به لذات الآخرة، فإن هذه اللذة لو دامت لكانت أقوى لذات الأجساد كما أن النار وآلامها أعظم آلام الجسد والترغيب والترهيب يسوق الناس إلى سعادتهم وليس ذلك إلا بألم محسوس ولذة محسوسة مدركة، فإن مالا يدرك بالذوق لا يعظم إليه الشوق.

الفائدة الثانية :

بقاء النسل ودوام الوجود .. فهذه فائدتها ولكن فيها من الآفات ما يهلك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم تقهر ولم ترد إلى حد الاعتدال .. وقد تميل فى تأويل قوله تعالى :

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) ﴾ [البقرة] معناه شدة الظلمة.

وعن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ قال هو قيام الذكر.

– روى أن موسى عليه السلام كان جالسا فى بعض مجالسه إذ أقبل إليه إبليس وعليه برنس فيه ألوان فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ثم أتاه فقال السلام عليك يا موسى فقال له موسى : من أنت فقال : أنا إبليس فقال لا حياك

الله ماجاء بك قال جئت لأسلم عليك لمنزلتك من الله ومكانتك منه قال فما الذى رأيت عليك قال : برنس اختطف به قلوب بنى آدم قال فما الذى إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه قال : إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه، وأحذرك ثلاثا لا تخل بامرأة لا تحل لك ، فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أفتنه بها وأفتنها به .. ولا تعاهد الله عهداً إلا وفيت به، ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أحول بينه وبين الوفاء بها، ثم ولى وهو يقول : يا ويلتاه علم موسى ما يحذر به بنى آدم» .

وعن سعيد بن المسيب قال : ما بعث الله نبياً فيما خلا إلا لم ييأس أن يهلكه بالنساء ولا شىء أخوف عندى منهن وما بالمدينة بيت أدخله إلا بيتى وبيت ابنتى اغتسل فيه يوم الجمعة ثم أروح .

وقال بعضهم : «أن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندى وأنت سهمى الذى أرمى به فلا أخطىء وأنت موضع سرى وأنت رسولى فى حاجتى».

فنصف جنده : الشهوة، ونصف جنده الغضب.

وأعظم الشهوات شهوة النساء : وهذه الشهوة أيضا لها افراط وتفريط واعتدال، فالإفرا ﷺ ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجال إلى الاستمتا ع بالنساء والجوارى فيحرم عن سلوك طريق الآخرة أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش وقد ينتهى إفراطها بصانعه إلى أمرين شنيعين :

أحدهما :

أن يتناولوا ما يقوى شهواتهم على الاستكثار من الواقع كما قد يتناول بعض الناس أدوية تقوى المعدة لتعظم شهوة الطعام .. وما مثال ذلك إلا كمن ابتلى بسباع ضارية وحيات عادية فتنام عنه فى بعض الأوقات فيحتال لاثارتها

وتهيجها ثم يشتغل باصلاحها وعلاجها، فإن شهوة الطعام والوقاع على التحقيق آلام يريد الإنسان الخلاص منها فيدرك لذة بسبب الخلاص.

الأمر الثانى:

أن تنتهى هذه الشهوة ببعض الضلال إلى العشق وهو غاية الجهل بما وضع له من الجماع وهو مجاورة فى البهيمية لحد البهائم لأن المتعشق ليس يقنع باراقة شهوة الجماع هى أقبح الشهوات وأجدرها أن يستحيا منه حتى أعتقد أن الشهوة لا تنقضى الا من محل واحد والبهيمية تقضى الشهوة كيفما اتفق متكفى به وهذا لا يكتفى الا بشخص واحد معين حتى يزداد به ذلا إلى ذل وعبودية إلى عبودية وحتى يسخر العقل لخدمة الشهوة.

وقد خلق ليكون مطاعا لا ليكون خادما للشهوة ومحتالا لأجلها وما العشق الا سعة افراط الشهوة وهو مرض فارغ لا هم له وإنما يجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة النظر والفكر وإلا فإذا استحكم عسر دفعه فكذلك تشق المال والجاه والعقار والأولاد حتى اللعب بالطيور والنرد والشطرنج فإن هذه الأمور قد تستولى على طائفة بحيث تنقص عليهم الدين والدنيا ولا يصبرون عنها البتة.

ومثال من يكثر سورة العشق فى أول انبعاثه مثال من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب لتدخله وما أهون منها يصرف عنها، ومثال من يعالجها بعد استحقاقها مثال عند توجهها إلى باب لتدخله، وما أهون منعها بصرف عنانها ومثال من يعالجها بعد استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ثم يأخذ بذنبها ويجرها إلى ورائها وما أعظم التفاوت بين الأمرين فى اليسر والعسر فليكن الاحتياط فى بدايات الأمور.. فأما فى أواخرها فلا تقبل العلاج إلا بجهد جهيد يكاد يؤدى إلى نزع الروح.

افراط الشهوة :

فإذن افراط الشهوة أن يغلب العقل إلى هذا الحد وهو مذموم جدا وتفريطها بالعنة أو بالضعف عن امتناع المنكوحة وهو أيضا مذموم، وإنما المحمود أن تكون معتدلة ومضيعة للعقل والشرع فى انقباضها وانبساطها ومهما أفرطت فكسرها بالجوع والنكاح.

قال ﷺ : «معاشر الشباب عليك بالباءة .. فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» .

سمة مميزة :

لهذه الشهوة دون غيرها من الشهوات سمة مميزة .. ذلك أنها إن دامت تحول صاحبها إلى الإدمان .. والرغبة المستمرة الدائمة إلى الجماع دون أن يحسن بلذة الجماع. كذلك كثرة التفكر فيها وطول النظر .. وكذلك كثرة النظر إلى النساء .. كل هذا ينتج عن عواقب وخيمة فى إمكان الإنسان أن يتفاداها لو أنه حكم عقله وتحكم فى نفسه .. لذا دعا الإسلام إلى الوسط فى كل شىء.. ونهى العلماء عن مداومة الجماع حتى لا يقسو القلب.

ولقد عد عالم جليل مما يقسى القلب ويميته فقال :

يميت الفؤاد الحى دائم خلطه لأنثى

وعصيان وحمقى ومترف

فذكر مخالفة الأنثى فى البداية.

ولذا .. فإن هناك إنحرافات جنسية قد تحدث للإنسان.

حالات من الإنحرافات الجنسية

الحب الشاذ للنفس وأهم أشكاله :

لو نظرنا إلى هذا الشذوذ فى حب النفس من وجهة نظر النمو نجد أنه يعتبر تمسكا بمرحلة الطفولة الأولى لأن صاحب الحالة لم يستطع بعد أن يتخلص من إشباع ملذاته الشخصية.

وأهم أشكاله :

أولا : الإنغماس فى الإشباع العضوى للفرد :

يرجع لحساسية فى المنطقة العمية وفى هذه الحالة تكون استثارة هذه المنطقة مصدر لذة رئيسية للفرد.

ويأخذ هذا اللون من الشذوذ الجنسى أشكالا مختلفة منها :

مص الإبهام ، قضم الأظافر، مضغ اللبان أو الدخان، شرب السجائر، مصمصة الشفاة بشكل ملحوظ.

هذا فيما إذا حددت منطقة معينة للذة.

أما إذا لم تحدد فإن هؤلاء المرضى بهذا الإنحراف يهتمون بنوع من الراحة الجسمية فيه يخلو المريض لينغمس فى ملذاته الحسية فيطيل مثلا وقت الاستحمام ويستلذ بالنوم طويلا .. الخ.

ثانيا : التلذذ الذاتى :

ويظهر عندما يأخذ انغماس الفرد فى مشاعره الفردية شكلا جنسيا أكثر وضوحا منه فى المظهر السابق، وهو دور يؤدى غالباً إلى العادة السرية التى يلجأ إليها بعض الأفراد فى فترة من حياتهم.

التمسك بمظاهر حب الطفولة :

الطفل يحب أول ما يحب أفراداً من أسرته، واستمرار هذه الصلة أمر طبيعى إذا اتسعت هذه العلاقة لأن يضيف إليها أنواعا أخرى من الحب فيما بعد.

لذا لا يصح الاتصال الشاذ بين الطفل وأمه أو ما يعرف باسم عقدة (أوديب) أمراً خطيراً إلا إذا كان من القوة بحيث يقف حائلا دون تكوين عواطف حب أخرى.

وقد حاول بعض الكتاب إرجاع تكون هذه العقدة لنفس الأطفال ولكن الغالب أن الخطأ يوجد عند الأب أو الأم لزيادتهما هذه الصلة وتشجيعها وتقويتها.

ولعل الحب المتبادل بين الآباء وأبناء حينما يأخذ مظاهر معينة يكون هو السر فى خلق مشكلة الحموات وفى هذا المجال مرت على كاتب الحالة الآتية :

حالة : سيدة حضرت للعيادة النفسية تطلب أى إجراء تقوم به لتحظى بحب ابنها لها. وعرضت المشكلة على بساط البحث فظهر أن تلك السيدة لم تسعد فى حياتها الزوجية أكثر من أنها ركزت سعادتها حول الثروة الوحيدة لزواجها وهى ابنها.. ولشعورها بالخوف من أن يقاسمها تلك السعادة إنسان آخر كانت تسعى فى منعه من الزواج ولكنه استطاع أن ينفصل عنها لدرجة أنه تزوج.

وفى أيام الخطوبة حاولت جاهدة فسخها، وقد علمت العروس بذلك فبدأت بذور الكراهية تنمو لديها لأم زوجها. وفي أول الأمر كان الزوج يميل لمناصرة أمه. ولكنه استوضح الموقف على حقيقته وأراد أن ينفصل بزوجته عن أمه وينفرد بالسكن وحده فثارت ثائرتها، وبذلك أصبح الابن الضحية البريئة لسلوك الأم التى كانت تغذى وتقوى وبذلك وتقوى هذه العلاقة بينهما.

العكس الجنسى :

العكس الجنسى أو القلب الجنسى هو حالات يأخذ الفرد فيها بمميزات الجنس الآخر ففى بعض الأحيان قد يكون عند الشخص بعض المميزات العضوية الجسمانية المعروفة عند الجنس الآخر وهذه حالة تعرف باسم «الحنونة» ويترتب عليها متاعب وصعوبات عقلية ونفسية.

فقد يكون الرجل مثلا ناعم البشرة شديد بياض الجسم كبير الردفين، حلو التقاطيع، صغير اليدين، ضيق الكتفين، ناعم الصوت ، فينتشر الشعر على جسمه بخفة وعظامه صغير رفيعة.

وقد تبدو الأنثى فى شكل مذكر مفتولة العضلات، خشنة الصوت، كثيرة شعر الوجه، وقد لا تكون مظاهر العكس الجنسى واضحة بهذا الشكل ولكنها على العموم ترجع لعدم انتظام الأجهزة الفردية وتكون ذات مغزى من الناحية النفسية لما تسببه من متاعب عقلية.

وقد يوجد عند الفرد تذوق وميل لمظاهر الجنس الآخر، فالولد يحب حياكة الملابس، ويعنى بالمنزل كما يستعمل العطور وأدوات التجميل، والبنت تلبس ملابس الرجال وتشتغل بنشاط مخصص للذكور.

وهذا الميل كثيرا ما يسايره ميل آخر للحصول على الحب من الأفراد من نفس الجنس ومبادلته إياهم.

الجنسية المثلية :

هو حب الاتصال بشخص من نفس الجنس، وقد يكون هذا الحب متبادلا، وقد يمارسه طرف واحد كما يقوم على الإهتمام بشخصية الفرد الآخر أو عمله، وقد يصحب هذا نوع من الغزل الأولى.

وقد تأخذ العلاقة شكل سلوك جنسى مكشوف علنى (أى مباشر وقد تحدث حالات الإعتداء الجنسى المثلى بين المعزولين عزلا تاماً بين الجنسين الآخرين. ومع أن الجنسية المثلية ليست منتشرة بين الرجال بشكل واضح إلا أنها ملحوظة.

والطريقة الوحيدة لمعاونة الصغار على الخروج من هذه الفترة لا تكون إلا بالتوجيه الصحيح نحو الجنس الآخر، والعلاقة الجنسية عامة والتشجيع على الإهتمام والميل نحو أفراد معينين من الجنس الآخر إهتماما وميلا صحيحين.

حب الاستطلاع :

حب الاستطلاع غير المشبع المتعلق بالمسائل، يؤدى إلي نوع من حب الاستطلاع الشاذ، ومنها خلق ما يعرف بالمتجسسين، أو الناظرين من فتحات الأبواب. وإذا لم يكن هذا النوع من الاستطلاع موجها، فإنه يؤدى إلى أنواع مختلفة من المخاطرات الاستطلاعية، ويمكن أن نقول أنه حتى الكبار يكونون فى بعض الأحيان فريسة لهذا النوع من الميل ويتعرضون لطائلة القانون نتيجة لذلك.

والتعبير عن هذا الميل بشكل غير مباشر، وبطريقة تتمشى مع التوافق الاجتماعى يأتى بتوجيه الفرد نحو البحوث العلمية وغيرها من الميادين التى يشبع فيها حبه إلى الاستطلاع بطريقة ملائمة اجتماعية وفيما عدا ذلك يصبح حب الاستطلاع وسيلة منحرفة شاذة للتعبير الجنسى.

الربط الشاذ بين الجنس والألم :

قد تصبح دفعات الحب عند شخص ما مرتبط بالألم بطريقة ليست معروفة من قبل وهذا الربط يأخذ واحداً من الأشكال الآتية :

السادية : Sadism

مظهر من مظاهر الإنحراف لا يستطيع الفرد فيه أن يشبع رغبته الجنسية إلا إذا سبب الألم للآخرين، وقد يكون الألم عضويا وقد يكون نفسياً، أو معنوياً، وربما يصل الأمر به إلى درجة يحرج فيها المريض بالسادية الجنس الآخر، وقد يقتله، وهذا ظاهر فى الحالات البالغة الشديدة.

أما فى الحالات المرضية البسيطة فلا يخرج الأمر عن موقف يتم فيه الإشباع الجنسى بالحاق الجرح المادى أو الشخصى بالفريسة، وكثير من المرضى بهذا النوع من الشذوذ لا يندفعون فى حب الجنس الآخر إلا إذا سببوا له ما يجعله ينفجر بالبكاء.

: Masachism

وهو نوع من الإنحرافية يحقق الفرد إشباعه الجنسى ولكن بالتألم على يد شخص آخر وعكس الحالة فى السادية، والمنحرف من هذا النوع لا يحب إلا إذا قاسى كثيراً.

خلاصـــة :

هذا الملخص من الإنحرافات الجنسية يدل على الخطر المحدق وبأهم أنواع الوجدانيات الإنسانية وهى المحور الذى تدور حوله، جميع مظاهر النشاط البشرى.

ومادام الأمر متعلقا بالحب، وهو من أهم مظاهر الحياة، فلابد للباحثين من الاهتمام بالتوجيه الصحيح للنشىء لتفهم هذه الأمور بدلا من تجاهلها أو كبتها، وبذلك نرتفع بمحور حياتنا البشرية وهو الوجدان.

ولهذا دعا الإسلام إلى الزواج المبكر كما سبق لأنه أحكام النفس.. وكبح للشهوة وتوجيه صحيح لقضائها.

كما دعا إلى التوسط فيها وتنظيمها لكى لا تأخذ أكبر من حجمها فيحجب صاحبها عن الأعمال المفيدة .. وتضر بحياته وحياة من حوله .. وتوقعه فى المهالك.

قبل إبتداء الزواج :

فإذا لم يستطع الشاب الزواج .. ماذا يفعل ؟

يجيبك الغزالى فيقول : «اعلم أن المريد فى ابتداء أمره ينبغى أن لا يشغل نفسه بالتزويج فإن ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ويستجره إلى الأنس بالزوجة ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله ولا يغرنه كثرة نكاح رسول الله ﷺ فإنه كان لا يشغل قلبه جميع ما فى الدنيا عن الله تعالى ، فلا تقاس الملائكة بالحدادين».

ولذلك قال أبو سليمان الدارانى : من تزوج فقد ركن إلى الدنيا .. وقال ما رأيت مريداً تزوج فثبت على حاله الأولى وقيل له مرة ما أحوجك إلى امرأة تأنس بها فقال لا آنسنى الله بها أى أن الأنس بها يمنع الأنس بالله تعالى.

فشرط المريد الغربة فى الابتداء إلى أن يقوى فى المعرفة هذا إذا لم تغلبه الشهوة فإن غلبته الشهوة فليسكنها بالجوع الطويل والصوم الدائم، فإن لم تنقمع الشهوة بذلك.

فكان بحيث لا يقدر على حفظ العين مثلا، وإن قدر على حفظ الفرج.. فالنكاح له أولى لتسكن الشهوة وإلا فمهما لم يحفظ عينه لم يحفظ عليه فكره ويتفرق عليه همه .. وربما وقع فى بلية لا يطيقها.. وزنا العين من كبائر الصغائر وهو يؤدى على القرب إلى الكبيرة الفاحشة .. وهو زنا الفرج .. ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه.

قال عيسى عليه السلام «إياكم والنظرة فإنها تزرع فى القلب شهوة وكفى بها فتنة».

وبالنسبة للمرأة : فقد قالت أم سلمة «استأذن ابن أم كلثوم الأعمى على رسول الله ﷺ وأنا وميمونة جالستان فقال عليه السلام : احتجبا فقلنا أو ليس بأعمى لا يبصرنا فقال : وانتما لا تبصرانه».

وهذا يدل على أنه لا يجوز للنساء مجالسة العميان كما جرت به العادة فى المآتم والولائم فيحرم على الأعمى الخلوة بالنساء، ويحرم على المرأة مجالسة الأعمى .. وتحديق النظر إليه بغير حاجة، وإنما جوزوا للنساء محادثة الرجال والنظر إليهم لأجل عموم الحاجة.. وإن قدر على حفظ عينه عن النساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان .. فالنكاح أولى به.. فإن الشر فى الصبيان أكثر فإنه لو مال قلبه إلى امرأة أمكنه الوصول إلى استباحتها فالنكاح والنظر إلى وجه الصبى بالشهوة حرام بل كل من بتأثر قلبه بجمال صورة الأمرد وبحيث يدرك التفرقة بينه وبين الملتحى لم يحل له النظر إليه.

فإن قلت كل ذى حسن يدرك التفرقة بين الجميل والقبيح لا محالة، ولم تزل وجوه الصبيان مكشوفة.

فالإجابة : أننا لسنا نعنى تفرقة العين فقط.. بل ينبغى أن يكون إدراكه التفرقة كإدراكه التفرقة بين شجرة خضراء وأخرى يابسة، وبين ماء صاف، وماء كدر، وبين شجرة عليها أزهارها وأنوارها وشجرة تساقطت أوراقها فإنه يميل إلى إحداهما بعينه وطبعه ولكن ميلا خاليا من الشهوة ولأجل ذلك لا يشتهى ملامسة الأزهار والأنوار وتقبيلها ولا تقبيل الماء الصافى.

وكذلك الشيبة الحسنة قد تميل العين إليها.. وتدرك التفرقة بينها وبين الوجه القبيح ولكنها تفرقة لا شهوة فيها، ويعرف ذلك بميل النفس إلى القرب والملامسة فمهما وجد ذلك الميل فى قلبه وأدرك تفرقة بين الوجه الجميل، وبين النبات الحسن والأثواب المنقشة والسقوف المذهبة نظر شهوة فهو حرام وهذا مما يتهاون به الناس ويجرهم ذلك إلى المعاطب ولا يشعرون.

الحديث والآثــار

قال ابن أبى حاتم فى تفسيره : عن ابن عباس، -رضى الله عنهما-، فى قوله تعالى:

﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [طه]

قال : هداه لمنكحه، ومطعمه ، ومشربه، ومسكنه.

وقال : عن ابن عباس فى قوله تعالى:

﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [طه] قال : الجماع.

والحديث : له طرق أخرى عن ابن عباس، وغيره.

وقال ابن المنذر فى تفسيره : عن سعيد بن جُبير، فى قوله تعالى :

﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [طه]

قال : كيف يأتى الذكر الأنثى.

وقال ابن أبى حاتم :

عن ابن سابط قال : بهمت عليه البهائم فلم تبهم عن أربع : تعلم أن الله ربها، ويأتى الذكر الأنثى، وتهتدي لمعاشها، وتخاف الموت.

وقال ابن أبى حاتم : عن الحسن فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ ﴾ [الروم] قال : الجماع.

و (ورحمة).

قال الولد . أخرجه ابن المنذر.

وأخرج ابن عساكر فى تاريخه، بسند ضعيف :

عن أنس، مرفوعا: «إن آدم عليه السلام لم يجامع امرأته، حتى أتاه جبريل، فأمره أن يأتى أهله، وعلمه كيف يأتيها، فلما أتاها، جاءه جبريل، فقال : كيف وجدت امرأتك؟ قال صالحة».

وأخرج ابن عدى فى الكامل ، وابن عساكر في تاريخه :

من طريق إبراهيم النخعى قال : لما خلق الله آدم وخلق له زوجه، بعث إليه ملكا، وأمره بالجماع ، ففعل، فلما فرغ، قالت له حواء يا آدم هذا طيب زدنا منه.

قال الغزالى فى الإحياء :

الفقهاء يقولون : من فوائد النكاح كثرة النسل، وحفظ الوجود، والإطلاع على بعض الملذات الأخروية.

قال : ولعمرى إن ما قالوا الصحيح، وإن فى هذه اللذة التى لا توازيها لذة، لو دامت فهى منبهة على اللذات المودعة فى الجنان، إذ الترغيب فى لذة لا تعرف لا ينفع، فلو رغب العنين فى لذة الجماع، أو الصبى فى لذة الملك لم ينفع الترغيب فيه.

فإحدى فوائد هذه اللذة فى الدنيا، الرغبة فى دوامها فى الجنة، ليكون ذلك باعثا على عبادة الله تعالى .

قال : فانظر إلى حكمة الله ثم رحمته، كيف جعلت تحت شهوة واحدة حياتين، حياة ظاهرة ، وحياة باطنة.

فالحياة الظاهرة : حياة المرء ببقاء نسله.

والحياة الباطنة : هى الحياة الأخروية، فإن هذه اللذة الناقضة بسرعة الانصرام، تحرك الرغبة الكاملة بلذة الدوام، فتحث على العبادة الموصلة إليها، انتهى.

وأخرج ابن عساكر فى تاريخه :

عن معاوية بن صالح، عن بعضهم، رفع الحديث : «لعن الله والملائكة رجلا تحصر بعد يحيى بن زكريا».

وأخرج الطبرانى فى الأوسط، والإسماعيلى فى معجمه، وابن عساكر فى تاريخه :

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : «فضلت على الناس بأربع : بالسخاء، والشجاعة، وكثرة الجماع ، وشدة البطش».

وأخرج البخارى فى صحيحه :

عن أنس قال : «كان النبى ﷺ يدور على نسائه فى الساعة الواحدة من الليل والنهار، وهن إحدى عشرة».

قلت لأنس : أو كان يطيقه ؟

قال : كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين.

وأخرج عبد الرزاق فى المصنف :

عن أنس قال : قال النبى ﷺ «أعطيت الكفيت، قيل : وما الكفيت، قال : قوة ثلاثين رجلا فى البضاع».

وأخرج ابن سعد فى الطبقات :

عن مجاهد وطاووس، قالا : « أعطى رسول الله ﷺ قوة أربعين رجلا فى الجماع».

وأخرج عبد الرزاق : عن سعيد بن المسيب، قال : «أعطى النبى ﷺ قوة بضع خمسة وأربعين رجلا».

وأخرج عبد الرزاق فى المصنف :

عن طاووس قال : «إن النبى ﷺ أعطى قوة خمسة وأربعين فى الجماع».

وأخرج الحارث بن أبى أسامه فى مسنده :

عن مجاهد، قال : أعطى رسول الله ﷺ قوة بضع أربعين رجلا، كل رجل من أهل الجنة».

وأخرج ابن عدى :

عن أبن عباس ، قال : قال النبى ﷺ «أتانى جبريل بهريسة من الجنة فأكلتها، فأعطيت قوة أربعين رجلا فى الجماع».

وقال ابن سعد :

عن صفوان بن سليم، قال : قال رسول الله ﷺ «أتانى جبريل بقدر فأكلت منها، فأعطيت قوة أربعين رجلا فى الجماع ».

والحديث : له طرق متعددة، وهذا الطريق ذكرناه على إرساله، ووصله ابن السنى فى الطب، من طريق صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة ، وفى بعض طرقه : «فما أريد أن آتى النساء ساعة إلا فعلت».

قال القاضى أبو بكر بن العربى فى سراج المريدين : قد آتى الله رسوله خصيصة عظمى ، وهى قلة الأكل، والقدرة على الجماع، فكان أقنع الناس فى الغذاء تقنعه العلقة، وتشبعه الجزة، وكان أقوى الناس على الوطء.

وأخرج ابن أبى حاتم : عن مقاتل بن حبان قال : «أعطى رسول الله ﷺ بضع سبعين شابا، فحسدته اليهودية، فانزل الله ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ .

وأخرج ابن جرير : عن ابن عباس قال : كان فى ظهر سليمان عليه السلام ماء مائة رجل، وكان له ثلاثمائة امرأة، وسبعمائة سرية.

وأخرج الشيخان :عن ابى هريرة، عن رسول الله ﷺ قال : «قال سليمان ابن داود عليهما السلام : لأطوفن الليلة على تسعين امرأة، وفى لفظ على مائة امرأة - فطاف عليهن».

وأخرج الحاكم فى المستدرك :

عن كعب قال : بلغنى أنه كان لسليمان ثلاثمائة امرأة ، وسبعمائة سرية.

وأخرج ابن عساكر فى تاريخه، بلفظ : لأطوفن الليلة على ألف امرأة ، فطاف عليهن.

وأخرج أحمد فى الزهد والنسائى والحاكم وصححه، والبيهقى :

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما حبب إلىّ من دنياكم ثلاث : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة ».

وأخرج أحمد فى الزهد :

عن معقل قال : « لم يكن شىء أعجب إلى رسول الله ﷺ من الخيل ، ثم قال : اللهم اغفر للنساء».

وأخرج ولده فى زوائده : عن أنس قال : قال النبى ﷺ «جعلت قرة عينى في الصلاة ، وحبب إلى النساء والطيب، الجائع يشبع، والظمأن يروى ، وأنا لا أشبع من حب الصلاة والنساء».

وأخرج أبو القاسم السهمى فى فضائل العباس :

عن ابن عباس قال : أعطى الله بنى عبد المطلب سبعا : الصباحة، والفصاحة، والسماحة، والشجاعة ، والعلم ، والحلم، وحب النساء .

قال التيجانى :

قال محمد بن كثير، كان الأوزاعى يقول : ليس حب النساء مثل حب الدنيا.

قال : ومراد الأوزاعى : ليس عن حب الدنيا المذموم.

أو يقال : إن الشىء قد يكون عن الدنيا، ويكون حبه عن الآخرة لإعانته عليها.

وقال : عن عمر : إنه ليس فى النساء سرف، ولا فى تركهن عبادة ولا زهد.

وقال القاضى عياض فى الشفا : النكاح ، متفق على التمدح بكثرته، والفخر بوفوره شرعا وعادة، فإنه دليل الكمال، وصحة الذكورية، ولم يزل التفاخر بكثرته عادة معروفة، والتمادح به سيرة ماضية.

وأما فى الشرع : فسنة مأثورة حتى لم يره العلماء مما يقدح فى الزهد.

قال سهل بن عبد الله : قد حببن إلى سيد المرسلين، فكيف تزهد فيهن.

وقد كان زُهاد الصحابة، كثيرى الزوجات والسرارى، كثيرى النكاح، وحكى فى ذلك عن علىّ، والحسن ، وابن عمر، وغيرهم غير شىء، انتهى.

وقال الشيخ تقى الدين السبكى : إنما حبب إليه ﷺ، ليقلن بواطن الشريعة، وأخلاقه الباطنية، وآياته فى حال خلوته، مما لا يشاهده غيرهن.

وأخرج أحمد والترمذى :

عن أبى أيوب قال : قال رسول الله ﷺ «أربع من سنن المرسلين : التعطر، والنكاح، والسواك ، والحياء ».

قال الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول : عقب إيراده لهذا الحديث :

الأنبياء عليهم السلام زيدوا فى النكاح بفضل نبوتهم، وذلك أن النور إذا امتلأ الصدر منه، ففاض فى العروق والبدن والنفس والعروق فأثار الشهوة وقواها.

وروى عن سعيد بن المسيب : إن النبيين عليهم الصلاة والسلام، يفضلون بكثرة الجماع على الناس، وذلك لما فيه من اللذة.

وقال ابن عمر : ما أعطى أحد من الجماع بعد رسول الله ﷺ ما أعطيت.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال :

«أعطيت قوة أربعين رجلا فى النكاح ، وأعطى المؤمن قوة عشرة ». فهو بالنبوة، والمؤمن بإيمانه ، والكافر له شهوة الطبيعة فقط.

وفى شرح البخارى لحافظ العصر، أبى الفضل ابن حجر :

قالوا : إن كل من كان أتقى لله كان أشد شهوة.

وقال ثعلب فى أماليه :

عن أبى زيد النحوى قال : سأل بلال بن أبى بردة، محمد ، قال : ما بال القراء أعلم الناس ؟

قال : لأنهم لا يزنون .

وأخرج الكتانى فى الجزء الرابع من فوائده :

عن جرير، قال : قيل لرقية بن مقلة : ما بال القراء أكثر شىء نهمة، وأكثر شىء غلمة ؟

قال : أما النهمة، فلأنهم يصومون، وأما الغلمة (شهوة)، فلأنهم لا يزنون.

وأخرج ابن عدى فى الكامل :

عن ابن عمر، قال : إنى لأظن، قسم لى منه مالم يقسم لأحد، إلا النبى ﷺ يعنى الجماع.

وأخرج أحمد بسنده :

عن سلمة بن صخر الأنصارى رضوان الله عليه قال : كنت امرءا قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيرى. فذكر قصة ظهار.

وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف :

عن ابن سيرين : أن سعد بن مالك، طاف على تسع جوار له فى ليلة، ثم أقام العاشرة، فقامت ، فنام فاستحيت أن توقظه.

وقال الغزالى فى الإحياء : أنكر بعض الناس حال الصوفية.

فقال له بعض ذوى الدين : ما تنكره منهم ؟

قال : يأكلون كثيراً.

قال : وأنت أيضا إن جعت كما يجوعون ، لأكلت كما يأكلون.

قال : ينكحون كثيرا.

قال : وأنت أيضا لو حفظت عينك وفرجك ، كما يحفظون، لنكحت كما ينكحون.

وكان الجنيد يقول : أحتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت.

قال : فالزوجة على التحقيق : سبب لطهارة القلب، ولذلك أمر رسول الله ﷺ كل من وقع بصره على امرأة فتاقت نفسه إليها أن يجامع أهله، لأن ذلك يدفع ذلك الوسواس عن النفس، ولذلك يحكى، عن ابن عمر، وكان من زهاد الصحابة، وعلمائهم، أنه كان يفطر من الصوم على الجماع، قبل أن يأكل، وربما جامع قبل أن يصلى المغرب ثم يغتسل عن ذلك لتفريغ القلب لعبادة الله، وإخراج عدة الشيطان منه.

ولما كانت الشهوة أغلب على أمزجة العرب كان استكثار الصالحين منهم النكاح أشد، وقد نكح على بن أبى طالب رضى الله عنه بعد وفاة فاطمة رضى الله عنها بسبع ليال.

وكان الحسن رضى الله عنه ابنه منكاحا، حتى نكح زيادة على مائتى امرأة.

قلت : بل أكثر من سبعمائة امرأة.

قال الغزالى :

وقد قيل : إن كثرة نكاحه أشبه به خلق رسول الله ﷺ .

أخرج ابن عدى :

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الرجل إذا أتى أهله احتسابا لم يتفرقا حتى يغفر الله لهما».

وقال ابن الأثير فى كتاب الصحابة : عن طعمة بن أبيرق قال : كنت أمشى قُدام النبى ﷺ فسأله رجل، ما فضل من جامع أهله مُحتسباً ؟

قال : « غفر الله لهما البتة ».

وأخرج البيقهى فى سننه :

عن عمر بن الخطاب قال : والله إنى لأكره نفسى على الجماع، رجاء أن يخرج الله منى نسمة تسبح.

وأخرج ابن السنى وأبو نعيم، كلاهما فى الطب النبوى، والبيهقى فى شعب الإيمان :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أيعجز أحدكم أن يجامع أهله فى كل يوم جمعة، فإن له أجرين اثنين، أجر غسله، وأجر غسل امرأته».

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان :

عن أبى ذر، قال : قلت يا رسول الله ذهب الأغنياء بالأجر.

قال ﷺ : «ألستم تصلون وتصومون وتجاهدون ؟».

قلت : بلى وهم يفعلون، كما نفعل، يصلون، ويصومون، ويجاهدون ويتصدقون، ولا نتصدق.

قال : «إن فيك صدقة كثيرة، وإن فضل بيانك عن الأثرم تعبر عنه حاجته، صدقة، وفى فضل بصرك على الضرير تهديه الطريق، صدقة، وفى فضل قوتك على الضعيف تعينه، صدقة، وفى إماطتك الأذى عن الطريق، صدقة، وفى مباضعتك أهلك، صدقة ».

قلت : يارسول الله أيأتى أحدنا شهوته، ويؤجر؟

قال : « أريأت لو جعلته فى غير حله كان عليك وزر؟».

قلت : نعم .

قال «أفتحتسبون بالشر، ولا تحتسبون بالخير».

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان :

عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « لك فى جماع زوجك أجر».

قلت : كيف يكون لى أجر فى شهوتى ؟

قال : «أرأيت لو كان لك ولد، فأدرك، ورجوت خيره ثم مات، أكنت تحتسبه؟».

قلت : نعم .

قال : « فأنت خلقته؟».

قلت : بل الله خلقه.

قال : « أنت هديته ؟».

قلت : بل الله هداه.

قال : « فأنت ترزقه ؟».

قلت : الله يرزقه.

قال : «فكذلك فضعه فى حلاله، وجنبه حرامه ، فإن شاء الله أحياه، وإن شاء الله أماته، ولك أجر».

وأخرج سعيد بن منصور فى سننه، والبيهقى فى شعب الإيمان :

عن أنس قال : «كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالباءة ، وينهانا عن التبتل نهيا شديدا».

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير :

عن قتادة، قال : ذكر لنا أن رجالا من أصحاب النبى ﷺ رفضوا النساء واللحم.

فقال رسول الله ﷺ «ليس فى دينى ترك النساء واللحم، وأنزل الله ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم .. ﴾ .

وقال سعيد بن منصور :

إن أبا مسلم الخولانى كان يقول : تزوجوا فإن النعظ أمر عارم، فأعدوا له عدة واعلموا أنه ليس لمنعظ ، أذن.

وأخرج ابن جرير فى تفسيره : عن سلام بن سابور فى قوله تعالى: ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ .

قال : الغربة ، والغلمة.

وأخرج ابن عدى فى الكامل :

عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ .

قال : الغلمة.

وأخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره :

عن مكحول ، فى قوله تعالى : ﴿ ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾.

قال : الغربة ، والغلمة ، والإنعاظ.

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى وحسنه ، والنسائى :

عن شكل بن حميد أنه قال : يارسول الله ، علمنى تعوذا أتعوذ به.

فقال : قل : «الله إنى أعوذ بك من شر سمعى، ومن شر بصرى، ومن شر لسانى، ومن شر قلبى، ومن شر منيى».

وقال الغزالى فى الإحياء : فما يستعيذ منه رسول الله ﷺ كيف يجوز التساهل فيه لغيره.

قال : وكان بعض الصالحين يكثر النكاح، حتى لا يخلو من اثنتين، وثلاث، فأنكر عليه بعض الصوفية.

فقال : هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدى الله تعالى جلسة،أو وقف بين يديه موقفا، فى معاملة، فخطر على قلبه خاطر شهوة ؟

فقال : يصيبنا من ذلك كثير.

فقال : لو رضيت فى عمرى كله بمثل حالكم فى وقت واحد لما تزوجت.

وأخرج الطبرانى ، وابن عدى :

عن ابن عباس قال :ما احتلم نبى قط، وإنما الاحتلام نعت من الشيطان.

وأخرج ابن السنى وأبو نعيم كلاهما فى الطب :

عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : «عليكم بالأبكار، فإنهن أعذاب أفواها، وأنتق أوحاما، وأسخن أقبالا، وأرضى باليسير من العمل ».

قال عبد الملك بن حبيب : يعنى : عن الجماع.

وأخرج مسلم :

عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ قال : «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة».

وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقى فى سننه :

عن طاووس، بلغ به النبى ﷺ « لم ير للمتحابين مثل النكاح ».

قال البلقينى فى التدريب : النكاح مشروع، من عهد آدم، لم تنقطع شريعته، ومستمر فى الجنة، ولا نظير له فيما يتعبد به .

وأخرج ابن السنى ، وأبو نعيم فى الطب :

عن الهذيل بن الحكم : أن النبى ﷺ قال : «إن جز الشعر يزيد فى الجماع».

وأخرج مسلم والحاكم : عن أبى سعيد، قال : قال رسول الله ﷺ «إذا آتى أحدكم أهله، وأراد أن يعود، فليتوضأ، فإنه أنشط فى العود».

وأخرج ابن أبى شيبة ومسلم والترمذى :

عن جابر أن رسول الله ﷺ : «رأى امرأة فأعجبته، فأتى زينب، فقضى حاجته منها، ثم قال : إن المرأة تقبل فى صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته، فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما فى نفسه».

وأخرج أحمد وأبو نعيم فى الحلية :

عن أبى كبشة مولى رسول الله ﷺ قال : «بينما رسول الله ﷺ جالس إذ مرت به امرأة، فقام إلى أهله فخرج إلينا ورأسه تقطر ماء.

فقلنا : يارسول الله كأنه قد كان شيء .

قال : نعم مرت بى فلانة، فوقعت فى نفسى شهوة النساء فقمت إلى بعض أهلى فوضعت شهوتى فيها، وكذلك فافعلوا فإنه من أماثل أعمالكم إتيان الحلال».

وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، والبيهقى فى شعب الإيمان :

عن عبد الله بن مسعود، قال : «خرج رسول الله ﷺ فلقى امرأة، فأعجبته فرجع إلى أم سلمة، وعندها نسوة يدفقن عجينا، فعرفن فى وجهه، فأدخلته، فقضى حاجته، فخرج ، فقال : من رأى منكم امرأة فأعجبته، فليأت أهله فليواقعها، فإن معها مثل الذى معها».

وأخرج ابن أبى شيبة :

عن سالم بن أبى الجعد « أن النبى ص رأى امرأة ، فأتى أم سلمة، فواقعها، وقال إذا رأى أحدكم امرأة تعجبه فليأت أهله، فإن معهن، مثل الذى معهن».

قال القاضى عياض فى الإكمال .

قوله . « إن المرأة تقبل وتدبر فى صورة شيطان»: إشارة إلى أنها تدعو إلى الهوى، والفتنة بجمالها، وما جعل الله فى طباع الرجل من الميل إليها، كما يدعو الشيطان بوسوسته، وإغوائه للناس.

وقوله : « فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله» تنبيه لدواء الداء المحرك للشهوة بإطفائه بالمواقعة، وتسكين النفس بإراقة ما تحرك من الماء.

قال : ولا تظن بمواقعة النبى ﷺ لزينب حين رأى المرأة، أنه وقع في نفسه شيء منها، بل هو ﷺ منزه عن الميل، ولكنه فعل ذلك ليقتدى به أمته في الفعل ويمتثلوا أمره بالقول.

قال : وقد يكون ﷺ عند رؤيته شخص ظاهر الحسن تذكرة من عنده، فذهب فقضى حاجته منها .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، فى تفاسيرهم :

عن طاووس فى قوله تعالى : ﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ .

قال : فى أمر النساء :

قلت : لأنه قد يذهب عقله عندهن.

وأخرج الترمذى وحسنه، والنسائى والبيهقى فى سننه

عن طلق بن على، سمعت النبى ﷺ يقول: «إذا دعى الرجل امرأته لحاجته، فلتجبه، وإن كانت على التنور».

وقال العلماء : علم ﷺ، شدة حاجة الرجل إلى المرأة، وضرره بتخلفها عنه، فحثها على إجابته.

وأخرج البزار :

عن ابن عباس : أن امرأة قالت : يا رسول الله أخبرنى ما حق الزوج على الزوجة؟ قال : «فإن حق الزوج على زوجته إن سألها نفسها ، وهى على ظهر بعير، لا تمنعه نفسها».

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان :

عن ابن عمر، عن النبى ﷺ أن امرأة أتته، فقالت : ما حق الزوج على الزوجة؟ فقال : « لا تمنعه نفسها ، وإن كانت على ظهر قتب».

وقال الحكيم الترمذى : معناه أن القوابل كانت تحمل المرأة عند ولادتها فى البوادى على القتب، حتى تتمكن من الولادة، فقال : لا تمنعه نفسها وإن كانت على قتب، أى فى حال ولادتها.

وأخرج ابن أبى شيبة :

عن عمير عن خلف الأنصارى، عن أمه، قالت : بعث النبى ﷺ عليا أيام التشريق ينادى : « إنها أيام أكل وشرب ، وجماع».

وأخرج ابن جرير :

عن الضحاك فى قوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا ﴾ فى المجامعة والحب.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم :

عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ .

قال : فى الحب، والجماع.

وأخرج ابن المنذر :

عن ابن مسعود فى قوله تعالى : ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء﴾

قال : فى الجماع.

وأخرج عبد بن حميد :

عن عطية العوفى فى قوله تعالى : ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾.

قال : فى الجماع.

وأخرج عبد بن حميد فى تفسيره وابن جرير:

عن جابر بن زيد، قال : كانت لى امرآتان، فلقد كنت أعدل بينهما حتى أعد القبل.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر :

عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجرونهن فى المضاجع﴾.

قال : لا تجامعها.

وأخرج ابن أبى شيبة والحاكم وصححه :

عن حذيفة قال: كيف أنتم إذا انفرجتم عن دينكم، انفراج المرأة عن قُبلها.

ولفظ ابن أبى شيبة : « تنفرج المرأة ».

وأخرج أبو داود والحاكم وصححه ، والبيهقى ، وغيرهم :

عن ابن عباس قال :

كان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف ، وذلك أستر ما تكون المرأة، فكان هذا الحى من الأنصار قد أخذوا ذلك عن فعلهم، وكان هذا الحى من قريش يشرحون النساء شرحا، ويتلذذون منهن مقبلات مدبرات ومستلقيات فلما قدم المهاجرون المدينة، تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب يصنع بها ذلك . فأنكرته عليه، فسرى أمرها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى :

﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ .

يقول : مقبلات ومدبرات ، بعد أن تكون فى الفرج.

وأخرج عبد بن حميد فى تفسيره :

عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ .

قال : قائمة، وقاعدة، ومقبلة، ومدبرة، فى أقبالها .

وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، وابن جرير في تفسيره :

عن مرة الهمدانى أن بعض اليهود لقى بعض المسلمين، فقال : لتأتون وراهن - كأنه كره الإبراك - فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت ﴿ نساؤكم حرث لكم ... ﴾ . فرخص الله للمسلمين أن يأتوا النساء فى الفروج كيف شاءوا وأنى شاءوا من بين أيديهن ومن خلفهن.

وأخرج ابن جرير :

من طريق سعيد بن أبى هلال، أن عبد الله بن على حدثه، أنه بلغه أن أناسا من أصحاب النبى ﷺ جلسوا يوما ورجل من اليهود قريب منه، فجعل بعضهم يقول : إنى لآتى امرأتى وهى مضطجعة، ويقول الآخر : إنى لآتيها وهى قائمة، ويقول الآخر: إنى لآتيها وهى باركة.

فقال اليهودى : ما أنتم إلا أمثال البهائم، ولكنا إنما نأتيها على هيئة واحدة، فأنزل الله ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد :

عن الحسن، أن اليهود كانوا قوما حسدا، فقالوا: يا أصحاب محمد إنه والله مالكم أن تأتوا إلا من وجه واحد، فكذبهم الله فأنزل الله تعالى ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ .

فخلى بين الرجال وبين نسائهم، يتفكه الرجل من امرأته، يأتيها إن شاء من قبل قبلها، وإن شاء من قبل دبرها، غير أن المسلك واحد.

وأخرج البخارى ومسلم والترمذى :

عن جابر، قال : كانت اليهود تقول إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت ﴿ نساؤكم حرث لكم ... ﴾ .

وأخرج الإمام أحمد، والدارمى فى مسنديهما، والترمذى وحسنه، والبيهقى، وغيرهم :

عن أم سلمة، أن الأنصار كانوا لايحبون النساء، وكانت اليهود تقول : إنه من حبا امرأته، كان الولد أحول، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا فى نساء الأنصار، فحبوهن، فأبت امرأة أن تطيع زوجها، وقالت : لن تفعل ذلك حتى أتى

رسول الله ﷺ فدخلت على أم سلمة، فذكرت لها ذلك، فحدثت أم سلمة رسول الله ﷺ فدعا الأنصارية، فتلى عليها ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾

قال القاضى عياض التحبئة تكون على وجهين

أحدهما أن تضع يديها على ركبتيها وهى قائمة منتحبة على هيئة الركوع

والآخر أن تنكب على وجهها باركة

وأخرج عبد بن حميد

عن مجاهد فى قوله تعالى ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾

قال . الجماع

وأخرج عبد بن حميد

عن سالم بن عبيد الله أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾

قال هو الجماع.

وأخرج عبد بن حميد

عن ابن عمر فى الآية . قال . الرفث الجماع.

وأخرج عبد بن حميد

عن قتادة، والحسن، وعكرمة، قالوا الرفث غشيان النساء.

وأخرج عبد الرزاق فى المصنف ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر:

عن ابن عباس، قال : الدخول ، والتغشى ، والإفضاء، والمباشرة، واللماس، والرفث : الجماع، غير أن الله حيي كريم، يكنى بما شاء عما شاء.

وأخرج عبد بن حميد :

عن عمرو بن دينار فى قوله : ﴿ فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ﴾ .

قال : الرفث : الجماع، وما دونه من شأن النساء.

وأخرج عبد بن حميد :

عن عطاء فى الآية، قال : الجماع ، وما دونه من قول الفحش.

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد :

عن ابن عباس، قال : الرفث فى الصيام : الجماع ، والرفث فى الحج : الإغراء به.

وكان يقول : الدخول واللماس، والمسيس : الجماع.

وأخرج عبد بن حميد :

عن طاووس ، قال : لا يحل للرجل المحرم الإعراب : والإعراب : أن يقول لامرأته، إذا أحللت أصبتك.

وأخرج عبد بن حميد :

عن مجاهد، قال : المباشرة فى كتاب الله : الجماع.

وأخرج سعيد بن منصور فى سننه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر: عن سعيد بن جبير، قال : كنا فى حجرة ابن عباس، ومعنا عطاء بن أبى رباح، ونفر من الموالى ، وعبيد بن عمير، ونفر من العرب، فتذاكرنا اللماس .

فقلت أنا وعطاء : اللمس باليد.

وقال عبد بن عمير والعرب هو : الجماع.

فدخلت على ابن عباس، فأخبرته.

فقال : غُلبت الموالى ، وأصابت العرب.

ثم قال : إن اللمس والمباشرة : إلى الجماع، فما فوق، ولكن الله يكنى ما شاء مما شاء.

وأخرج عبد بن حميد :

عن مجاهد فى قوله ﴿ وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ .

قال : مجامعة النساء.

وأخرج أبو بكر بن خلف المعروف بوكيع فى كتاب «العزيز من الأخبار :

عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ ونجنى من فرعون وعمله ﴾ .

قال : من جماعه.

وأخرج ابن حبان فى تفسيره :

الكميت، يقول فى قوله تعالى : ﴿ فلما رأينه أكبرنه ﴾ .

قال : امتَنَّ.

وأخرج عبد بن حميد :

عن مجاهد فى قوله تعالى ﴿ فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾

قال : الولد.

وأخرج البخارى :

عن محمد بن عباد عن جعفر، أن ابن عباس قرأ ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم﴾ ، قال : يا ابن عباس ما يثنون صدورهم ؟

قال : كان الرجل يجامع امرأته، فيستحى أو يبخل فيستحى، فنزلت ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم﴾ .

وفى لفظ، قال :كان أناس يستحيون : أى يبخلون، فيفضون إلى السماء.

قال : يجامعون، فيفضون إلى السماء فنزلت فيهم.

وأخرج ابن أبى شيبة، وابن جرير، وابن المنذر:

عن ابن عباس، يقول ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم﴾ .

قال : كانوا لا يأتون النساء ولا الغائط، إلا وقد تغشوا بثيابهم، كراهة أن يفضوا بفروجهم.

وأخرج الشيخ ابن حبان :

عن محمد بن كعب فى قوله ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ .

قال : فى ظلمة الليل، وظلمة اللحاف.

وأخرج سعيد بن منصور: عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله ﷺ قال له : «إذا قدمت على أهلك فالكَيس الكَيس».

وأخرج البخارى :

عن جابر، يقول : كنت مع رسول الله ص فى غزوة، فلما قفلنا، تعجلت.

فقال : وما تعجلك؟

قلت : إني حديث عهد بعرس.

قال: «فبكرا تزوجت أم ثيبا؟».

قال : « فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك».

وقال : « إذا دخلت فعليك بالكيس الكيس».

زاد ابن خزيمة :

فدخلنا حين أمسينا، فقلت للمرأة : إن رسول الله ﷺ أمرني أن أعمل عملا كيسا.

قالت : سمعا وطاعة، فدونك ، فبت معها حتى أصبحت.

قال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري :

جزم ابن حبان في صحيحه، بعد تخريج هذا الحديث بأن الكيس : الجماع، على أن المراد بقوله الكيس الكيس : الإغراء على الجماع والحث عليه.

وقيل : المراد به التأني والرفق، لأن في بعض طرقه : « إذا قدمت ، فاعمل عملا كيسا».

وقيل : المراد به طلب الولد، وبه جزم البخاري.

وقال بعض المصنفين في الباءة :

لو لم يكن في باب علم الباءة إلا حديث جابر، لكان كافيا في متمماته كلها، فإنه :

أولا : مغر بحسن البعال.

وثانيا: مرغب في تعلم ما أغرى به المصطفى ﷺ .

وثالثا : مضطراً إلى التفطن من مادة الكيس لما تتميز به مباضعة الأكياس، وهم البشر عن سفاد الطير، وجنس النعم ونزو السباع وعظال الكلاب، وضراب البهائم.

ورابعا : مؤكد لإفادة ذلك، وتعليمه، وبيانه، والتنبيه له، والحث عليه.

فأصل الجماع : يكفى فيه الطبع، ودواعيه اتحاداً وكيفاً وكماً، ولا يحتاج إلى الكيس والفطنة، إلا تحسينه المشهى لفوائده التامة، وبالتكايس تتأتى وجوهه الجيدة، فلا أقل من تنبيه الأذكياء لها، ولا إيماء، فلو أهمل التنبيه والإيماء إليها من أجل فطنة وذكاء ، لأهملت وتركت مع جابر رضى الله عنه وذكائه وفطنته.

وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول :

عن مجاهد، قال : إذا جامع الرجل، فلم يسم، انطوى الجان على إحليله، فجامع معه.

وأخرج أبو يعلى : عن أنس، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا جامع أحدكم أهله، فليصدقها، فإن سبقها، فلا يعجلها ».

وأخرج ابن عدى فى الكامل بسند ضعيف :

عن قيس بن طلق، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : «إذا جامع أحدكم أهله فلا يعجلها حتى تقضى حاجتها، كما يحب أن تقضى حاجته ».

قال الغزالى فى الإحياء : من آداب النكاح الذى حض رسول الله ﷺ عليها: إذا قضى الرجل وطره، فمن الأدب أن يمهل المرأة حتى تقضى أيضا هى وطرها، فإن إنزالها قد يتأخر عنه فالقعود عنه إذا ذاك إيذاء لها.

قال: والاختلاف فى وقت الإنزال، يوجب التنافر، مهما كان الزوج سابقا، وإن سبقت هى لا يضر الزوج .

قال والتوافق في وقت الإنزال ، ألذ للمرأة.

وأخرج ابن عدى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله ليعجب من مداعبة الرجل زوجته، فيكتب لهما بذلك الأجر، ويجعل لهما به رزقا».

وأخرج ثابت السرقطى فى الدلائل :

عن محمد بن عبد الرحمن الزهرى، عن أبيه عن جده، أن رجلا قال : يا رسول الله أيراكد الرجل امرأته ؟

قال : « نعم إذا كان ملفجا».

قال أبو بكر : يارسول الله ﷺ ما قال وما قلت له ؟

قال : « أيماطل الرجل امرأته ؟ قلت نعم إذا كان مُلسا». فسره بعضهم: بالجماع ، لأنه المقصود الأعظم للمرأة.

ومعنى الحديث : أنه إذا كان ضعيف الشهوة، تؤخره، ويداعبها، حتى تتحرك شهوته.

وأخرج ابن عدى :

عن عائشة أن رسول الله ﷺ «كان إذا قبل بعض نسائه مص لسانها».

وأخرج :

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ لأم عطية : «إذا خفضت فاشمى ولا تنهكى ، فإنه أضوأ للوجه وأحظى عند الزوج ».

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان :

عن أم عطية الأنصارية أن رسول الله ﷺ : «أمر جارية أن تختتن فإذا ختنت، فلا تنهكى ، فإن ذلك أحظى للمرأة وأحب إلى البعل».

وأخرج ابن عدى والبيهقى : عن ابن عمر قال : قال النبى ﷺ : «يا نساء الأنصار اختضن غمسا واخفضن ولا تنهكن، فإنه أحظى لأيامكن عند أزواجهن وإياكن وكفر المنعمين».

وأخرج الحاكم : عن الضحاك بن قيس قال : كانت بالمدينة امرأة تخفض النساء ، يقال لها: أم عطية، فقال لها رسول الله ﷺ : «اخفضى ولا تنهكى ، فإنه أنضر للوجه، وأحظى عند الزوج».

وأخرج ابن عدى : عن عمر عن النبى ﷺ قال : «تخيروا لنطفكم وعليكم بنوات الأوراك، فإنهن أنجب ».

وأخرج ابن الجوزى فى كتاب أخبار عمر بن الخطاب : العجيزة أحد الوجيهن.

وأخرج الذهبى فى فضل العلم : عن ابن شبرمة، قال : زين الرجال النحو: وزين النساء الشحم.

وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف :

عن ابن عمر، أنه كان إذا رأى الأمة تباع فى السوق، نظر إليها وضرب على كفلها.

وعن ابن عمر، أنه قال لجارية له : تجردى وأقبلى وأدبرى، وللتآلف. وأورده النووى فى تعليقه على التنبيه.

وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول : عن زهرة بن معبد قال : سمعت محمد بن المنكدر يدعو، يقول : اللهم قوى، فإن فيه منفعة لأهلى.

وأخرج ابن جرير عن السدى قال : كان عثمان بن مظعون، حرم النساء، كان لا يدنو من أهله، فذكرت امرأته ذلك لعائشة، فذكرت عائشة ذلك للنبى ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ : « ما بال أقوام حرموا النساء ، والطعام، والنوم. ألا إنى أنام، وأقوم، وأفطر، وأصوم، وأنكح النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى، فنزلت

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ .

وأخرج البيهقى فى الدلائل

عن ابن عمر أن امرأة قالت : يا رسول الله إنى إمرأة مسلمة، ومعى زوج لى فى بيتى مثل المرأة.

فدعاه النبى ﷺ فقال : « ما تقول امرأتك ؟».

فقال : والذى أكرمك ، ما جف رأسى منها.

فقالت امرأته : ما مرة واحدة فى الشهر ؟ دعا لهما النبى ﷺ فقال : «اللهم ألف بينهما وحبب أحدهما إلى صاحبه ».

وأخرج ابن عدى فى الكامل :

عن سهيا عن ذكوان أن امرأة استعدت على زوجها عند ابن الزبير.

فقالت : إنه لا يدعها فى حيض ولا فى غيره.

ففرض لها ابن الزبير أربعا بالليل وأربعا بالنهار.

فقال : لا يكفينى يا ابن الزبير، فتمنعنى ما أحل الله لى.

قال : إذا أسرفت.

وأخرج ابن سعد فى الطبقات :

عن على بن أبى طالب، قال : كفيتكم من النساء الحارقة، فما ثبتت منهن امرأة إلا أسماء بنت عميس.

قال فى النهاية : هى المرأة الضيقة الفرج.

وقيل : التى تغلبها الشهوة حتى تحرق ثيابها بعضها على بعض، أى تحكمها، يقول : عليكم بها.

ومنه حديثه الآخر : وجدتها حارقة، طارقة، فائقة.

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان :

عن أبى هريرة، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « فضلت المرأة على الرجل بتسعة وتسعين جزءا من اللذة، ولكن الله ألقى عليهن الحياء ».

وأخرج الطبرانى فى الأوسط :

عن ابن عمر، قال . قال رسول الله ﷺ : «فضلت المرأة على الرجل بتسعة وتسعين من اللذة، ولكن الله ألقى إليهن الحياء ».

وأخرج ابن عساكر فى تاريخه :

عن عبد الله بن بريدة، قال : ينبغى للرجل أن يتعاهد من نفسه ثلاثاً.

ينبغى له : أن لا يدع المشى، فإن احتاج إليه يوما يقدر عليه.

وينبغى له : أن لا يدع الأكل، فإن أمعاءه تضيق.

وينبغى له : أن لا يدع الجماع، فإن البئر إذا لم تنزح ذهب ماؤها.

وأخرج أبو عمر التوقانى فى جزء البطيخ بسنده :

عن ابن سيرين ، قال : الرفق فى كل شيء حسن إلا فى ثلاث : فى أكل الرمان، وأكل البطيخ، والجماع.

عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ عربا ﴾ .

قال : هى الغنجة.

وأخرج ابن أبى حاتم

عن عكرمة قال : العربة ، هى : الغنجة .

وأخرج ابن جرير :

عن زيد بن أسلم قال : العربة، هى : الحسنة الكلام.

وأخرج ابن جرير :

عن تميم بن جدام قال : العربة : الحسنة التبعل.

وأخرج ابن المنذر :

عن مجاهد قال : هى الغلمة.

وأخرج :

عن عبد الله بن عمير، قال : هى التى تشتهى زوجها.

وأخرج ابن عساكر فى تاريخه : عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث النوفلي، أنه سئل عن العروب من النساء؟

فقال : الحفرة المبتذلة لزوجها.

وأنشد :

يُعربن عند بعولهن إذا خلواً وإذا هم خرجوا فهن خفار

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن على ، قال : قال رسول الله ﷺ «جهاد المرأة حسن التبعل لزوجها».

وأخرج البيهقى : عن أسماء بنت يزيد الأنصارية أنها قالت : يا رسول الله إنكم معاشر الرجال فضلتم علينا، بالجمعة، والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله.

فقال رسول الله ﷺ «إن حُسن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته، يعدل ذلك كله».

وأخرج ابن عدى : عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ :«خير نسائكم العفيفة الغلمة».

وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس :

عن على مرفوعا: « إن الله يحب المرأة الملقة البزغة اللبقة».

وفى القاموس : اللبقة : الحسنة الدل، والدل ، هو : الغنج.

وفى ربيع الأبرار للزمخشرى :خير نسائكم العفيفة فى فرجها، الغلمة لزوجها.

وأخرج البيهقى فى الدلائل : عن مازن أنه قال : يارسول الله إنى مُولع بالهلوك من النساء.

قال ابن فارس فى المجمل : الهلوك : الغنجة.

وقال ابن الأثير فى النهاية : هى التى تتمايل وتنثنى عند جماعها.

وقال فى القاموس : هى الحسنة التبعل لزوجها، وهى أيضا الفاجرة، المتساقطة على الرجال.

وأخرج ابن عساكر فى تاريخه بسنده : عن عبد الله بن محمد، قال : راود معاوية زوجته، فاختة بنت قرظة، فنخرت نخرة شهوة، ثم وضعت يدها على وجهها.

فقال : لا سوءة عليك، والله لخيركن الشخارات النخارات.

وأخرج ابن عساكر : فى ترجمة محمد بن وضاح الأندلسى أحد أئمة المالكية من طريقه قال

سمعت سجنون يقول : سمعت أشهب يقول : أغنج النساء المدنيات.

قال السيوطى : ولى فى هذا النوع تأليف يسمى : [شقائق الأترنج] مشتمل على لطائف وفوائد، وبعضها يأتى فى نوع النوادر والأخبار من هذا الكتاب.

وأخرج ابن عدى ، والبيهقى فى شعب الإيمان :

عن أبى سعيد أن النبى ﷺ قال : «السباع حرام ».

قال ابن لهيعة : يعنى المفاخرة بالجماع.

وأخرج ابن عدى :

عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ « نهى عن السباع ».

والسباع : المباهاة بالنكاح.

وأخرج أبو يعلى، والطبرانى، والبيهقى فى البعث والنشور :

عن أبى أمامة أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : هل يتناكح أهل الجنة ؟

فقال : « نعم بذكر لا يمل ، وشهوة لا تنقطع دحما دحما ».

وفى لفظ : « دحاما دحاما، لا منى ولا منية ».

وأخرج الحارث فى مسنده، وابن أبى حاتم :

عن الهيثم الطائى وسليم بن عامر، أن النبى ﷺ سئل عن البضع فى الجنة؟

فقال : « نعم بقبل شهى، وذكر لا يمل ».

وأخرج ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة، والبزار :

عن أبى هريرة أن النبى ﷺ سئل هل يمس أهل الجنة أزواجهم ؟

قال : « نعم بذكر لا يمل، ويفرج لا يحفى ، وشهوة لا تنقطع ».

وأخرج الضياء المقدسى فى صفة الجنة

عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه سئل أنطأ فى الجنة ؟

قال : «نعم، والذى نفسى بيده دحما دحما ، فإذا قام عنها، رجعت مطهرة بكرا».

وأخرج البزار، وأبو الشيخ فى العظمة، والطبرانى فى الصغير :

عن أبى سعيد الخدرى، قال قال رسول الله ﷺ : «أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم، عادوا أبكاراً ».

وأخرج الترمذى والبيهقى .

عن أنس قال قال رسول الله ﷺ « «يعطى المؤمن فى الجنة قوة مائة فى الجماع ».

وأخرج أبو يعلي والبيهقى

عن ابن عباس، قال قيل يارسول الله ، نفضى إلى نسائنا في الجنة كما نفضى إليهن فى الدنيا.

قال : «والذى نفس محمد بيده، إن الرجل ليفضى بالغداة الواحدة إلى مائة عذراء ».

وأخرج ابن أبى الدنيا، وابن أبى حاتم

عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون﴾ .

قال فى افتضاض الأبكار.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن مسعود مثله

وأخرج البيهقي عن عكرمة والأوزاعي مثله

وأخرج الأصبهاني في ترغيبه

عن أبي الدرداء، قال ليس في الجنة مني ولا منية

وأخرج الطبراني

عن زيد بن أرقم، أن النبي ﷺ قال « إن البول والجنابة، عرق يسيل من تحت ذوائبهم إلى أقدامهم مسكا »

وأخرج أبو نعيم في الحلية

عن سعيد بن جبير، قال كان يقال إن طول الرجل من أهل الجنة تسعون ميلا، وطول المرأة ثمانون ميلاً، وجلستها جريب، وإن شهوتها لتجرى في جسده سبعين عاماً، يجد لذتها

وأخرج ابن عساكر

عن أبي سليمان الداراني قال إن في الجنة أنهاراً على شاطئها خيام فيهن الحور ينشئ الله خلق إحداهن إنشاء فإذا تكامل خلقها، ضربت الملائكة عليهن الخيام، جالسة على كرسي ميل في ميل، قد خرجت عجزتها من جوانب الكرسي. فيجيء أهل الجنة من قصورهم يتنزهون ما شاؤا، ثم يخلو كل رجل منهم بواحدة منهن

المراجع

١- الأغانى - أبو الفرج الأصفهانى .

٢- الحب فى صدر الإسلام .

٣- العقد الفريد - لابن عبد ربه .

٤- نزهة الجلساء - للسيوطى .

٥- نساء خلف أبواب القصور - محمد رضوان .

٦- المستطرق - للأبشهى .

٧- زاد المعاد لابن القيم .

٨- قرة العيون - لابن يافون.

٩- غرام الشيوخ - من تأليفنا .

١٠- نساء الخليج - أحمد زيادة.

١١- أخبار الجوارى .

١٢- البيان والنبيين - للجاحظ .

وغيرها ....



الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس